الدكتور طه الحاجري

ابن حزم

صورة أندلسية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى تلك الصورة الرائعة التى مازالت حاضرة فى ذاكرتنا ، مشرقة فى ضمائرنا ، موجهة لآمالنا ومطامحنا ؛ صورة النشاط العقلى المتوثب ، والحياة الفكرية الناضرة ، التى كانت تطبع — منذ ثلاثين عاماً — حياتنا الشابة ، فتحيلها جذوة مشبوبة متقدة .

إلى تلك الروح التى أحالت حياتنا ، هاتيك الأيام — على ما كان يكتنفها من ضيق ، وما كان يكتنفها من صعاب — متعة دائمة مطردة ، ونشوة هائمة متجددة .

إلى تلك الصداقة العقلية والروحية التى كانت — وما تزال — ذخر قلوبنا ، والمتاع الأكبر لأرواحنا وعقولنا ؛ والتى كانت — وما تزال — تتمثل — أسمى ما يكون ، وأصفى ما يمكن ، وفى أقوى صورة وأنضرها — فى هذه الفئة المغمورة فى عباب الحياة الدنيا ، المحلقة دائماً فى سماء الفكر والمثل العليا .

وإلى هؤلاء الأصدقاء ، الذين هم دائماً ملء القلب والفكر والضمير ، أهدى هذا الكتاب .

الحاجرى

تمهيد

عرفت ابن حزم أول ما عرفته منذ نيف وعشرين عاما ، حين أخذت إحدى دور النشر بالقاهرة تخرج كتابه المحلى . ولست أستطيع أن أذكر الآن على وجه الدقة ما الذى شغفنى إذ ذاك بهذا الكتاب ، وجعلنى حريصا على اقتنائه ، حفيّا به ، مقبلا على قراءته ، فالمدى بعيد ، والأحداث كثيرة ، والتيارات مختلفة متواترة . ولكن الذى أذكره أن هذا الكتاب كان يمثل فى أذهاننا الغضة وقلوبنا المتفتحة فى ذلك الوقت حلقة من حلقات تلك الكتب التى جعلت تظهر إذ ذاك واحدة بعد الأخرى ، لابن القيم وابن تيمية والشوكانى . وكانت تعتبر إلى حد ما مظهرا من مظاهر التجاوب مع ما كان يسيطر علينا ويغمر نفوسنا و يوجه تفكيرنا إذ ذاك من رغبة قوية جارفة عارمة فى التجديد الدينى ، والرجوع بالتشريع الإسلامى والمعرفة الإسلامية عامة إلى مصادرها الأولى ومنابعها البعيدة ، نقية صافية بريئة مما تركته عليها الأجيال المتعاقبة المختلفة من أوضار وأوزار ، جعلتها كريهة المذاق ، بغيضة الصورة ، ثقيلة الطلعة .

وما أريد أن أسترسل فى بيان عوامل ذلك النهوض الديني ومظاهره وأسبابه القريبة والبعيدة ، ونتائجه المؤكدة والمحتملة ، فذلك بحث طويل متشعب أرجو أن تتجه إليه همم الباحثين فى تاريخ حياتنا العقلية الحديثة اتجاها صادقا مصمما . و إنما أذكر أن ابن حزم أخذ منذ ذلك الوقت يحتل

فى أذهاننا قبل الإمعان فى هذا الكتاب قراءة ودراسة مكان الرجل الحر الفكر ، الذى يصلح أن يكون دعامة من دعائم التحرر الدينى .

فإذا أقبلت على الكتاب وجدته رجلا قوى الشخصية إلى أبعد مدى ، عظيم الاعتداد بنفسه إلى أبعد غاية ، ولكنه اعتداد قوامه الفهم العميق ، والعقل المحكم الوثيق ، والعلم الواسع الدقيق ، والإيمان القوى ، والقدرة البالغة على التغلغل فى بواطن الموضوعات التى يعالجها ، واستشفاف ما عسى أن يكمن وراءها ، وعلى الجدل والمناظرة ، وعلى الإقناع أو الإفحام

يعرض المسألة من مسائل الفقه الإسلامى ، مقرراً فيها رأيه ، وهو رأى لا يستند إلا إلى الأدلة المأثورة : القرآن وما صح من الحديث ، كما هو مذهبه ، ثم يذهب يعرض آراء الأئمة السابقين : مالك والشافعى وأبى حنيفة والأوزاعى ومن إليهم ، فى هذه المسألة ، مع إيراد أدلتهم وبيانها ثم تفنيدها ، إذ يعرضها على الآثار المروية الصحيحة ، أو يعرض الآثار التى اعتمدها هؤلاء الرجال على النقد ، إذ ينقد أسانيدها ويتحدث عن رجالها ، ثم ينتهى بأن يصك رأيه فيها صكا ، لا يتجمل ولا يترفق ولا يتلطف

ومازلت أذكر له هذه العبارات وأسمع فى نفسى — بعد هذه السنين الطوال الحافلة — أصداءها متجاوبة : « أما قول أبى حنيفة ففى غاية التخليط والتناقض والفساد » ، « أما قول مالك فظاهر الخطأ » ، « هذا كذب مجرد لا ندرى كيف استحله من أطلق لسانه به » . وما أزال أذكر كيف كنت أستقبل هذه العبارات وما فيها من تهجم على الأئمة السابقين

المحفوفين فى أنفسنا بمعانى القداسة ، وكيف كنت أستشعر الفزع منها ، وأحس دبيب السخط يدب فى نفسى وأنا أقرؤها ، فأغالب الفزع وأقاوم السخط ، ثم ما تلبث سعة علم الرجل وقوة حجته ، ونصاعة أدلته ، وبسطة عبارته ، أن تعفّى على ذلك وتزيل أثره .

وما ظنك برجل يستطيع أن يتناول الأمور التشريعية كلها : عباداتها ومعاملاتها ، ويقضى فيها ، دون أن يرجع فى شىء منها إلا إلى الكتاب والسنة الصحيحة والإجماع التام على ماهو عنده . أما القياس والرأى فباطل ومنكر وفساد كبير ، ثم هو يستطيع مع هذا أن يحتج لجميع مايذهب إليه من ذلك احتجاجا يمضى نحو الإقناع أو الإفحام بقوة .

ومهما يكن الرأى فى ابن حزم وفى المذهب الظاهرى الذى يدين به ويدعو إليه ، ولسنا من بيانه فى قليل ولا كثير ، فالذى لا ريب فيه مما يدل عليه هذا الكتاب ، أن الرجل يمثل الشخصية المستقلة ، والعقل الحر القوى ، والأفق الواسع الرحيب .

وبهذا الاستقلال فى الرأى ، والبعد — قدر ما يمكن أن يتاح لرجل مثله — عن تلك الرواسب التى أرسبتها الأجيال المختلفة ، وكثير منها كان يخضع لألوان من الفساد الاجتماعى تؤثر تأثيراً قوياً فى التفكير الدينى ، كان ابن حزم يعتبر من الدعائم القوية التى يمكن أن تقام عليها النهضة الدينية بتربية الروح الاستقلالية ، والتخلص من شعور القداسة الذى يربطنا بأمراس قوية بالمتقدمين دون تمييز ، فلا نكاد نملك — فيما كان يسود بيننا إذ ذاك — أن نحرر نظراً ، أو نستقل بتفكير .

ومهما يكن من أمر فما أزال أذكر كيف خرجت من قراءتى لكتاب المحلى لابن حزم، وأنا أتمثله فى صورة الرجل القوى العملاق الممتلىء النفس ثقة، الذى لايدين لأحد إلا مايذهب إليه بنفسه، ومايؤدى إليه تفكيره، فإذا أدى إلى شىء فاقتنع به وآمن أنه الحق، ذهب ينشره ويذيعه، ويذهب إلى إذاعته والإقناع به كل مذهب، لا يعبأ بأحد، ولا يكترث بما عسى أن يعترضه فى ذلك.

تلك هى الصورة التى أداها إلىّ كتاب المحلى عن صاحبه، وإن كنت أراه أحياناً يعتسف السبل ويتكلف الحجج ويخطىء الهدف، ولكن شيئاً من ذلك لم يمنع تلك الصورة أن تظل ماثلة فى خيالى واضحة قوية، ثم أتيح لى بعد ذلك أن أقرأ كتابه الآخر: الفصل فى الملل والأهواء والنحل، فإذا هو هو سعة علم وقوة عقل ومهارة فى المناظرة وبراعة فى إدارة الخصم، وثقة بالنفس واعتداداً بها، ثم سلاطة لسان بعد ذلك، نغتفرها نحن الذين ننكر هذا اللون من ألوان المناقشة، وننفر منه ونفزع، لتلك الصفات العلمية الرائعة، وتلك السمات الجميلة الأخاذة من شخصيته. ومن لك بأخيه كله، ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها.

وإنه لحسبنا من الرجل أن يتوفر له مانسميه الآن بالشجاعة الأدبية، لنحله فى أنفسنا أعلى مكان، ونرفعه فى تاريخنا العقلى إلى أسمى ذروة، ونجعله مثلا عالياً وهاجا نبصر به الناشئة الذين ما يزال الفساد الاجتماعى الذى يسود حياتنا يأخذهم فى كل وقت باصطناع المسامحة والمساهلة والمجاملة

والمجاراة والمسايرة ، إلى آخر تلك المعانى التى تدل على تحلل النفس وضعف الخلق وتلاشى الشخصية ، حتى كاد يفقد صاحب الرأى الإيمان برأيه فى تلك الغمرة الطاغية ، بل حتى كاد يذهب الرأى جملة ، ولا تبقى إلا العوارض الوقتية أو الأهواء الشخصية ، تلبس لكل حالة لبوسها ، فيسير فى ركابها فريق ، وينطوى الآخرون على أنفسهم فى صمت .

لو لم يكن للرجل من فضيلة غير هذه الفضيلة التى أوذى بسببها أشد الإيذاء فى شتى أطوار حياته ، وترادفت عليه — بسبيل منها — عبارات التشنيع والتشهير بعد وفاته ، لكان بحسبه ذلك فضلا ، وبحسبنا منه ، فقد بلغ فيها الغاية ، وأوفى فيها على مثلها الأعلى .

وإنا لنرى هذه الفضيلة فى كتبه التى بلغتنا عامة ، كما نراها مركزة فى عبارات جامعة ، ضمنها رسالته الصغيرة الجيدة التى وضعها فيما يبدو فى آخر حياته ، وهى رسالة الأخلاق والسير ، وهى كلمات تعبر عن هذه الخصلة تعبيراً بليغاً واضحاً قوياً ، كما تعتبر فى نفسها من جوامع الكلم فى هذا الموضوع ، كقوله :

« العاقل لا يرى لنفسه ثمناً إلا الجنة » ، وقوله : « لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها ، وليس ذلك إلا فى ذات الله عز وجل . . . وباذل نفسه فى عرض دنيا كبائع الياقوت بالحصى » ، وكقوله : « . . . وأما الذى يعيبنى به جهال أعدائى من أنى لا أبالى فيما أعتقده حقاً عن مخالفة من خالفته ؛ ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض ، وأنى لا أبالى موافقة أهل بلادى فى كثير من زيهم الذى قد تعودوه لغير معنى ، فهذه الخصلة

عندى من أكبر فضائلى التى لا مثيل لها . ولعمري لو لم تكن فىّ — وأعوذ بالله — لكانت من متمنياتى وطلباتى عند خالق عز وجل . وأنا أوصى بذلك كل من يبلغه كلامى ، فلن ينفعه اتباع الناس فى الباطل والفضول إذا أسخط ربه ، وغبن عقله ، أو آلم نفسه وجسده ، وتكلف مؤونة لا فائدة منها » ، إلى غير ذلك من الكلمات المبثوثة فى أطواء ذلك الكتيب ، مما ينبغى أن نقيمه نبراساً فى حياتنا العلمية .

لو لم يكن للرجل إلا هذه الفضيلة لكفاه وكفانا به ، ولكن للرجل إلى جانبها من الفضائل ما يجعله جديراً بأرفع آيات التمجيد : هذه الإحاطة العلمية الشاملة التى نراها رأى العين فيما بقى لدينا من كتبه ، وهو قليل من كثير ، بعد الذى تعرضت له من النكبات الخاصة ، ونكبات المكتبة العربية عامة ، فقد اجتمع لدى ابنه أبى الفضل رافع أربعمائة مجلد فى نحو ثمانين ألف ورقة ، وهو تراث غاية فى الضخامة كما ترى . ويصف معاصره صاعد الأندلسى مبلغ علمه ، فيقول : « كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة ، مع توسعه فى علم اللسان والبلاغة والشعر والأخبار »

ثم هذه المقدرة العقلية العجيبة حقا فى الفهم الدقيق الشامل ، وفى الاستنباط والاستنتاج ، وفى نقد آراء الغير ومجادلتهم ومناظرتهم ، وهى خاصة عقلية لا تفارقه فى أى حال ، فلا نكاد نجده مرة نائم العقل أو مسترخى الذهن أو مستسلما للنقل ، فليس الرجل فى كتبه وتأليفاته ، ما صغر منها وما كبر ، جمّاعة من هنا ومن هنا ، يحشد فيها ما يحفظ ويقرأ كما نعرف

فى كثير من الـكتب ، وإنما هو حاضر العقل يقظ الذهن دائما ، كل مايقوله يجب أن يمرّ من رأسه أولا ، ويجب أن يتردد بين تلافيف مخه ، وكل ما يقرؤه أو يحفظه، مما هو فى حاجة إلى إيراده ، يجب أن ينظر فيه نظر الناقد البصير الذى يحكم فى نقده علمه وعقله ، ولا يكاد يحكم شيئا غيرهما ،إلا ما لا يقع تحت إرادته ، ولا يدخل فى نطاق وعيه ، وإن كان يتوقاه جهده .

وهكذا نرى أن فضل ابن حزم لايقف عنـد تلك الخلة التى جلبت عليه ما جلبت فى حياته و بعـد مماته ، وإنما هو يعتبر مرجعا من المراجع العظيمة الرئيسيةالتى نرجع إليها فى تعلم العلم فى نفسه ، وقد انقطعت الأسباب بيننا و بين كثير من هـذا العلم ، ثم فى تعلم الأسلوب العلمى فى التفـكير والتقدير ووزن الأمور وفى تربية الملكة النقدية وقد يكون فى هذا الأسلوب ما يعاب ، ولـكنا إنما نحكم على الشىء بجملته وفى مجموعه ، و بالصفة الغالبة عليه ، والأصل العام فيه ، وهو الذى ينتهج ويحتذى ، أما ما وراء ذلك فلـكل امرىء منهجه المتأثر بطبيعته ومزاجه وملابسات حياته . ثم هو بعد ذلك كله أو قبل ذلك كله من خير الأمثلة التى يجب أن نتمثلها فى التحرر العقلى ، والخلق العلمية ، والشجاعة الأدبية .

هذه هى مكانة الرجل الممتازة فى حياتنا العقلية ، وفى تاريخنا العلمى ، وهى مكانة جديرة بالرعاية ، حقيقة بالدرس والتأمل والتدبر ، خليقة بأن نشيد بها ونوجّه إليها ونحرص على إبرازها .

والحياة الأندلسية التى ينتمى إليها ابن حزم جديرة كلها بكل عناية ورعاية ودرس عميق دائب متصل . إنها فترة منقطعة من التاريخ الإسلامى ،

عدت عليها العوادى فقطعت صلتها بمجرى ذلك التاريخ ، وقيل : هنا نهاية الأندلس الإسلامية و بداية أسبانيا النصرانية . ولكن إذا صح هذا فى التاريخ السياسى ، ولعله غير صحيح ، فإنه لا يمكن مطلقا أن يصح فى التاريخ العقلى والأدبى ، فالعقل الأندلسى هو وجه من وجوه العقل الإسلامى، والأدب الأندلسى هو لون من ألوان الأدب العربى . وما زال العقل الإسلامى فى كافة عهوده وجميع مواطنه يكون سلسلة متصلة الحلقات متلاحمة الأجزاء لا يمكن الفصل بينها والتفريق بين ما هو هنا وما هو هناك . وكذلك الأمر فى الأدب العربى عامة ، فقد تختلف طوابعه بين عصر وعصر و بين بيئة و بيئة ، ولكنه كله آخذ بعضه برقاب بعض ، فى نمط متصل ينتظم أجزاءه وألوانه جميعا .

وإذن فليس يكفى أن نعتبر تلك الحياة الأندلسية أطلالا دارسة ، نقف عليها لنحييها ونبكيها ونتحسر على أيامنا فيها ، ونسترجع عهودنا الماضية فى أكنافها ، لأن فيها من الذكريات ما يثير شجوننا و يستدر دموعنا و يهيج حسراتنا . فما أتفهه صنيعا لهذه الأطلال التى تمثل لنا أبوة مجيدة ، وعزة سامقة ممدودة ، وحضارة غمرت الآفاق بنورها ، وصوتا عاليا مرهوبا دانت له الدنيا رغبة ورهبة ، أن نكتفى بالمثول أمامها كما كان يمثل ذلك البدوى أمام الدمن البوالى والآثار الدوارس يبكيها و يناجيها ، إذ ما كان يملك غير ذلك الصنيع الساذج الأولى .

فإنما واجبنا أن نتجاوز هذا الطور البدائى فى أداء حق هذه الأطلال علينا ، وهى التى تتمثل فى تلك البقايا المتناثرة والأثارات المبعثرة من الحياة

الأندلسية ، فنبذل ما نملك من جهد فى استحيائها ، ونصطنع كل ما أتيح لنا من أساليب علمية ووسائل فنية لجمع شتاتها وضم أجزائها وتنسيق ما بينها ونفخ الحياة فيها ، وعرضها بعدُ فى صورة جميلة محققة : ترضى العلم وتعجب الفن ، وتجد فيها الروح العربية الإسلامية حاجتها .

وهذا البحث الذى أقدمه اليوم عن ابن حزم هو مساهمة متواضعة فى تحقيق هذا الهدف ، حاولت فيه أن أعرض صورة من ابن حزم الرجل ، تبين ملامحه النفسية وسماته الروحية ونوازعه الغالبة عليه ، الموجهة لسائر خلاله ، كما تكشف عن ملابسات حياته ، وما أتيح لنا أن نستنبطه من العلل الظاهرة والباطنة ، التى كانت تعمل عملها فى خلق هذه السمات والنوازع ، وذلك خلال تتبعنا لمراحل هذه الحياة وأطوارها ، وتعرف ما تعرض له فى كل مرحلة منها ، فى نمط تاريخى متسق . وقد حرصت فى ذلك كله ألا تطغى ناحية التحقيق العلمى على ناحية العرض الفنى ، وألا تتحيّف هذه الناحية الأخيرة مما ينبغى لمثل هذا البحث من دقة . وأنا أرجو أن أكون قد وفقت فى المزج بين هذين الاتجاهين بقدر متعادل .

ولعلى أكون استطعت فى سياق هذه السيرة أن أبرز بعض الألوان الظاهرة للبيئات التى اتصل ابن حزم بها وتعرض لآثارها ، وأن يكون ذلك فى جملته قد استطاع أن يؤدى إلينا صورة من صور الحياة الأندلسية فى هذه الفترة الانتقالية ، وفى خلال هذه الفورة العنيفة التى اضطربت بها الأندلس أيما اضطراب ، والتى مرجتها ومخضتها أعنف المخض ، فاختلطت فيها القيم ، وتغيرت الأوضاع ، وماجت المعايير .

ابن حزم هذا هو أبو محمد ، على بن أحمد بن سعيد بن حزم . فحزم هذا — وهو كما نرى جد أبيه — هو الذى إليه ينتسب و به يعرف ، فهو كما يبدو رأس هذه الأسرة . ولكن نسبه المدون لايقف عند هذا الرجل ، بل يمضى مطرداً حتى ينتهى إلى رجل اسمه يزيد ، قالوا : إنه فارسى الجنس ، وإنه من موالى يزيد بن أبى سفيان ، أحد رجال الفتوح الشامية ، والمتوفى سنة ١٨ هجريه .

على أنه ينبغى ألا يخدعنا هذا النسب المتسلسل الذى يذكره ياقوت والذهبى والمقرى ومن إليهم ، ممن تعرض لترجمة ابن حزم ، وإن أسند بعضهم حكاية هذا النسب إلى ابن حزم نفسه ، أو زعم أنه رآه بخطه . فأمر الأنساب فى الغرب — كما كان فى الشرق — أمر تحيط به الريب وتكتنفه الشبه . وصناعة الأنساب وتلفيقها وتنسيقها صناعة كانت رائجة فى الأندلس رواجها فى العراق . وإنه ليقل أن نجد رجلا من الموالى من أهل المشرق إلا وله نسب عربى نسقت فيه الأسماء العربية اسما وراء اسم ، حتى تبلغ السلسلة غايتها المرسومة فى صدر الإسلام أو فى العصر الجاهلى ، لينتقل بذلك من الضعة التى وسم بها الشعب المقهور فى بلده ، المغلوب على أمره ، إلى عزة الشعب الغالب الفاتح المنتصر . وربما كان للرجل من قوة شخصيته وكمال خلقه واعتداده بنفسه ، ما يجعله يتحرج عن مثل هذا الصنيع ، فلا يعدم من تلاميذه وأتباعه المكبرين له والمعجبين به ، من يغار له ، ويأنف عنه أن يكون فى جملة الموالى ، فإذا به يرى له ما لا يراه لنفسه ، ويعرف

من أمره ما ينكره هو ، فيتبرع له بنسب يجعله عربياً صليبة ، بدلا من أن يكون عربيا بالولاء .

وهذه ظاهرة طبيعية من ظواهر مقاومة شعور الضعة ، وإنا لنجدها فى الأندلس كما نجدها فى العراق ، ولكن فى شىء من الاختلاف ، يتبع الاختلاف بين الفتح العربى للعراق والفتح الإسلامى للأندلس ، ففتح العراق وما إليها إنما كان قوامه هؤلاء العرب الذين أقبلوا من أنحاء الجزيرة العربية ، وأما فتح الأندلس الذى كان فى أواخر القرن الأول ، فيختلف عنه بذلك القدر ، إذ كان قوامه ذلك الجيل الإسلامى الذى تكون خلال ذلك القرن الأول ، من العرب وغيرهم من الموالى الذين لحقوا بهم ، واعتنقوا دينهم ، ونشأوا فيهم ، وصار لهم مالهم وعليهم ماعليهم ، وبذلك أخذت تلك الظاهرة صورة أخرى . فلم يعد انتحال الأنساب فى الأندلس يقصد به الالتحاق بالجنس العربى خاصة ، كما كان الأمر فى العراق ، إذ لم يكن لغير العرب فخر الفتح وفضل السيادة ، وإنما أصبح يقصد به هنا الالتحاق بالعنصر الفاتح المكون من العرب وصنوف الموالى ، فكلهم سواء — تقريباً — فى تمثيل العزة والمجد والغلبة والاستعلاء فى ذهن الرجل الأسبانى المقهور ، والانتماء إلى أى عنصر من عناصر ذلك المجموع الفاتح السيّد يكفل له تحقيق ما ينزع إليه بطبيعته ، من مقاومة ذلك الشعور ، ومغالبة سمة الضعة التى ما تزال تؤزه وتعكر عليه صفوه .

وإذن فمن الحق علينا ألا نطمئن ، بادىء ذى بدء ، إلى هذه السلسلة النسبية المنسوقة التى تلحق بابن حزم ، والتى يخرج بفضلها من الجنس

الأسبانى المغلوب ، ويدخل فى عداد العنصر الإسلامى الغالب . ولعل أول ما يريبنا فى هذا النسب هو هذا النسب نفسه ، إذ ينتهى إلى يزيد ذلك المولى الفارسى . فمتى كان الموالى عامة ممن يعنون بحفظ أنسابهم والحرص على تخليدها ؟ فلو أن هذا النسب كان ينتهى إلى رجل عربى صميم لكان لقائل أن يقول ، أما وهو ينتهى إلى مولى لا شأن له ولا خطر ، وليس فى أسمائه اسم يعرف بمأثرة ، أو يقرن به ما عسى أن يخلده أو يشهره ، فمن العجيب حقاً أن نراه مخلداً محفوظا كأنساب السادة البارزين .

فلهذه الريبة إذن ما يبررها ، ولكنه ليس ذلك فحسب ، بل إن لها فوق ذلك ما يؤيدها من كلام بعض المعاصرين لابن حزم ، كما نرى فى كلام أبى مروان ابن حيان عنه ، إذ يقول[1] :

« وقد كان من غرائبه انتماؤه فى فارس ، واتباع أهل بيته له فى ذلك ، بعد حقبة من الدهر ، تولى فيها أبوه المعقل فى زمانه الراجح فى ميزانه ، أحمد بن سعيد بن حزم لبنى أمية ، أولياء نعمته ، لا عن صحة ولاية لهم عليه . فقد عهده الناس خامل الأبوة ، مولد الأرومة ، من عجم لبلة ، جده الأدنى حديث عهد بالإسلام . لم يتقدم لسلفه نباهة ، فأبوه أحمد على الحقيقة هو الذى بنى بيت نفسه فى آخر الدهر برأس رابية ، وعمده بالخلال الفاضلة من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأى ، فاغتدى جرثومة شرف لمن نماهم ، أغنتهم عن الرسوخ فى أولى السابقة . فما من شرف

---

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول . المجلد الأول ، ص ١٤٢

إلا مسبوق عن خارجية ، ولم يكن إلا كلا ولا ، حتى تخطى على هذا رابية لبلة ، فارتقى قلعة اصطخر من أرض فارس . فالله أعلم كيف ترقاها . إذ لم يكن يؤتى من خطل ولاجهالة ، بل وصله بهاوسع علم ووشيجة رحم معقوقة . بلها بمستأخر الصلة . رحمه الله » .

وهكذا لم تكن فارسية ابن حزم أمرا مسلما عندمعاصريه ، ولم يخلص نسبه هذا الذى يذيّل به اسمه من الطعن عليه والسخريه ، بمثل هذه العبارات الشديدة الوخز ، التى عرض بها مؤرخ الأندلس الكبير ، ولم يكن به أن يحقره أو يضع من شأنه ، فإنه مع هذا قد وفاه حقه من الإشاده بذكره والتنويه بفضائله مما يدل على مبلغ ما كان له فى نفسه من منزلة ، ولكن ذلك لم يستطع أن يحمله على الإغضاء عن قصة النسب هذه ، وترك التنديد بهذا الموطن من مواطن الضعف عنده [1] .

وإذن فابن حزم خرج من أسرة من أهل أسبانيا الغربية ، كانت تقيم فى لبلة ، وكانت تدين بالنصرانية ، وظلت على نصرانيتها بعد الفتح الإسلامى أمداً غير قصير ، حتى اعتنق حزم ، الذى يحمل اسمه وينتسب إليه صاحبنا الإسلام ، فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، فيما نقدر . ومنذ ذلك الوقت جعلت الأقدار تهيء لهذه الأسرة مكاناً جديداً فى هذه الحياة الجديدة

(١) مما يلفت النظر ، وإن كنا لانعرف مدى صحته ولامبلغ دلالته ، أن الاسم «حزم» كان أكثر شيوعا فى الأندلس منه فى المشرق ، كما يلاحظ فى هذا الاقليم الذى خرجت منه أسرة ابن حزم أن حاكم لشبونه فيه كان اسمه فى وقت غزو النورمانديين ، أى فى سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) وهب الله بن حزم (انظر تاريخ أسبانيا الاسلامية «روفنسال ص ١٥٣)

وتدنو بها من « لبلة » إلى مركز الدولة فى قرطبة ، وتتيح لحفيد هذا الرجل « حزم » أن يصير أحد الوزراء النابهين المعروفين بزكانة العقل وحسن التدبير فى دولة العامريين ، وأن تبرز منها هذه الشخصية الرائعة فى تاريخ العقل الإسلامى ، وهى الشخصية التى نعقد هذه الرسالة لها ، ثم شخصية ابن عمه أبى المغيرة عبد الوهاب ، وهى من أروع الشخصيات الأدبية فى الأندلس ، فى القرن الخامس للهجرة .

ولبلة هذه هى مدينة فى غرب الأندلس ، تقع قريباً من البحر المحيط (الأطلسى) ، بينها وبينه ستة أميال ، كما تقع على طرف إقليم الشرف الذى يمتد أربعين ميلا إلى شرقيها ، فيما بينها وبين مدينة أشبيلية ، «وهذه الأربعون ميلا كلها تمشى فى ظل شجر الزيتون والتين . . . وهو تل تراب أحمر » (١) . وفى موضع آخر يعتبرها الإدريسى من إقليم الشرف ، إذ يقول : « . . . ويتلوه (يعنى إقليم شذونة) إقليم الشرف ، وهو ما بين أشبيلية ولبلة والبحر المظلم ، وفيه من المعاقل حصن القصر ومدينة لبلة وولبة وجزيرة شلطيش وجبل العيون (٢) . كما يعرض لصفتها بقوله : « ومدينة

---

(١) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، للادريسى ، (من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق له) ص ١٧٨ وانظر صفة جزيرة الأندلس ، (من كتاب الروض المعطار) لأبى عبد الله الحميرى

(٢) صفة المغرب ... الخ ص ٧٤ . وهاهى ذى أسماء هذه البلاد ، كما تطلق عليها الآن بالافرنجية : شذونة : Sidona ، الشرف : Aljarafe ، أشبيلية : Séville ، لبلة : Nièbla ، حصن القصر : Aznalcazar ، ولبة : Huelva ، جزيرة شلطيش : Saltés ، جبل العيون : Gibraleon

لبلة مدينة حسنة أزلية ، وهى متوسطة القدر ولها سور منيع ، و بشرقيها نهر يأتيها من ناحية الجبل ، ويجاز عليه فى قنطرة إلى مدينة لبلة . وبها أسواق وتجارات ومنافع جمة. وشرب أهل لبلة من عيون فى مرج من ناحية غربيها[1] .

وقد نقل الحميرى فى كتابه الروض المعطار عبارة الإدريسى هذه ، ثم أضاف إلى صفتها قوله : « وتعرف لبلة بالحمراء ، وفيها آثار للأول كثيرة ، وسور لبلة قد عقد على أربعة تماثيل : صنم تسميه العامة « دردب » وعليه صنم آخر ، وصنم تسميه العامة « مكبح » ، وعليه صنم آخر . ويخيل إلى الناظر أن ذلك البنيان موضوع على أعناقهم . وانفردت بهذه البنية من بين سائر المدن . . . وكانت جباية كورة لبلة فى أيام الأمير الحكم بن هشام خمسة عشر ألفا وستمائة »

هذه هى مدينة لبلة ، أو كورة لبلة ، منبت أسرة ابن حزم الأولى : مدينة من المدن ذوات التاريخ الحافل بما بقى فيها من آثار الأول، كما تدل عليه تلك الإشارة ، وإن كنا لانعرف مدى دلالة هذه الآثار .

ولكنا نستطيع القول بأن قيام هذه المدينة فى هذا الموقع الموفور الخيرات من ناحية ، والقريب من البحر من ناحية أخرى ، مما من شأنه أن يجعل لها مكاناً ظاهراً ممتازاً فى التاريخ الأسبانى القديم ، من الناحية الاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية . وربما أتاح لنا الإيغال فى البحث والتعقب أن نتعرف بعض الألوان الغالبة عليها ، قبل دخول الإسلام إليها ، وأخذها شيئاً فشيئاً بتلك الصبغة الجديدة . ولكنا نستطيع — فى مثل هذه

---

(١) صفة المغرب ... الخ ، ص ١٧٨

الرسالة — أن نسامح أنفسنا فى تجاوز هذه المرحلة الغامضة المبهمة، لنحاول تلمس شىء من شأنها فى الإسلام، وإن كان ذلك أيضاً محتوش بكثير من الظلمة والغموض والإبهام

ولكن حسبنا أن نعلم أن هذه المنطقة كانت تناظر منطقة طليطلة (Tolède) فى تاريخ المسيحية فى أسبانيا فى القرون الوسطى، بل ربما امتازت عنها فى بعض الأوقات بأن النشاط الدينى فيها أخذ لونا ثقافيا واسعا، واصطنع الفلسفة اليونانية على نحو قريب مما نراه نحو ذلك الوقت فى مراكز الثقافة العليا، كالإسكندرية وأنطاكية والرها وجنديسابور. وقد كان من مظاهر هذا النشاط وبواعثه، أن ظهر فيها، فيما بين القرن السادس والسابع، عالم من طراز أولئك العلماء هو إيزيدور الأشبيلى Isidore de Séville. وكان أسقف أشبيلية فيما بين سنة ٦٠١ وسنة ٦٣٦. وقد كان معنيا بألوان الثقافة اليونانية، يجمعها ويصنفها ويدون الفصول والرسائل فيها، «وبعث فى وطنه حركة علمية قوية انتشر أثرها إلى إيطاليا وسائر أنحاء أوربا. وحمل المجمع الكنسى الطيطلى الرابع على تقرير تدريس اليونانية والعبرية، للحاجة إليهما فى تفسير الكتب المقدسة»(١)

لقد كان عجباً أن يظهر فى الغرب مثل هذا الرجل العالم، وأن تتردد فيه أصداء التفكير اليونانى على ذلك النحو، فى ذلك الوقت الذى غمره فيه الظلام، وانقطعت الصلة بينه وبين ذلك الميراث الشرقى، منذ سقطت الدولة الرومانية ودك البرابرة قواعدها وقوضوا أركانها. لقد كان أوغسطين

(١) تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط للأستاذ يوسف كرم، ص ٦٣

هو القبس الأخـير فى الغرب الأوربى ، وقد جاء إليه من شمال أفريقية ، ممثلا لذلك الميراث الشرقى اليونانى ، ثم انطفأ القبس ، ولفت الغرب هذه الظلمات المطبقة المـتراكمة ، فكيف أتيح لذلك الطرف القصىّ أن يخرج للناس بعد نحو من قرنين من الزمان مثل ذلك الرجل الذى يتشح برداء الكهنوت ، يحمل إلى الناس أطرافاً من تلك الثقافة اليونانية التى طمرتها القرون والأحـداث ، ويدعو إلى استحيائها ورعايتها ؟ كيف أتيح لذلك الركن البعيد ، وذلك المنقطع المنفرد الذى يعيش فى كنف البحر ، أن يحتفظ بمثل ذلك الميراث الذى كان يبـدو أن عواصف القبائل المتبربرة طاحت به ، وبدّدته كل مبدّد ؟ كيف أتيح مثل ذلك لهذا الإقليم الذى نتحدث عنه ، إلا أن يكون موقعه هذا قد وهبه شيئاً من الاستقرار والدعة فى ذلك الاضطراب ، وحماه بعض الشيء من بعض نتائج تلك العواصف والزعازع التى هبت على أوربا ، ثائرة مدمّرة ، مع تلك القبائل المتبدية المتبربرة ؟

ومهما يكن من أمر ، فلم يمض طويل وقت على تلك الحركة الدينية الثقافية التى حمل لواءها ودعا إليها إيزدور الأشبيلى ، حتى كانت الأندلس جميعا تموج وتضطرب بهذه الدعوة الجديدة التى جاء بها المسلمون إلى تلك العدوة ، فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، وقد أخذت تشق سبيلها بين الأسبانيين فى هدوء وتؤدة ، وفى غير عنف ولا جلبة ، دون أن تصطنع وسيلة غير قوتها الذاتية ، وإلا ما يصحبها من عوامل طبيعية

على أنا نستطيع أن نزعم أن تلك الحركة التى بعثها ودعا إليها إيزيدور الأشبيلى ، واستطاع بها أن يفتّح الأذهان ويهز العقول ويوسع الآفاق ويبسط أمام الناس عالماً جديداً من المعارف والآراء والأفكار ، مثل ذلك النشاط من شأنه أن يمهد للدعوات الجديدة ، إذ يهيىء الأذهان للنظر الحر والتأمل الطليق ، ويدعوها إلى ترك التحرج ونبذ التأثم والتزمت ، ويجعلها فى حلّ من ترديد الفكر فى هذا الرأى أو ذاك ، وفى تلك الدعوة أو تلك ، فلعل ذلك كان له أثره فى التمهيد لتلك الدعوة الإسلامية التى جاء بها هؤلاء الفاتحون

ومع ذلك فنحن لا نملك أن نتجاوز هذا الفرض ، فندعى أن أهل الأندلس دخلوا فى دين الله أفواجا ، فكل شىء مرتبط بمجموعة أسبابه وملابساته . ومن الظاهر أن كثيراً من الأسبانيين بقوا على نصرانيتهم طويلا ، ولكنها فى كثير من البيئات نصرانية مثقفة ، امتد تيارها وأمدته

عوامل الثقافة الجديدة ، فلم تحل بينهم و بين النظر والتأمل وترديد الفكر فى ذلك الدين الجديد ، وفى أصحاب ذلك الدين الجديد

ونحن نعرف أن أسلاف ابن حزم ظلوا على نصرانيتهم بعد الفتح الإسلامى أمداً غير قصير ، وأن هذه الأسرة لم تتخذ الإسلام دينا إلا منذ منتصف القرن الثالث للهجرة تقريباً . ولسنا ندرى بطبيعة الحال الملابسات التى صحبت إسلام ذلك الرجل « حزم » : اقتناعية هى أم اجتماعية أم مزيج بين هذا وذاك . على أنه يبدو — على كل حال — أن هذه الفترة منذ دخول المسلمين بلاد الأندلس ، استطاعت أن تكون مجتمعاً جديداً مؤلفاً من المسلمين والأسبانيين ، يصطنع اللغة العربية ، ويتثقف بالثقافة العربية ويتخذ مظاهر الحياة العربية ، فلهذا — ولا ريب — أثره فى بسط هذه الديانة العربية ، مختلفا ذلك باختلاف مبلغ ذلك التآلف والأسباب الحافزة له ، فالأمر فى قرطبة مركز الدولة الإسلامية والنشاط العربى غيره فى مثل ذلك الطرف ، فى كورة لبلة

على أن هناك طائفة من الأحداث أتيحت لذلك الجانب الغربى من الأندلس ، وقد حدثت فى وقت قريب من ذلك الوقت الذى نفترضه لذلك الرجل « حزم » ، ولعلها تلقى ضوءاً على ما نحن بصدده

ذلك أن هذا الجانب الغربى القصىّ الذى يعيش فى أحضان البحر وفى كنفه ، لم يلبث أن جعله موقعه هذا الذى أتاح له بالأمس أن يكون بمنأى عن زعازع الشعوب المتبربرة ، عرضة لنوع جديد من الغارات ،

تهب عليه من ناحية البحر الذى ظل زماناً مطمئناً إليه مرتاحا لجواره ، تلك هى غارات القراصنة النورمانديين الذين أخذوا منذ أواخر القرن الثامن الميلادى يخرجون من موطنهم فى اسكنديناوة، فينتشرون بسفنهم وزوارقهم فى هذه البحار التى تضرب سواحل البلاد الأوربية ، من الجزائر البريطانية إلى هولندا إلى فرنسا ، ينشرون فيها الخوف والفزع ، ويسقطون عليها سقوط الجراد ، نهبا وتخريباً وتحريقا ، ولاسيما تلك الأديرة الغنية التى كانت تقوم فى تلك النواحى ، ثم لا يلبثون حتى يرتدوا عنها يحملون ما أتيح لهم من الأسلاب ، ويتركون وراءهم الفزع والرعب والخراب[1] .

ثم جاء دور أسبانيا بعد أن أوغلوا فى فرنسا ، ومضوا فى نهر الجارون حتى بلغوا تولوز ، فأخذوا بعدُ يغيرون على اشتوريش (Asturies) وجليقية (Galice) ، ثم لم يلبثوا أن انحدروا إلى الأندلس ، وكان ذلك فى سنة ٨٤٤ م (٢٣٠ هـ) ، وقد أشار النويرى إلى هذه الغارة فى نص أورده عنه العلامة دوزى . قال :

« وفى سنة ٢٣٠ خرج المجوس فى أقاصى بلاد الأندلس إلى بلاد المسلمين ، وكان أول ظهورهم فى ذى الحجة ، سنة ٢٩ ، عند أشبونة ، فأقاموا بها ثلاثة عشر يوماً كان بينهم و بين المسلمين فيها وقائع ، ثم ساروا إلى قادس ، ثم إلى شذونة ، وكان بينهم و بين المسلمين وقعة عظيمة ، ثم قصدوا أشبيلية فى ثامن المحرم ، فنزلوا على اثنى عشر فرسخا منها ، فخرج

---

(1) Dozy : Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le moyen âge. 3éd. 2 : 252, Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, p. 152.

إليهم المسلمون ، فهزمهم العدو فى ثانى عشر المحرم ، وقتل كثير منهم ، ثم نزلوا على ميلين منها ، فخرج إليها إليهم ، فانهزموا فى رابع عشر المحرم ، وكثر القتل والأسر فيهم ، ولم يرفع المجوس السيف عن أحد ولا عن دابة ، ودخلوا حاضر أشبيلية ، وأقاموا بها يوما وليلة ، وعادوا إلى مراكبهم ؛ فوافاهم عسكر عبد الرحمن ، فبادر إليهم المجوس ، فثبت المسلمون وقاتلوهم ، فقتل من المشركين سبعون رجلا ، وانهزموا ودخلوا مراكبهم ، وأحجم المسلمون عنهم . وسيّر عبد الرحمن جيشا آخر ، فقاتلهم المجوس قتالا شديدا ، ورجعوا عنهم ، فتتبعهم العسكر فى ثانى شهر ربيع الأول وقاتلوهم ، وأتاهم المدد من كل ناحية ، فنهضوا لقتال المجوس من كل جانب ، فانهزم المجوس وقتل منهم نحو خمسمائة رجل ، وأخذوا منهم أربعة مراكب ، فأخذوا مافيها وأحرقوها . ثم خرج المجوس إلى لبلة فأصابوا شيئيا . ونزلوا بجزيرة بالقرب من قوريس ، فقسموا ما كان معهم مما غنموه ، فدخل المسلمون إليهم فى النهر ، فقتلوا رجلين ، ثم رحل المجوس فطرقوا شذونة ، فغنموا أطعمة وسبيا ، وأقاموا يومين ، فوصلت مراكب عبد الرحمن إلى أشبيلية ، فلما أحس بها المجوس لحقوا بلبلة . فأغاروا وسبوا ، ثم لحقوا بأكشونية ، ثم مضوا إلى باجه ، ثم قفلوا إلى مدينة أشبونة ، ثم ساروا ، فانقطع خبرهم عن البلاد فسكن الناس »[1] .

وهناك نص آخر نقله دوزى عن ابن القوطية يعرض لبعض التفصيلات

---

(١) Dozy, Recherches, 2 : LXXVI. وهاهى ذى أسماء البلاد الواردة بالنص كما يطلق عليها الآن بالافرنجية : أشبونة : Lisponne ، قادس Cadix ، قوريس : caoeres ، اكشونية : Ocsonoba ، باجه : Beja .

الأخرى لهذه الغارة ، ونص ثالث عن ابن دحية يذكر سفارة الحكم الغزال لدى النورمانديين بعد هذه الغارة . ولا نريد أن نطيل بإيرادهما ، فليس بنا أن نكتب هنا تاريخا لهذه الأحداث ، وإنما الذى يعنينا أن نصور الجو الذى كان يسود غرب الأندلس فى تلك الأيام ، ونتمثل تلك المحن العنيفة المشتركة التى كانت تفرضها هذه الأحداث على أهل ذلك الإقليم جميعاً : نصارى ومسلمين ، فتمخضهم جميعا أشد المخض ، وتصهرهم جميعا — كما يقال — فى بوتقة واحدة ، إذ يستقبلون جميعا عدوا مشتركا ينظرون إليه بعين واحدة ، ويعتبرونه اعتباراً واحداً ، فهو عند المسلمين مجوس ، وعند النصارى وثني ، لا دين له ولا عهد ولا ذمة ، عند هؤلاء وأولئك ، وذلك ولا ريب من شأنه أن يوحد أهدافهم كما توحدت إزاءه مشاعرهم . وإذن فهو عامل جديد من عوامل الاندماج بين العنصرين ، وسبب من الأسباب التى تدفع بالناس دفعا إلى الدين الغالب ، دين الحاكم الذى يتجهون إليه ليدفع عنهم ، ويقر الأمن والطمأنينة بينهم .

ولم يمض وقت طويل على هذه الغارة حتى عصفت ريح النورمانديين مرة أخرى بشواطىء الأندلس وخاصة شاطئها الغربى ، فيما بين سنتى ٨٥٨ و ٨٦١ م (٢٤٤ — ٢٤٧ هـ) ، وأطبقوا على ذلك الإقليم يعيثون فيه وينهبون ويأسرون ، وينشرون الخوف والفزع ، ويدفعون الناس إلى الهرب دفعا ، يلتمسون فى داخل البلاد ملجأ يئلون إليه ، ويلتمسون فيه الأمن والطمأنينة ؛ وقد استطاعت الدولة أن تقطع دابر هذه الغارات ، وجعلت من هذه الغارة آخر محاولة يحاولها القراصنة النورمانديون من هذا القبيل .

وإذا كان لمثل هذه الغارات والمحن أثرها فى التقريب والاندماج بين عناصر الجماعة الأسبانية الجديدة، أنما وحدت من مشاعرهم إزاء ذلك الخطر الذى يهددهم ، ثم بدفع كثير منهم إلى داخـــل البلاد حيث يكون الجو أكثر ملاءمة لتوثيق العلائق وربط الأسـباب ، فلعل أسلاف ابن حزم كانوا ممن اضطرتهم هذه الغارات والمحن إلى لبلة ، والالتجاء إلى قرطبة فاستوطنوها ، وتهيأت لهم بذلك الأسباب إلى المجد الذى نالوه بعد فيها .

و بعد ،فهذا هو الأصل الذى خرج منه صاحبنا ابن حزم ، وهذه هى بعض الملابسات التى لابست ذلك الأصل ، قدر ما أتيح لنا أن نفترضه فهيأت لذلك الأصل أن ينتهى بتلك الثمرة .

ولوددنا أن نعرف ماذا كان مكان هذه الأسرة التى حرصت على مسيحيتها ، وحافظت على هذه الناحية من مشخصاتها ذلك الزمن الطويل، من ذلك الميراث الثقافى الذى رأينا إيزيدور أسقف أشبيلية ، والزعيم الدينى لذلك الإقليم ، يعنى بنشره وإذاعته والتوجيه إليه ، والذى كان أحد مفاخرهم القومية التى يفخرون بها و يحرصون عليها ، حتى قالوا إن أمراء ذلك الإقليم من القوط الغربيين ، كان ذلك الميراث من أول ما حرصوا على أن يأخـذوه معهم ، حين زالت دولتهم فخرجوا من بلادهم باسـتيلاء العرب عليها .

ولوددنا أن نعرف أيضا لون الحياة التى كانت تحياهـا هذه الأسرة فى لبلة ، ثم فى مهاجرها فى قرطبة ، والمـكان الاجتماعى الذى كان هنالك لها قبل أن تتصل بالخلافة وتتبوأ منصب الوزارة . ولـكن ذلك كله —

على ماقد يكون له من خطر فى مثل هذا البحث — لاسبيل إلى معرفته ، فقد تقطعت الأسباب دونه ، وإن كنا نلمح — من خلال قراءاتنا ودراساتنا — لمحا عارضا غامضا ، يمثل فى خيالنا هذه الأسرة فى صورة إحدى هذه الأسر الأسبانية المحافظة على تراثها القومى ، وعلى جميع مايمت لهذه القومية بسبب ، وبذلك ظلت هذه الفترة الطويلة محتفظة بمسيحيتها .

وإن ما نجده فى سليلها ابن حزم من حفاظ دينى وعنف فى الدفاع عن العقيده والمكافحة عن المذهب ، انما يرجع فى بعضه إلى شىء من ذلك الميراث الذى انتقل إليه من أسرته ، ثم حاطته ونفخت فيه تلك الملابسات التى تعرض بعد لها . ولا بأس أن يتغير الشكل وتتبدل الصورة الظاهرة ، فإنما هو المزاج والطبيعة والاستعداد العقلى والاتجاه النفسى الذى تستبقيه الوراثة ، وتنتقل به من جيل إلى جيل . كما تخيل إلينا أيضا هذه اللمحات العارضة الغامضة أن حزما هـذا لم يكن رجلا مغمورا حيث كان ، وإن يكن مغمورا ، بطبيعة الحال ، بالقياس إلى رجال الدولة فى ذلك المجتمع القرطبى ، بل كان فيا نحسب رجلا مذكورا بين الناس ، جديرا بذلك أن ينتسب إليه ويعرف به ، ويحمل اسمه أبناؤه وأحفاده وسلالته .

هاجر حزم إذن من لبلة إلى قرطبة فى عهد محمد بن عبد الرحمن الثانى (٢٣٨ — ٢٧٣ ﻫ ، ٨٥٢ — ٨٨٦ م) ، فيما نقدر ، وكانت الدولة أخذت تستمتع بالاستقرار والهدوء ، مما هيأ لها أن تصل بعد قليل إلى ذروة الحضارة ، كما أخذت تتهيأ لأسرة ذاك الرجل « حزم » أسباب المجد . حتى إذا كان عهد أمير المؤمنين هشام المؤيد وحاجبه المنصور ابن أبى عامر ، وقد بدأ هذا العهد بموت المستنصر سنة ٣٦٦ (٩٧٦ م) ، فقد أصبح حفيده أحمد ابن سعيد وزيراً من وزرائه وكبار رجال دولته ، و بلغت الأسباب التى جعلت الأقدار تهيئها لهذه الأسرة غايتها المقدورة .

وربما كان هذا العهد أزهر عهود الأندلس جميعا ، وأحفلها بشتى مظاهر الحضارة ، وأجمعها لمعانى العزة والقوة والمنعة والصوت البعيد ، وإن أصبح الخليفة المؤيد رمزاً للدولة لا أقل ولا أكثر ، ليس له من أمر السلطان شىء ولا « من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر ، وكتب اسمه فى السكة والطرز » كما يقول المقرى (١) .

ولكن شيئاً من ذلك لم يضعف من مركز هذه الدولة الإسلامية من الناحية السياسية كما كان الأمر فى الشرق ، بل ظلت هذه الدولة التى يرمز لها الخليفة المؤيد ، وهو محجوب فى قصره ويقوم بأمرها حاجبه المنصور ابن أبى عامر ، قوية الجانب نافذة السلطان مرهوبة الصوت ، وإن أخذت

(١) نفح الطيب ١ : ١٨٨ ، ط بولاق ، ١٢٧٩ ﻫ .

أسباب الفساد وعوامل الانهيار دائبة تعمل عملها من وراء هذه المنعة والعزة ، ومن خلف ذلك الازدهار الذى تعمر ذكراه النفوس بأقوى مشاعر الإعجاب والإكبار ، كما تعمل أسباب التعفن فى باطن التفاحة التى تزهو برونقها وبريقها ؛ وكأن هذا الرونق المتألق وذلك البريق المتبرج ، ليس إلا ومضان تلك الشعل التى تضطرم فى باطنها ، ثم لاتلبث حتى تأتى عليها .

لقد كان عهد العامريين هذا هو ذروة السلطان العربى ، وغاية المجد الإسلامى الذى ظل يتألف ويتكون وتجتمع له الأسباب المختلفة فى الأندلس من هنا ومن هنا ، منذ اتصلت أسبابها بأسباب العقل الإسلامى ، والذى جعل منه عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر حقيقة واقعة رائعة تبهر الألباب وتخلب القلوب وتبعث الدهشة والانبهار ، لا من حيث العزة السياسية أو مظاهر الترف المادى فحسب ، بل من الناحية المعنوية ومظاهر الترف الأدبى والعقلى ، حتى أصبحت الأندلس عامة وقرطبة خاصة أكبر مثابة للآثار الأدبية العربية ، تجتمع إليها من شتى أقطار العالم الإسلامى ، أو كما يقول المقرى عن الحكم المستنصر ، نقلا عن ابن خلدون : « واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، إلا ما يذكر عن الناصر العباسى بن المستضىء » . ولعلنا نستطيع أن نتبين فى هذه العبارة التى ينقلها فى هذا الموضع عن صاحبنا أبى محمد ابن حزم مبلغ ما وصلت إليه المكتبة العربية فى الأندلس لذلك العهد من اتساع ووفرة . قال : «أخبرنى تليد الخصى ، وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان ، أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفى كل فهرسة

عشرون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لاغير »[1] .

ولذلك استطار فى الآفاق صيتها من هذه الناحية ، فجعل العلماء والأدباء يهرعون إليها ، ويستبقون نحوها ، يلتمسون فيها لأدبهم سوقا نافقة ، ويرجون فيها لعلمهم تقديراً لم يظفروا فى الشرق به ، ولسنا بحاجة إلى أن نعدد من هؤلاء العلماء والأدباء أمثال أبى على القالى ، صاحب كتاب الأمالى .

على هذا المجد الأدبى الذى بناه أولئك الخلفاء الأمويون بنى العامريون ، وبتلك التقاليد التى رسموا منهجها وأرسوا قواعدها أخذ أصحاب هذه الدولة . وقد أعانهم على أن يبلغوا من ذلك المبلغ الرفيع والشأو البعيد ما أتيح للأندلس فى عهدهم من رخاء وأمن وطمأنينة ، وما استطاعت أن تحققه من سيطرة تامة على الأمور كلها فى الداخل والخارج ، مما حدا ببعض المؤرخين أن يفضل عهد المنصور بن أبى عامر على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وبذلك يجعله أزهر عهود الأندلس جميعاً .

لقد كان المنصور بن أبى عامر يرى هذه الدولة دولته ، فكان يحس إحساساً قوياً دائباً بدوافع المنافسة للمروانيين ، فإذا بنى عبد الرحمن الناصر مدينة الزهراء ، فليبن هو مدينة الزاهرة ؛ وإذا تمجد بقدوم أبى على القالى عليه فليتمجد هو بوفود أبى العلاء صاعد بن الحسن البغدادى على ساحته وقصده جنابه ، وكذلك يقول ابن بسام دالا على هذه المنافسة : إن المنصور أراد أن « يعفى به آثار أبى على البغدادى الوافد على بنى أمية قبله »[2]

---

(١) نفح الطيب ١ : ١٨٢ .

(٢) الذخيرة : القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٢ .

وكذلك كان لروح المنافسة هذه أثرها البليغ فى ازدهار الحياة الأدبية ازدهاراً رائعا فى الأندلس عامة ، وفى قرطبة خاصة ، فى هذه الفترة التى جعلت أسرة ابن حزم تأخذ فيها ذلك المكان البارز الممتاز فى الحياة السياسية ، بما كان من تولى أحمد بن سعيد بن حزم أحد مناصب الوزارة للدولة العامرية .

ومهما تكن معارفنا عن أحمد بن سعيد هذا محدودة ، فلا ريب عندنا فى أن بلوغه تلك الدرجة ، وتسنمه منصب الوزارة ، لم يكن إلا لأن مواهبه هى التى أهلته له ، فأحلته تلك المكانة ؛ فقد كان من أخص صفات المنصور بن أبى عامر نفوذ بصره ودقة حكمه على الرجال وتمييز جواهرهم ؛ وقد كان مما يعنيه أشد العناية أن يحيط نفسه بطائفة ممتازة من الرجال الموهوبين تمكن له ، وتزهو بهم دولته ، ويستطيع أن يجعلهم معتمده فى تدبير أمره ، حين يمضى فى هذه الغزوات الكثيرة التى كان ما يزال مشغولا بها ، فكان لا بد له أن يكون وزراؤه الذين يخلفهم من أهل الحكمة والحزم والبصيرة ، كما ينبغى أن يكونوا ممن يستطيع أن يطمئن إليهم ويأمن جانبهم .

وكذلك كان أحمد بن سعيد فيما يبدو ، وقد رأينا من قبل وصف ابن حيان له بأنه « المعقل فى زمانه ، والراجح فى ميزانه ، وأنه هو الذى بنى بيت نفسه برأس رابية ، وعمده بالخلال الفاضلة . من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأى » ، ونحن نستطيع أن نعتبر هذه الصفات قوام شخصية أبى عمر أحمد بن سعيد التى أتاحت له ذلك المكان ، إلى استقامة فى الخلق

وترفع عن الصغائر ، مما مكن له أن يظل فى مكانه إلى أن انتهت دولة العامريين

ويذكره ابن عذارى فى سياق الكلام على ثورة هشام بن سليمان ابن الناصر التى أراد بها أن ينتزع الأمر من المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار ، إذ كان رسول المهدى ، ومعه القاضى أبو العباس ابن ذكوان إلى هشام بن سليمان يعاتبانه على الخروج على المهدى ، ووقع بينه وبينهما محاورة عظا عليه فيها الفتنة وحذراه سوء العاقبة » [1] ، فلم يحل سقوط دولة العامريين من بقاء أبى عمر ابن حزم مستمتعاً بثقة الخليفة الأموى الجديد ، المهدى ، فهو يستبقيه إلى جواره ، ويكل إليه القيام بمثل هذه المهمة الخطيرة . وذلك مما يؤكد لدينا مجموعة الصفات التى وصفه بها ابن حيان من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأى

والرجل بعد ذلك يعدّ من أهل العلم والرواية ، ذكره ابن بشكوال فى رجاله ، فنقل عن الحميدى قوله فيه : « كان من أهل العلم والأدب والخبر ، وكان له فى البلاغة يد قوية » [2] . وكذلك ذكره الضبى فأورد هذه العبارة ثم زاد عليها : قال أبو العباس أحمد بن رشيق الكاتب : كان الوزير أبو عمر ابن حزم يقول : إنى لأعجب ممن يلحن فى مخاطبة ، أو يجىء بلفظة قلقة فى مكاتبة ، لأنه لا ينبغى له إذا شك فى شىء إلا أن يتركه ويطلب غيره ، فالكلام أوسع من هذا ، أو كما قال . وهذا لا يقوله إلا

---

(١) البيان المغرب ٣ : ٧٩ ط باريس ، ١٩٣٠ .

(٢) الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس ... الخ . ص ٢٦ — ٢٧ .

للمتبحر الواسع العلم » [1] . بل هذا عندنا لايقوله أيضاً إلا الرجل المتحفظ المتحرز الرقيب على نفسه الذى لايزال ممسكا بزمامه ، لايتهاون ولا يتسامح وهو فيما نرى دليل آخر على هذا الجانب من خلقه ، وهذا اللون من ألوان شخصيته ، مما سنرى أثراً منه فى ابنه أبى محمد

أما منزلة أحمد بن سعيد من الحياة العلمية فى قرطبة ، فتظهر لنا واضحة حين نرى اسمه يذكر فى شيوخ كثير من علمائها كعبد الله بن محمد بن مغيث الأنصارى ، وعبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى ، والد الحافظ أبى عمر ، وعبد الله بن إسحاق بن الحسن المعافرى ، وعبد الله بن ربيع بن بنوش ، وأبى القاسم أحمد بن موفق ، وأبى عمر أحمد بن محمد الأزدى ، وأبى بكر يحيى بن عبد الرحمن ، ابن وجه الجنة ، إلى كثير غيرهم لم نقصد إلى استقصائهم ، ، فحسبنا هذا للدلالة على منزلة الرجل فى العلم واشتغاله به ، بالرغم من منصب الوزارة ومشاركته فى الحياة السياسية فى عصره ، وسنرى هذا المزاج بين العلم والسياسة فى ابنه أبى محمد أيضاً .

وبعد ، فذلك هو أحمد بن سعيد والد صاحبنا ، قدر ما أتيح لنا أن نتلمسه من أخباره وأمارات شخصيته .

وكان من النابهين فى هذه الأسرة أيضاً فى ذلك الوقت ابن أخيه ، أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم ، والد أبى المغيرة عبد الوهاب ابن حزم . ويصفه صاحب المطمح فى سياق الكلام عن ابنه أبى المغيرة بأنه

---

(١) بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، ص ١٧٠ .

فقيه علم وأدب ، و بنية مجد وحسب . كما يذكره ابن بشكوال والضبي بأنه « كان من أهل العلم والفضل . وتولى الحكم بالجانب الغربي بقرطبة فى أيام محمد المهدى » وأنه « كان شيخاً جليلا من أهل الوقار والتصاون ، توفى بأشبيلية سنة ٤٢٧ ومولده سنة ٣٦٠ » [1]

(١) الصلة : ص ٤٥ ، والبغية: ص ١٧٦ ، وقد وقع شيء من الخلط فى الصلة ، فى جزء من اسمه .

فى هذه الأسرة التى نستطيع أن نتبين مما سبق شيئاً من مشخصاتها، ولد صاحبنا أبو محمد على بن أحمد، صبيحة الأربعاء، آخر يوم من أيام شهر رمضان، عام أربع وثمانين وثلاثمائة (نوفمبر سنة ٩٩٤) [١]، بعد أخ له يدعى أبا بكر، سبقه إلى الوجود بخمس سنين، أى أنه كان قد ولد سنة ٣٧٩ [٢]

وقد نشأ الأخوان معا نشأة مترفة، فى قصر أبيهما الوزير، فى الجانب الشرقى من قرطبة، بالقرب من قصر الزاهرة [٣] فى مدينة الزاهرة التى اختطها المنصور ابن أبى عامر، «وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ونسق فيها كل اقتدار معجز ونظم، وشرع فى بنائها سنة ٣٦٨، وحشر

(١) فى الصلة (ص ٤١٠): «قال صاعد: كتب إلى أبو محمد ابن حزم يقول بخطه: ولدت بقرطبة فى الجانب الشرقى فى ربض منية المغيرة، قبل طلوع الشمس، وبعد سلام الامام، من صلاة الصبح، آخر ليلة الأربعاء، آخر يوم من شهر رمضان المعظم، وهو اليوم السابع من نوفمبر، سنة ٣٨٤ بطالع العقرب» وهذا نص عجيب فى الدقة، ويقفنا منه ذكر الشهر الافرنجى إلى جانب الشهر العربى، كما يلفت النظر أن يكون مولده يوافق ٧ نوفمبر، فلعله محرف عن التاسع.

(٢) انظر طوق الحمامة، إذ يذكر ابن حزم عن اخيه هذا أنه توفى سنة ٤٠١ وهو ابن اثنتين وعشرين سنة (ص ١١٦).

(٣) طوق الحمامة ص ٧٠، مطبعة الرهان، دمشق، ١٣٤٩ هـ.

إليها الصناع والفعلة ، وأبرزها بالذهب واللازورد متوّجة منعلة ، وجلب نحوها الآلات الجليلة ، وسربلها بهاء يرد العيون كليلة ، وتوسع في اختطاطها وتولع بانتشارها في البسيطة وانبساطها ، وبالغ في رفع أسوارها ، وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها ، فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة ، وصار بناؤها من الأبنية الغريبة ، وبنى معظمها في عامين . وفي سنة ٣٧٠ انتقل المنصور إليها ، ونزلها بخاصته وعامته ، فتبوأها وشحنها بأنواع أسلحته ، وأمواله وأمتعته ، واتخذ فيها الدواوين للعمال ، ترتفع فيها ضروب الأعمال ، والاصطبلات لأنواع الكراع ، وعمل داخلها الأهراء ، وأطلق بساحتها الأرحاء ، ثم أقطع وزراءه وكتابه ، وقواده وحجابه القطائع الواسعة ، فابتنوا بأكنافها كبار الدور ، وجليلات القصور . واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة ، والمنازه المشيدة ، فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة ؛ وقامت فيها الأسواق ، وكثرت فيها الأرزاق ، وتنافس الناس في النزول بأكنافها والحلول بأطرافها ، للدنو من صاحب الدولة ، وتناهى العلو في البناء حوله ؛ حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة » (١)

ولعلنا بهذه العبارات الأنيقة التي أراد بها الفتح به خاقان الأشبيلي أن يجمل صفتها ، نستطيع أن نتمثل شيئا من مظاهر الترف وصور النعمة السابغة الرائعة التي كانت تبدو هذه المدينة الناشئة فيها ، كما نستطيع أن ننتقل من هذه إلى تخيل ذلك القصر الذي ولد ابن حزم فيه ، ونشأ بأكنافه ،

---

(١) صفة جزيرة الأندلس من « كتاب الروض المعطار » ص ٨١ — ٨٢ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٧ .

فى نعمة موفورة ، بين مظاهر الطبيعة الفاتنة ، وصور الترف البالغة حدا من الافتنان والروعة بعيداً ، على مانعرف من صفات أمثاله .

وفى هذا القصر أمضى ابن حزم حياته الأولى من لدن خرج إلى الوجود إلى أن بلغ الخامسة عشرة من عمره ، لايكاد يغادره إلا حين تتقدم به السن قليلا ، ثم هو لا يغادره إذ ذاك إلا إلى قصر وزير آخر من الوزراء ، أو رئيس من الرؤساء ، أو إلى قصر الحاجب نفسه المنصور أو المظفر ، فى بعض الأحيان .

وفى هذا القصر تلقى تعليمه فى هذه الفترة الأولى من حياته ، فلم يختلف إلى أستاذ يأخذ عنه ، ولم يتصل بزملاء ورفاق يلعب معهم ويعبث وإياهم ويتحدث إليهم ، فإنما هو أخوه الأكبر أبو بكر رفيقه الوحيد فى هذه البيئة ، ولكن فرق ما بينهما فى السن جعله مفردا عن الزميل فى التعليم والتلقين ، وبذلك أمضى مدى سنيه الأولى حياة مقصورة ، لاصلة بينها وبين الحياة خارج القصر ، إلا ما عسى أن يترامى إلى سمعه عنها .

بل إن هذه النشأة المقصورة لم تقف عند هذا الحد ، فلم تكن محدودة بحدود القصر ، وإنما تجاوزت ذلك ضيقا وقصورا ، فهى فى حقيقة الأمر محدودة بحدود دائرة الحرم ، فلم يكن القصر بالنسبة إليه إلا هذه الدائرة وحدها ، لايتجاوزها ، إلا أن يكون إلى مثلها من القصور الأخرى . فأما ظاهر القصر حيث يجلس الرجال ويجرى الحديث بينهم ، فلم يكن له أن يخرج إليه ؛ وقد ظل محجوبا عنه مدة صباه ، وإنما بدأت صلته به وهو فى حدود الشباب ، أما قبل ذلك فالنساء وحدهن بطانته وصحابته وأساتذته ، إليهن وكل أمره ، وبهن نيط تعليمه وتربيته . وهو يتحدث عن نفسه فى هذا ، ويصف مكانه منهن ،

فى سياق كلامه عن المرأة وأسباب معرفته لها ، فيقول : « ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن مالايكاد يعلمه غيرى ، لأنى ربيت فى حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلاوأنا فى حد الشباب ، وحين تبقل وجهى ؛ وهن علمننى القرآن ، وروينى كثيرا من الأشعار ودربننى فى الخط . ولم يكن وكدى وإعمال ذهنى ، منذ أول فهمى ، وأنا فى سن الطفولة جدا ، إلا تعرف أسبابهن ، والبحث عن أخبارهن ، وتحصيل ذلك »(1)

هذا شىء جدير بنا أن نلاحظه ونتأمله ونقف عنده ونتعرف مدى أثره فى حياة ابن حزم ، ومبلغ ماعسى أن يكون له فى توجيهه ، إذ كانت هذه الفترة الأولى من الحياة هى التى تتكون فيها النفوس ، وتخضع فيها الأمزجة والطبائع لما يوجهها ويصرف نشاطها ، وللعوامل التى تفرض عليها مايتلاءم وإياها من أسلوب خاص فى التفكير والتقدير والانفعال . وما من شك فى أنه لابد أن يكون لمثل هذه النشأة المقصورة . ذلك المدى الطويل ، فى مثل تلك البيئة المؤلفة من الإماء والجوارى والقيان ، يرعينه رعاية أمثالهن لمثله ، ويأخذنه بألوان من التدليل والملاطفة ، ويتولين تعليمه وتهذيبه ، مامن شك فى أن لمثل هذا اللون من الحياة فى توجيه مشاعره وطبع مداركه ، دون أن يقف الأمر على نزوعه إلى تعرف أسباب النساء وفحص أحوالهن ، كما يقول عن نفسه ، فالأمر أعمق من ذلك أثرا ، وسنرى بعد أى أثر بليغ تركته هذه الحياة عنده .

---

(1) طوق الحمامة ، ص ٤٥ — ٤٦ .

وشيء آخر فى طفولة ابن حزم جدير أيضا بالملاحظة والتأمل ، وهو مايشير إليه من أنه أصيب فى تلك الفترة من حياته بخفقان القلب [1] .

وإذا كان هو يرجع – فى بعض كلامه – مالاحظه عليه معاصروه من حدة فى الطبع وعنف فى المناقشة وعجز عن ضبط نفسه فيها ، إلى ما كان يعانيه من مرض الكبد [2] ، فقد يكون لهذا المرض الذى عرض له فى صباه أثره الباقى فى كيانه الجسمى والنفسى . ولكن ذلك ليس كل شيء يمكن أن نعتبره فى مثل ذلك المرض ، فالأمر الذى لانشك فيه أن هذا المرض الذى أصابه صغيرا كان من الأمور التى أحاطته بجو خاص من العطف والرعاية ، وملأ القلوب إشفاقا عليه ، ورحمة له ، وحذارا أن يناله شيء من المكروه يعرضه للخطر .

وبذلك نرى فى حياته الأولى هذه عاملا جديدا من عوامل التدليل ، إلى جانب ذلك الذى تبعث عليه الحياة المترفة . ومن يدرى فلعل ذلك المرض وما يثيره من خوف ، وما يبعث عليه من إشفاق وحذر ، كان من أول الأسباب التى جعلتهم يأخذونه بهذا اللون من الحياة ، وتلك النشأة المقصورة أشد القصر ، المحدودة الأفق ، التى ظلت مفروضة عليه خمسة عشر عاما لايجتاز نطاقها المضروب .

وقد رأينا أن تعليمه فى هذه المرحلة الأولى كاد يكون مقصوراً على تعلم الكتابة والقراءة ، أى تحصيل الأداة الأولى للمعرفة ، ثم يلى ذلك

---

(١) طوق الحمامة ص ١٦ .

(٢) الاخلاق والسير .

حفظ القرآن ورواية الشعر ، فقد كانت إذن تربية ترمى فى حقيقتها إلى تكوين الذوق الفنى وتثقيفه ، وإلى إعداد اللسان وتقويمه ، وهو أداة التعبير عما يستشعره الذوق ، وما يحسه من صور الفن .

وإلى جانب هذا كان محوطاً بكثير مما يرقق الحس ويرهف العواطف ويقوى فيه هذه الناحية الفنية ، ففى وسط مظاهر الترف وألوان الجمال التى كان يعبق بها الجو حوله ، تعرض منذ صباه لفنون من الحب ، ثم ما يستتبعه الحب من ألوان المشاعر وصنوف الخوالج . وهو يحدثنا فى غير موضع عن هذا الحب الذى تعرض له فى صباه ، إذ يقول مثلا : « وعنى أخبرك أنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على صورة القمر نفسه . وإنى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت ، لا تؤاتينى نفسى على سواه ، ولا تحب غيره البتة »[1]

وفى موضع آخر يعرض لنا صورة من هذه الحياة العاطفية التى كان يحياها فى صباه ، وهى صورة جيدة واضحة بينة القسمات ، نستطيع أن نتعرف بها تعرفاً دقيقاً مفصلا هذا اللون من ألوان حياته . قال :

« وإنى لأخبرك عنى أنى ألفت فى أيام صباى ألفة المحبة جارية نشأت فى دارنا ، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما . وكانت غاية فى حسن وجهها وعقلها ، وعفافها وطهارتها ، وخفرها ودماثتها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مسبلة الستر ، فقيدة الذام ، قليلة الكلام ،

---

(١) طوق الحمامة ص ٢٥ .

مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النفار ؛ لاتوجه الأراجى نحوها ، ولاتقف المطامع عليها ولا معرّس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد من أمها ، تزدان فى المنع والبخل ، مالا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد فى أمرها ، غير راغبة فى اللهو ، على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً ؛ فجنحت إليها وأحببتها حباً مفرطاً شديداً ، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبنى بكلمة ، وأسمع من فيها لفظة — غير ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع — بأبلغ السعى ، فما وصلت من ذلك إلى شىء البتة .

فلعهدى بمصطنع كان فى دارنا ، لبعض ما يصطنع له فى دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ودخلة أخى رحمه الله ، من النساء ، ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ، ممن يخف موضعه ويلطف محله ، فلبثن صدراً من النهار ، ثم انتقلن إلى قصبة كانت فى دارنا ، مشرفة على بستان الدار ، ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها ، مفتحة الأبواب ، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن . فإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه أنسا بقربها ، متعرضاً للدنو منها ، فما هو إلا أن ترانى فى جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره ، فى لطف الحركة ، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذى صارت فيه فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره ؛ وكانت قد علمت كلفى بها ، ولم يشعر سائر النسوان

بما نحن فيه ، لأنهن كن عدداً كثيراً ، وإذ كلهن يتنقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عنها . واعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج فى الآثار .

ثم نزلن إلى البستان فرغبت عجائزنا وكرائمنا إلى سيدتها فى سماع غنائها ، فأمرتها ؛ فأخذت العود وسوّته بخفر وخجل لا عهد لى بمثله ، وإن الشيء يتضاعف حسنه فى عين مستحسنه . ثم اندفعت تغنى بأبيات العباس ابن الأحنف حيث يقول :

إنى طربت إلى شمس إذا غربت ... كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس ممثلة فى خلق جارية ... كأن أعطافها طى الطوامير
ليست من الإنس إلا فى مناسبة ... ولا من الجن إلا فى التصاوير
فالوجه جوهرة ، والجسم عبهرة ... والريح عنبرة ، والكل من نور
كأنها حين تخطو فى مجاسدها ... تخطو على البيض أو حد القوارير

فلعمرى لكأن المضراب يقع على قلبي . وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه إلى يوم مفارقتى الدنيا ، وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها »[1]

فهذه صورة من حياة ابن حزم فى قصر أبيه فى عهد صباه ، وقد حرصنا على أن نورد هذا النص على طوله ، لأنه يؤدى لنا هذه الصورة خير أداء ، ويمثل لنا هذه الحياة خير تمثيل ، ويبين لنا كيف كانت تلك البيئة المقصورة التى كان يحياها ذلك الصبى فيها ، مشحونة بألوان المغريات التى ترهف

(١) طوق الحمامة ص ١٠٨ — ١٠٩

الحس وتفتن النفس وتحفز المشاعر وتثير الرغبات الكامنة ؛ وكيف كانت دائمة الإلحاح عليه ، والإحاطة به ، والتبرج له .

ولكن هذه البيئة المشحونة بكل ذلك مما يدعو إليه الترف ، كانت مع ذلك بيئة تسيطر عليها أوامر الدين ، وتعاليم الخلق ، وضوابط الترفع والتعفف ، إذ كان بيت ابن حزم من البيوت المحافظة الآخذة بتقاليد التصوّن ، وقد عرفنا كبير هذا البيت وصاحب ذلك القصر ، الوزير أحمد ابن سعيد ، رجلا متزنا بعيداً عن الاستهتار والاستخفاف بالرغم من ذلك الترف البالغ ، وتلك الرفاهية المتفننة ، مما هو جزء من طبيعة الحياة فى مثل هذه القصور فى ذلك الوقت لا انفكاك له .

وهكذا نرى كيف كان هذا الصبى فى قصر أبيه ، بين هذين العاملين المتعارضين ، جذباً ودفعاً ، بسطاً وقبضاً ؛ فإن شيئاً من ذلك الترف المنطوى على الإغراء ، وذلك التدليل الذى أحيطت به حياته من جميع جهاتها ، لم يكن يأذن له أن يتجاوز تلك الحدود المضروبة فى شرعة الدين والخلق ، وقوانين التحفظ والترفع ، أو تجعله يتسامح فى رعاية حق الفضيلة والمروءة ، أو تتركه يجرى مع غرائزه وشهواته التى تثيرها هذه الألوان المرحة الممتعة الطروبة التى حوله .

وإنه ليقسم بأغلظ الأيمان أن صلاته بنساء قصره كانت صلات بريئة طاهرة ، وأن حبه لهذه أو تلك إنما كان حبا عفيفاً شريفاً لم يدنسه إثم ، ولم يخالطه محرم ، إذ يقول فى سياق كلامه عن نزوعه إلى البحث عن أخبار النساء وأنسهن منه بالكتمان : « ومع هذا يعلم الله ، وكفى به عليما ،

أنى برىء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقى الحجزة ، وإنى أقسم بالله أجل الأقسـام إنى ما حللت مئزرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربى بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا . والله المحمود على ذلك ، والمشكور فيما مضى ، والمستعصم فيما بقى » . ولم يغفل الإشارة إلى ما أتيح له من أسباب هذه العصمة فيقول : « وكان السبب فيما ذكرته أنى كنت وقت تأجج نار الصبا ، وشرة الحداثه ، وتمكن غرارة الفتوة ، مقصورا محظوراً علىّ ، بين رقباء ورقائب »[1] .

فها نحن أولاء إذن لقـاء صبى مترف حاد العاطفة ، تحيط به ألوان المتع ، وتساوره شتى مغريات الحس ، وتتبرج له المفاتن المختلفة تملأ نفسه إحساسا بالجمال ، وقلبـه شعورا بالحب ، وتثيره بطبيعة الأمر إلى التعبير الخارجى عن ذلك الشعور ، وإرضاء ذلك الهوى ، وتحقيق ذلك النزوع . ولـكنه فى الوقت نفسه محكوم باعتبارات الدين والفضيلة ، مأخوذ بطائفة أخرى من المثل العليـا ، تقوم عليها من حوله هـذه الجماعة من الرقباء والرقائب ، تحبسه عما قد يعـد إسفافا ، وتمسكه عن انتهاك تلك الحرمات التى لابد من رعايتها والوقوف عندها .

فـكيف تتجه إذن هـذه الرغبة الطبيعية القوية من التعبير الخارجى عما يملأ نفسه ويغمر حسه ، وما عسى أن تكون المسارب التى يمكن أن يتسرب فيهـا ذلك النشاط الوجدانى ، فى تلك الحيـاة المحصورة وذلك الأفق المحدود ؟ .

---

(١) طوق الحمامة ، ص ١٢٥

لقد كان ابن حزم مغرما فى صباه — كما يتحدث هو عن نفسه — بتعقب النساء فى القصر ، وتتبع أخبارهن ، وتعرف أحوالهن ، والتسمع لما يدور بينهن مستشعراً فى ذلك شيئا من المتعة . وكن هن من ناحية أخرى يأنسن إليه ، ولا يجدن فى أنفسهن حرجا أن يفضين إليه بأحاديثهن وماتضطرب به قلوبهن ومايدور بينهن ، كما يبدو ذلك من الأخبار الكثيرة التى يوردها فى كتابه طوق الحمامة ؛ عن مشاهدته الشخصية ومعرفته المباشرة . وقد أوردنا منذ قليل قوله عن نفسه : « ولم يكن وكدى وإعمال ذهنى منذ أول فهمى وأنا فى سن الطفولة جداً ، إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك » . كما يقول فى موضع آخر : « فلم أزل باحثا عن أخبارهن ، كاشفا عن أسرارهن ، وكن قد أنسن منى بكتمان ، فكن يطلعننى على غوامض أمورهن ، ولولا أن أكون منبها على عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من تنبههن فى الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباء »[1] .

وقد كان هذا مسربا من المسارب التى يستطيع نشاط ذلك الصبى الوجدانى أن يتسرب من خلالها ، ويجد شيئا من الروح فيها ، وبفضل ذلك استطاع بعدُ أن يضع كتابه « طوق الحمامة » ، بذلك الأسلوب الخاص الذى لايعتمد على النقل ، ولا يصدر عن الرواية كما كان الشأن الغالب فى أشباهه من الكتب ، وإنما هو يصدر فى معظمه عن تجاربه الخاصة ومشاهداته الشخصية ، ثم ما يجرى به الحديث بينه وبين الثقات

---

(١) طوق الحمامة ، ص ١٢٤ — ١٢٥

من أهل زمانه . فنحن فى حقيقة الأمر ، ندين — أول ماندين به فى ذلك الكتاب — إلى تلك الحالة الخاصة التى فرضت على ابن حزم فى تلك المرحلة من حياته ، وإلى تلك المرحلة يرجع — فى الواقع — الأصل فى تأليف ذلك الكتاب ، الذى وضعه بعدها بما يقرب من عشرين عاماً ، كما سنرى ذلك فى حينه .

فهذا أحد الوجوه التى اصطنعها ذلك النشاط الوجدانى المقصور المحظور عليه بالرقباء والرقائب والمثل الدينية العليا . وهناك وجه آخر كان يجد فيه هذا النشاط متنفسا له ، ومسرباً يتسرب فيه ، وهو تلك المجالس الفنية العامرة بالصور المختلفة التى ترضى شهوات السمع والبصر ، على النحو الذى رأيناه فيما أوردنا عنه من قصة صاحبته المتأبية .

ثم وجه ثالث جعل ذلك النشاط يظهر به ، ويتخذ منه مجالا له ، ومستراحا يستروح فيه ، وهو الشعر يشغل به نفسه ، ويعبّر به عنها ، ويرى فيه أهواءه ونوازعه وخوالج نفسه وأحاديث قلبه ومكنونات ضميره متمثلة بين يديه فى صورة جميلة من صنعه . وكأنما هو قد اتخذ من هذه القطع الشعرية بديلا عما كانت تطمح إليه أهواؤه وتصبو إليه غرائزه ، وإذا تلك الأهواء والغرائز قد استحالت وتحورت ، فصارت قصيدة أو قطعة من الشعر ، فيها الفتنة والجمال ، فهو منصرف إليها مشغول بها .

فهو إذا انصرف من لدن صاحبته تلك الشرود النفور المتأبية ، ولواعج الهوى وحسرات المنع والحرمان تضطرم وتتأجج فى قلبه ، لجأ إلى الشعر ، يصعد به ذلك اللهب المتضرم ، فيوجه إليها بهذه الأبيات :

منعت جمال وجهك مقلتيّا ولفظك قد ضننت به عليّا
أراك نذرت للرحمن صوما فلست تكلمين اليوم حيّا
وقد غنيت للعباس شعرا هنيئا ذا لعباس هنيّا
فلو يلقاك عباس لأضحى لفوز قاليا وبكم شجيّا[1]

فإذا قال هذه القطعة من الشعر وجعل يترنم بأبياتها، ويردد مقاطعها ونغماتها، فقد أحس بأن نفسه قد ثابت إليه هادئة راضية مطمئنة، كأنما قد تسربت لواعجه من خلالها. فإذا كان ذلك فقد تمثلت صاحبته له بعد ذلك مرة أخرى، وقد سكنت عنه حسراته، فهو يلتمس لها المعاذير فيما جرعته من حسرات المنع والحرمان فيقول:

لاتلمها على النفار ومنع الـ وصل ما ذا كم لهـا بنـكير
هل يكون الهلال غير بعيد أو يكون الغزال غير نفور

على أن فى رياضة الشعر ومعالجة القريض نفسها، بالتماس اللفظ وإقامة الوزن، وبتوليد المعانى والصور، ما هو جدير أن يصرف إليه شيئا من ذلك النشاط الوجدانى المتدفق الذى لايكاد يجد له مسربا. فقد كان ذلك الصبى لايفتأ، إزاء ما كان يتعرض له دائما من ألوان المشاعر والعواطف والمحن النفسية، يلجأ إلى الشعر، ويفزع إلى القريض، يروضه ويعالجه، يلتمس له المادة من هنا وهنا، ويجهد فى تسوية هذه المادة وتنسيقها وتأليف ما بينها، محاولا أن يصوغ هذه المشاعر والخوالج التى ما تزال نفسه مضطربة بها،

---

(١) طوق الحمامة، ص ١٠٩ — ١١٠

فى مثل تلك الصور الشعرية الأنيقة الرائعة التى عرفها فيما كانت مربياته ومثقفاته يلقينه عليه، وينشدنه إياه، ويأخذنه بروايته وحفظه، وفيما كانت القيان تغنيه وتطرب به أصواتها وتؤلف بينه وبين نغمات العود؛ فهو يبذل فى هذه الصياغة قدرا غير قليل من نشاطه، إلى جانب ما يشعر به من رضا وارتياح ومتاع حين تستوى القطعة التى أرادها وحاولها بين يديه.

لقد كان ذلك نوعا من أنواع اللعب، ولونًا من ألوان العبث، يلهو به ذلك الصبى، وينزع إليه ذلك الفيض الوجدانى الزاخر الذى تموج به نفسه. ولعلنا نستطيع أن نرى صورة واضحة من هذا اللون من ألوان اللعب فى هذه القطعة التى يوردها فى سياق كلامه عن الهجر الذى يوجبه التدلل، وقدم لها بقوله:

«ولقد عرض لى فى الصبا هجر مع بعض من كنت آلف – على هذه الصفة – وهو لا يلبث أن يضمحل، ثم يعود. فلما كثر ذلك قلت على سبيل المزاح شعراً بديهيا، ختمت كل بيت منه بقسم من أول قصيدة طرفة ابن العبد المعلقة.. وهى:

تذكرت ودًّا للحبيب كأنه	لخولة أطلال ببرقة ثهمد
وعهدى بعهد كان لى منه ثابت	يلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقفت به لا موقنـا برجوعه	ولا آيسا أبكى وأبكى إلى الغد
إلى أن أطال الناس عذلى وأكثروا	يقولون: لا تهلك أسى وتجلّد
كأن فنون السخط ممن أحبه	خلايا سفين بالنواصف من دد
كأن انقلاب الهجر والوصل مركب	يجور به الملّاح طوراً ويهتدى

فوقت رضا يتـلوه وقت تسخط كما قسم الترب المقايل باليد

ويبسم نحوى وهو غضبان معرض مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد »[1]

وإذا كان هو فى هـذه القطعة يصرح أنه لم يكن جاداً فى وضعها، وإنما كان مازحاً عابثاً، فما أكثر الشعر الذى يرى نفسه فيـه جاداً، وليس إلا اللعب بعينه. وهل يرى الطفل وهو يعبث بلُعبه إلا أنه جاد كما يجد الرجال؟

ومن هذا النوع من الشعر هذه القطعة التى يقدم لهـا بقوله: « وفى هذا المذهب الذى عليه الناس أقول من قصيدة قلتها قبل بلوغ الحلم، أولها:

دليل الأسى نار على القلب تلفح ودمع على الخدين يهمى ويسفح

إذا كتم المشغوف سر ضلوعه فإن دموع العين تبدى وتفضح

إذا ما جفون العين سالت شؤونها ففى القلب داء للغرام مبرح[2]

وهكذا كان ابن حزم يشغل حياته المقصورة فى تلك المرحلة. وهكذا كان يسرى عن نفسه ويروح عن عواطفه برياضة الشعر، يعبث بصياغته وتأليفه، كما يعبث الوليد بلُعبه، وكما يتسلى الطفل بصنع دماه.

وتلك هى بداية ذلك الشاعر الذى لم يمنعه إمعانه فى الدرس واستغراقه فى العـلم أن يبلغ من الشعر مرتبة مذكورة، حتى ليعلق ابن حيان على إحدى مقطوعاته بقوله: « ويالبدائع هذا الحبر، على بن حزم، وغرره!

---

(١) طوق الحمامة، ص ٦٦

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦

ما أوضحها على كثرة الدافنين لها ، والطامسين لمحاسنها » [1] ، وحتى يقول عنه تلميذه الحيدى ، وهو الذى صحبه زمانا ، وعنى بجمع شعره : « كان لشيخنا الفقيه أبى محمد ابن حزم فى الشعر والأدب نفس واسع ، و باع طويل ، وما رأيت أسرع بديهة منه ، وشعره كثير » [2]

و إذا كانت شاعرية ابن حزم ترجع — كما رأينا — إلى تلك الملابسات التى لابست وجدانه ، و إلى ما أخذته به معلماته ومثقفاته من رواية الشعر وحفظه وتذوقه ، فإنها ترجع أيضاً إلى تلك المجالس الأدبية التى كانت تنعقد فى قصر العامريين ، وقد أشرنا من قبل إلى مبلغ عنايتهم بالأدب وتشجيع الأدباء وحمايتهم . وقد أتيح لصاحبنا أن يشهد بعض هذه المجالس ، وهو فى مطالع شبابه .

و يحكى المقرى فى الفصل الذى كتبه عن أبى العلاء ، صاعد بن الحسين البغدادى ، عن الحميدى ، أنه قال : «سمعت أبا محمد بن حزم الحافظ يقول : سمعت أبا العلاء صاعدا ينشد بين يدى المظفر ابن أبى عامر ؛ من قصيدة يهنيه فيها بعيد الفطر سنة ٣٩٦ :

حسبت المنعمين على البرايا فألفيت اسمه صدر الحساب
وما قدمته إلا كأنى أقدم ، تاليا ، أم الكتاب » [3]

و إذن فقد كان ابن حزم يغشى مجالس العامريين ، و يستمع إلى

---

(١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، س ١٤٤
(٢) المصدر نفسه ، س ١٤٥
(٣) نفح الطيب ٢ : ٧٢٦ ط بولاق .

ما ينشـد فيها من الشعر ، وما يدور فيها من طرائف الأدب ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، فى عهد المظفر العامرى ، ابن المنصور رأس العامريين .

ولكنا إذ نذكر مجالس العامريين هنا يجب ألا نطلق القول إطلاقا فنحمل عهد المظفر على عهد أبيه المنصور ، فبينهما بون بعيـد فى كثير من النواحى ، ولاسيا هذه الناحية التى تتصل بالأدب وتقـديره ، والعناية بمجالسه ، وهى الناحية التى تعنينا هنا . ومن ذلك ما يصفه به ابن حيان ، من أنه كان « رجلا عديم الفهم والمعرفة جملة ، صفرا من الأدب والتعاليم ، حتى ما كان يسايره وينادمه إلا العجم ، من الجلالقة والبرابرة ، ممن لا يهش لسماع ، ولا يطرب لإيقاع ، فارتفعت بذلك عن مجالس لهوه طبقة المعرفة ، وقوض عنها كل فاضل وعالم ، واعتاض منهم بجفاة البربر والأعاجم » . ولكن ابن حيان لا يلبث حتى يستدرك على تلك الصفات التى تضع من شأنه جملة ، بقوله : « إلا أنه مع زهده فى الأدب تمسك بمن كان استخلصه أبوه من طبقات أهل المعرفة ، من خطيب وشاعر ، ونديم وشطرنجى ، ومعدل وتاريخى ، وغيرهم ؛ حفظا لصنائع والده ، وقياماً برسومه ، فقررهم على مراتبهم ولم ينقصهم سوى الفوز بخصوصيته » (١)

فقد كان المظفر إذن رجـلا غفلا من الناحية الأدبية ، ولكن رعايته لذكرى أبيه وحفظه لصنائعه ، هو الذى أتاح لتلك الصبغة الأدبية أن تستمر ، وأتاح لرجل كصاعد البغدادى أن يظل على صلته بذلك القصر . وإنه مهما يكن من أمر ، ومهما يكن شأن هذه المجالس الأدبية التى كانت

---

(١) الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٠

تنعقد فى القصر العامرى أيام المنصور قد هان وضعف ، فلم نعد نشهد بعدُ هذه المساجلات الرائعة بين شاعر كأبى العــلاء صاعد ، ومن كان يناظره من شعراء الأندلس وأدبائها ، كابن العريف وابن شهيد والزبيدى والقسطلى والطبنى والعاصمى ، مهما يكن ذلك ، فقد كانت هنالك بقية من تلك الحياة القوية النشيطة ما تزال تتأرج بين حين وحين فى ذلك القصر ، وكان الشعراء مايزالون ، على كل حال ، يفدون عليه ، يمدحون المظفر ، وإن لم يكونوا يبالغون فى تجويد شعرهم والتنوّق فيه ، كما كان شأنهم أيام المنصور ولكنهم كانوا يحفظون على ذلك القصر شيئاً من طابعه الأدبى الأول . وكان لابن حزم من ذلك مادة لشاعريته البادئة ، حين يصغى إلى هؤلاء الشعراء ينشدون أشعارهم فيضطرب لها ، وتهتز نفسه الغضة إعجاباً بها ، ويذهب به ذلك الإعجاب مذهب الرغبة فى احتذائها وتقليدها . إن فيها شيئاً يثيره غير ذلك الذى عرفه فى الشعر القديم ، ترتسم فيه روح العصر ، ويجعله أشد حبا له وميلا إليه ، ورغبة فى النسج على منواله ، كما يجعل ذلك الشعر أقرب تمثلا ، فهو ما يلبث حتى يستحيل غذاء ملائماً كل الملاءمة لشاعريته ، وعنصراً مثيراً لنشاطها . وهكذا كانت هذه المجالس الأدبيــة ؛ على ضعفها وإدبارها ، عاملا كبير الأثر فى توجيه ذلك الصبى وهو يرتاض بصناعة الشعر .

ولم تكن صلة ابن حزم الأدبية بالقصر العامرى مقصورة على هذه المجالس التى يغمرها التحفظ ، ويطبعها الطابع الرسمى ، ولكنها كانت تجاوزها إلى مجالس أخرى أكثر ملاءمة له ، وأدنى إلى قلبه ، فى دائرة الحرم ، فكان يجلس إلى بعض العامريات من أهل صناعة التلحين والغناء ، يمتع أذنه وذوقه وقلبه

بالاستماع إلى غنائهن وضربهن بالعود، وبالتحدث إليهن فى شتى الأحاديث التى يصبو إليها؛ وكن — كما رأينا من قبل — يأنسن إليه. وكان منهن من عرفن فيه شاعرية جميلة ناضجة، وحسن تصرف فى المعانى وتخير للألفاظ، فكن يقترحن عليه أن يضع لهن بعض المقطوعات الشعرية ليلحنها ويصنعن منها أصواتاً يغنين فيها، فكان يسارع إلى إجابة رغباتهن. وقد حكى هو من هذا القبيل أن ضنا العامرية، إحدى كرائم المظفر عبد الملك بن أبى عامر طلبت إليه أن يصنع لها أبياتاً اقترحت هى عليه معناها، وكان — فيما يقول — يجلها، فأجابها، وقدمها إليها، وصنعت هى فيها لحناً رائقاً جداً، فى طريقة النشيد والبسيط، على حد قوله. أما هذه الأبيات فهى هذه:

خلّ هذا، وبادر الدهر، وارحل | فى رياض الربى مطىّ العقار
واحدها بالبديع من نغمات ال | عود كيما تحثّ بالمزمار
إن خيرا من الوقوف على الدا | ر وقوف البنان بالأوتار
وبدا النرجس البديع كصب | حائر الطرف مائلا كالمدار
لونه لون عاشق مستهام | وهو — لاشك — هائم بالبهار [1]

ومن هذا الخبر نرى كيف كانت هذه المجالس، فى دائرة الحرم، تمد شاعريته، لا بما ترهف من ذوقه، وبما تعرض عليه من ألوان الجمال الفنى فحسب، ولكن كان يجد فوق ذلك من هؤلاء العامريات معلمات ومثقفات لنزعته الشعرية، إذ يقترحن عليه المعانى، ويصفن أمامه بعض الصور الشعرية، على النحو الذى نراه فى هذه القطعة الأنيقة، وهى أشبه شىء بتلك الحياة الناعمة المترفة المونقة.

---

(١) طوق الحمامة، ص ١١٣

و بعد، فها هي ذى حياة ابن حزم فى هذه المرحلة الأولى، قدر ما أتيح لنا أن نتعرفه منها. وقد رأينا أن الصفة الغالبة عليها هى ذلك القصر المفروض عليه فيها، وتلك الحدود المضروبة على نوازعه وأهوائه، فى تلك الصورة الدقيقة الجميلة، كما رأينا أن تلك الصفة كانت كبيرة الأثر فى توجيه نشاطه الوجدانى تلك الوجهة الفنية.

وعندنا أن هذه المرحلة بهذه الصفة الغالبة عليها كانت أخطر فترة فى تاريخ حياته، وأبعدها أثراً فى تكوين صفاته النفسية، وفى تهيئة شخصيته تلك الهيئة الخاصة التى عرفناه بها بعد. فهى فى رأينا التى أفسدت عليه حياته كثيراً، بما خلفت فيه من الاستيحاش وإساءة الظن بالناس والفجاجة فى الحياة الاجتماعية، فقد عاش بعد ذلك ما عاش — كما سنرى — فى مضطرب الحياة وفى خضم المجتمع الأندلسى الذى كان يمر بفترة من أعنف فترات تاريخه اضطراباً وتدافعاً، وهو مقصور على نفسه، مطوى على نوازعه الخاصة، لا يكاد يقيم لما حوله اعتباراً، إلا أن يكون اعتباراً يراه هو، و بذلك كان بغيضاً لدى جمهرة كبيرة من الناس، يغمطونه فضله، و يجحدون حقه، و يسترون حسناته، إذ كانت حياته هذه المقصورة التى خرج منها — كما سنرى — فجأة إلى الخضم الجياش المضطرب، جعلته شديد الجهل بسياسة الناس وما يمكن أن يسمى بالأخلاق الاجتماعية، ثم ترتب على ذلك ما ترتب عليه فى حياته وسمات شخصيته، وكل ذلك يبدأ من هنا، فهو نتيجة طبيعية من نتائج تلك النشأة المقصورة، فى هذه المرحلة التى امتدت إلى سنة ٣٩٩

بانتهاء هذه المرحلة تبـدأ مرحلة أخرى فى حياة ابن حزم ، وحياة الأندلس جميعا ، وهى المرحلة التى تبدأ فى هذه السنة ، سنة ٣٩٩ ، وتمتد خمس سنين ، إلى سنة ٤٠٤ هـ .

فى هذه السنة يبدأ عند فتانا « ابن حزم » دور التحصيل المنظم ، كما هو الشأن عند طلاب العلم عامة ، بالسماع من أئمة العلم ، والتلقى عن رجال الأدب ، ورواية فروع المعرفة المختلفة على الأسلوب المعهود ، بالجلوس إلى هؤلاء الشيوخ فى مجالسهم التى يتخذونها ، أو حلقاتهم التى يعقدونها فى مسجد قرطبة الجامع وما إليه من المساجد . و بذلك خرج صاحبنا من تلك البيئات المقصورة إلى العالم الواسع الرحيب ، وانتقل من تلك المجالس الخاصة التى لاتكاد تعرف من ألوان الحياة إلا لونا واحداً متشابها ، إلى تلك المجالس العامة التى تجتمع فيها الألوان المختلفة ، وتلتقى فيها شتى النزعات والصور والأساليب.

نقلة بعيدة من طرف إلى طرف ، لم يهيأ ابن حزم لها إلا بما كان يتاح له أحيانا من شهود بعض المجالس فى القصر العامرى ، وهى تهيئة قليلة الغناء . ومع ذلك فلو أن الأمر اقتصر على هذا الانتقال من تلك المجالس الخاصة فى ظل السجف والستائر ، إلى تلك المجالس العامة التى

لا يكاد يحدها حد ، لكان عسى أن يكون هينا . ولكن الأمر كان أخطر من هذا ، حتى ليكاد يعتبر — إلى حد بعيد — انقلاباً فى حياة هذا الفتى ارقيق المرهف المترف .

ذلك أن هذا الانتقال فى حياة ابن حزم الخاصة كان يوافق فترة انتقال — بل فترة انقلاب — فى حياة الأندلس ؛ اضطربت فيها الأمور أيما اضطراب ، واختلطت قيم الحياة فيها أشد اختلاط ، وانقلبت نظم المجتمع فيها انقلاباً شديد الخطر بعيد الأثر فى حياة ذلك القطر من نواحيها المختلفة وعمت الثورة والحروب الأهليـة ، تمزق الناس كل ممزق ، وعانت قرطبة بصفة خاصة ألواناً من الهول شديدة ، وصنوفاً من البلاء الماحق عنيفة طاغية ذلك هو العهـد الذى يسمى فى تاريخ الأندلس بزمن الفتنة ، أو « الفتنة المبيرة » كما يقول ابن عذارى . وقد بدأت فى العام الذى خرج فيـه فتانا ابن حزم إلى الحياة العامة ، فهو قد خرج من النقيض إلى النقيض ، من حياة هادئة كل الهدوء ، مقصورة أشـد القصر ، يسودها الحب وترفرف عليها ملائكة الجمال والرحمة ، إلى حياة مضطربة مضطرمة يموج بعضها فى بعض ، تسيطر عليها أبالسة الشر ، وتقودها شياطين البغضاء والحقد . و ياالله لهـذا الصغير الناشىء الغرير ، وتلك النفس الغضة الناعمة ، من ذلك الانقلاب الذى بوغتت به بكل معانى المباغتة .

انقضت فى هذا العام دولة العامر يين بثورة الأمو يين والقرشيين عليهم ، وانتزاعهم السلطان منهم ، بقتل ثالثهم الذى لم يكتف بالحجابة ، بل أراد

أن يكون ولياً للعهد ، وخلع الخليفة هشام المؤيد أو هشام آل عامر ، (١) على حد تعبير أبي طالب عبد الجبار في أرجوزته (٢) ، ووثوب المهدي ، محمد

---

(١) هو عبد الرحمن الناصر لدين الله ، الابن الثاني للمنصور ابن أبي عامر ، وكان يلقب بشنجول أو شنشول ، وفي التعليق على هذه الكلمة يقول العلامة دوزي في كتابه Recherches (الجزء الأول ص ١٨٨) إنها تصغير لكلمة Sancho أو شانجة ويذكر أن ابن حيان يقدم لنا من هذا الأسلوب في التصغير مثلا آخر ، إذ يتحدث عن أحد قواد ابن حفصون ، فيسميه أحيانا « الأحيمر » وأحيانا « الربول » ، وأولى هاتين الكلمتين تصغير لكلمة الأحمر العربية ، والأخرى Royol تصغير للكلمة الرومانية royo (rouge) التي كانت مستعملة في أسبانيا في ذلك الوقت ، فكلمة El royo كانت لقبا أو نبزا منذ وقت مبكر ، وفي القرن الحادي عشر كان يلقب بهذا اللقب مقاتل البربري ، قائد الأمير الغرناطي ابن بلجين ، إذ يقول ابن الخطيب إن مقاتلا هذا كان يعرف بالروية لحمرة كانت في وجهه . ولا يزال الأسبانيون اليوم يلقبون الرجل الصغير الأحمر اللون El royuel لأن لغتهم غيرت حرف o اللاتينية أو الرومانية بحرف ue ولكنهم في القرن التاسع كانوا يقولون El royol وهذه الكلمة هي مرادفة للأحيمر ، إحداهما ترجمة للأخرى ، وهكذا تكون سنشول تصغير سانشو ، كما أن روبول تصغير روية . . . وكان عبد الرحمن يلقب بهذا اللقب لأن أمه هي ابنة سانشو الأمير المسيحي ، فكان هذا اللقب نبزا لذلك الشاب التعس . ويقول دوزي إنه من أجل ذلك كان فقهاء المسلمين متعصبين عليه ، محرضين على قتله ، لأن مولده كان عندهم رجسا لا سبيل إلى محوه ، وكان مجرد التفكير في أن حفيد شانجه الكافر يرتقي عرش الخلفاء يثير في نفوسهم رعدة الاشمئزاز (ويذكرنا ما ذكره دوزي عن الأحيمر والربول بما أشار إليه الأستاذ جراثيا جوميز في إحدى محاضراته من أن لقب الرمادي الشاعر هو ترجمة لكنيته « ابن جنيس » ، وهي تعريب للكلمة الأسبانية cenize ومعناها الرماد) .

(٢) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثاني ، ص ٤٢٢ .

ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر على عرش الأندلس ، وقد جمع فى يده السلطان كله .

ولكن هذه الضربة التى ضربها المهدى، وظاهره عليها كثير من أهل قرطبة لتخليص الخلافة الأموية ، كانت فى حقيقة الأمر الثغرة التى تسربت منها القوى المختزنة المكتنزة ، فانهار ذلك البناء الشامخ ، ونفذت منها إلى الأندلس عامة وقرطبة خاصة ، صنوف البلايا والكوارث والفواجع التى ما زالت بها حتى محقتها [1] .

لم يكد المهدى يضرب ضربته هذه ، فيستولى على الأمر بما دبر من قبل صاحب الشرطة ، بمقعده من باب قصر الخلافة ؛ ثم قتل الحاجب عبد الرحمن العامرى ، ثم بقتل أميرين من أمراء بيت الخلافة ، وهما هشام ابن سليمان بن عبد الرحمن الناصر وأخوه . ثم بإعلان موت الخليفة السابق المخلوع هشام المؤيد ، تمويها ، حتى لايتعلق به متعلق ؛ لم يكن يفعل ذلك كله ، ويحسب أن الامر قد استقر له ، وأنه قد أخضع عناصر البربر وموالى العامريين ، بعد أن شردهم وأناخ على ديارهم فأنهبها ودمرها وأجلى أهلها عنها ، حتى كانت العاصفة قد تجمعت لتنقض ، إذ كان سليمان بن الحكم قد أجمع أمره ، وأخذ أهبته ، واجتمعت البربر الموتورون حوله ، ثم لم يلبث

---

(١) لم يفت المؤرخين أن يقدروا أثر هذا الحدث وانسحابه على تاريخ الأندلس ، يقول المقرى (١ : ٧٠) عن المهدى : « ولقد كان قيامه مشؤوما على الدين والدنيا ، فانه فاتح أبواب الفتنة بالأندلس ، وماحى معالمها ، حتى تفرقت الدولة ، وانتثر السلك ، وكسر الرؤساء ، وتطاول العدو إليها ، وأخذها شيئا فشيئا ، حتى محى اسم الاسلام منها

أن كر على المهدى بقرطبة ، ولما تمض على ولايته الخلافة عشرة أشهر ، كانت هذه المدينة فيها مسرحاً عجيباً للفوضى الشاملة ، والاضطراب الماحق ، والفساد الخلق ، وهوان الضمير الإنسانى . ثم نشبت المعركة التى تعرف بمعركة « فنتيش » ، فى ١٣ ربيع الاول سنة ٤٠٠ ، وقد دارت فيها الدائرة على المهدى ، فخرج من قرطبة واستقر مكانه فيها سليمان بن الحكم ، متخذاً لقب « المستعين » .

ولكن الأمر لم يستقر فى شىء ، فإنما خرج المهدى من قرطبة ليجمع جموعه وينظم قواته ويكر ثانية عليها ؛ وبقى المستعين فيها يدبر أمره ويعد العدة لطرده عنها . وكذلك لم تمض ستة أشهر حتى كان المهدى على أبوابها ودار القدر دورته ، فإذا هو فى قرطبة متبوئاً عرشها مرة أخرى ؛ وخرج المستعين عنها فى شوال من السنة نفسها

ولم يكد المهدى يقر عينا برجوعه إلى قرطبة ، واطمئنانه إلى أنه قد أخضع خصومه ، حتى رأي النذر تنذره ، وشاهد الجو يتربد أمام عينيه ، وعلم أن الشر منبثق هذه المرة من قرطبة نفسها ، فهاهم أولاء أصحابه وأنصاره يتنكرون له ، وينفضون من حوله ؛ وإذا بأهل قرطبة يضيقون ذرعاً به ، ويرونه السبب الأول فيما حاق بهم ، وأصاب مدينتهم ، فشغبوا عليه ، وأخرجوا هشاما المؤيد ، خليفتهم فى عهدهم الزاهر ، والذى كان قد أعلن موته منذ عام وبعض عام ، من محبسه بالقصر ، وأجلسوه للخلافة ، وبايعوه عليها ، وجاءوا بالمهدى ، فضربوا عنقه بين يديه فى آخر سنة ٤٠٠ .

ولكن الفتنة ظلت باسطة سلطانها ، ولم تظفر قرطبة بشىء من الروح

الذى كانت تأمله وتستشرف إليه ، وقدمت رأس المهدى قرباناً له ، فلم يغن ذلك عنها شيئاً . فلم يخرج المستعين حين خرج عنها ليعتزل الأمر ، وإنما خرج ليدبر من جديد أمره ، ويجمع حوله شمل البربر الناقين على الأمر فى قرطبة ؛ وكذلك ضرب بهم الحصار عليها ، « ولم يغن عن أهل قرطبة ما فعلوه (من قتل المهدى وإعادة المؤيد) شيئا ، إلى أن هلكت القرى والبسائط بقرطبة ، وعدمت المرافق ، وجهدهم الحصار . وبعث المستعين إلى أهل أذفونش يستعديهم لمظاهرته ، فبعث إليهم هشام وحاجبه واضح ، يكفونهم عن ذلك ، بأن ينزلوا لهم عن ثغور قشتاله التى كان المنصور افتتحها ؛ فسكن عن مظاهرتهم عزم اذفونش . ولم يزل الأمر حتى دخل المستعين قرطبة ، ومن معه من البربر عنوة ، سنة ثلاث وأربعمائة ، وقتل هشام سراً ، ولحق بيوتات قرطبة معرة فى نسائهم وأبنائهم »[1]

وقد اشتدت على أهل قرطبة وطأة هذا الحصار وأجهدهم أشد الجهد ؛ وتعرضوا بسببه لكثير من المكاره. وكان من أشد ذلك عليهم وباء الطاعون الذى وقع فى قرطبة فى أثناء سنة ٤٠١ ، وجعل من دورها موطنا للحزن والفزع ؛ ونال بيت ابن حزم نصيبه من ذلك ، كما سنرى بعد قليل

وبعد ، فهذه صورة من الحياة فى قرطبة فى هذه المرحلة من حياة صاحبنا ، وهى صورة تبعث الأسى والأسف . وقد كان لهذا الاضطراب أثر كبير — ولا ريب — فى الحياة الأدبية والعلمية فيها . فمن العلماء

---

(١) نفح الطيب ١ : ٣ — ٢ .

والأدباء من لقى فى هذه الفتنة حتفه ، كأبى الوليد ابن الفرضى [1] ، ومنهم من أخرجته وشردت به كل مشرد ، كأبى عمر القسطلى ، « سباق حلبة الشعراء العامريين، وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين » [2] ، ومنهم من بقى بها على مضض ، محتملا المقام فيها على كره ، مكابدا صعوبة الحياة ومتاعب العيش وآلام الخوف والقلق ، فى هذا الكساد الذى سيطر على سوق الأدب فيها ، كأبى العلاء صاعد البغدادى ، وقد تناصرت عليه خلال المكروه ، بارتجاج الفتنة ، غلاء سعر ورخص شعر ، حتى اختل وعجز عن ستر ولده وأهله . وبخل هشام على ذلك كله بتسريحه ، والإذن فى الانطلاق عن الأندلس ، فرقا من خبث لسانه » [3] .

أما أثر هذا الاضطراب وتلك الفتنة فى الناحية الخلقية فواضح جدا فى كثير من أخبار هذه الفترة ، إذ تدل على مبلغ اضطراب المعايير وانتكاس المثل . وحسبنا أن نعرف تاريخ رجل كواضح العامرى ، الذى استطاع بالرغم من ولائه للعامريين وانتسابه إليهم ، أن يتولى المهدى الخارج عليهم ، وقاتل كبيرهم ، ثم يكون حاجبا له ؛ ولكنه لا يلبث حتى ينقلب عليه ويدبر مقتله . وسنرى فى سياق هذه السيرة كثيرا من هذه الصور .

ومن ذلك كله نستطيع أن نتصور أى نقلة عنيفة مفاجئة تلك التى تعرض ابن حزم لها فى مطالع شبابه ، وأى حياة هذه التى تفتحت عليها

---

(١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثانى ، ص ١٣٠ .
(٢) المرجع نفسه ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٤٤ .
(٣) المرجع نفسه ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٣٨ .

عينه بغتة ، ولا سيما إذ كان — بطبيعة الصفة السياسية التى توسم بها أسرته — عرضة لمعظم هذه الخطوب والمحن . مما أحدث ذلك الانقلاب السياسى العنيف الذى عرضنا منذ قليل خطوطه الرئيسية وألوانه البارزة

فلم يكد يتم ذلك الانقلاب حتى كانت مدينة الزاهرة أول ما تتجه إليه نقمة الثائرين ، وتنصب عليه حفيظتهم وسخطهم وعـدوانهم ، و بذلك تعرضت دور ابن حزم فى هذه المدينة لتلك المحنة ، حتى لم يعد بد لهذه الأسرة من أن تجلو عنها ، وتلتمس لها مقاما فى ناحية أخرى . و يشير ابن حزم إلى هذا الانتقال فى بعض حديثه — عرضا — إذ يقول : « . . ثم انتقل أبى رحمه الله من دورنا المحدثة بالجانب الشرقى من قرطبة ، فى ربض الزاهرة ، إلى دورنا القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة ، فى اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين ، محمد المهدى ، بالخلافة ، وانتقلت أنا بانتقاله ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة »[1] .

فذلك أول ما بغت به هذا الشاب الغض الغرير ، فى إبان انتقاله من الحياة المحدودة المقصورة ، إلى الدنيا الواسعة العريضة : الخوف والفزع والحياة القلقة المضطربة . ومع ذلك فقد كانت الأقدار رفيقة معه هذه الشهور الأولى من الفتنة ، فقد استطاع أبوه أحمد بن سعيد أن يظل إلى جانب المهدى ، وأن يظفر بتقديره ، كما رأينا ذلك من قبل ، و بذلك استطاع أن يظفر بشىء من الهدوء والأمن والطمأنينة . ومضت الأيام على ذلك ، ولـكنها كانت تحمل فى أطوائها نذر الشر ، وقد رأينا مبلغ تقلبها . فإذا كانت المناداة بهشام

(١) طوق الحمامة ، ص ١١٠ .

المؤيد خليفة ، فقد بلغت المحنة ، ومحنة هذه الأسرة خاصة ، غاية عنفوانها.

وهذه المناداة بهشام خليفة كانت هى أيضا إحدى البغتات التى بوغت بها عقل ابن حزم ، فقد كان موته عنده أمرا مستيقنا ، بعد أن شهد بنفسه دفنه ، فها هو ذا اليوم يسمع المناداة به ، ثم يراه على عرش الخلافة ، كما حكى ذلك ، فى سياق كلام له عن صلب المسيح وقتله ، قال : « وقدشاهدنا نحن مثل ذلك ، وذلك أننا اندرأنا للجبل ، لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر ، فرأيت أنا وغيرى نعشا فيه شخص مكفن ، وقد شاهد غسله شيخان جليلان حكمان من حكام المسلمين ، ومن عدول القضاة ، فى بيت ، وخارج البيت أبى رحمه الله ، وجماعة عظماء البلد ، ثم صلينا فى ألوف من الناس عليه ، ثم لم يلبث إلا شهورا نحو السبعة حتى ظهرحيا ، و بويع بعد ذلك بالخلافة ، ودخلت عليه أنا وغيرى ، وجلست بين يديه ، ورأيته ، و بقى ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام »[1] . فما كان ابن حزم يشك إذن أن هشاما قد مات ودفن ، فأى عجب قد أخذ بعقله ومشاعره حين يراه منتصبا خليفة . ولعل موالاة أبيه للمهدى إنما كانت على هذا الاعتبار ، فما عسى أن يكون موقف هشام منه ، وكيف يكون تأويله موالاته خصمه ؟

وكذلك دفعت أسرة ابن حزم ثمن ذلك الهدوء الطفيف الذى ظفرت به مدى هذه الشهور ، وهو يشير إلى ماعانوه من ذلك بقوله : « ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين ، هشام المؤيد ، بالنكبات ، و باعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار . وأرزمت الفتنة

---

(١) الفصل ١ : ٥٩ .

وألقت باعها ، وعمت الناس وخصتنا ، إلى أن توفى أبى الوزير رحمه الله ، ونحن فى هذه الأحوال ، بعد العصر لليلتين بقيتا من ذى القعدة ، عام اثنين وأربعمائة ، واتصلت بنا تلك الحال بعده »[1] .

هكذا كانت فترة الحصار المضروب على قرطبة ، وهكذا كانت مدة قيام هشام، بالقياس إلى آل حزم . لم يغن عنهم قديم ولائهم وسابق صلتهم، ولم يدفع عنهم ذلك التهم تحيق بهم وتجلب إليهم ألوان المحن والكروب . فهكذا عهد الفتنة دائماً ، لا عهد له ، ولا قديم فيه ، ولا رعاية معه ، إنما هى الريبة وحدها صاحبة السلطان المطلق ، ولا معقب لها ولا رادّ لأمرها. وكذلك فرضت على آل حزم هذه المحن الشديدة ، وأخذوا بتلك الألوان المختلفة من المكروه ، وهكذا كان الجو الذى انتقل إليه فتانا .

وفى أثناء هذا الحصار ، وبين هذه الألوان من التنكيل ، حدثت أحداث ثلاثة متعاقبة ، ارتجت لكل منها نفس ذلك الشاب ، وأحس لقاءها أن القضاء يريد أن يفصل فصلا تاما بينه وبين حياته الأولى ،فيقطع ما بقى له من الأواصر التى كانت تصله بها ، أما أولها فموت أخيه أبى بكر أليف روحه ورفيقه فى تلك الحياة الأولى ، أصابه الطاعون الذى أناخ على قرطبة وعاث فيها ، فقضى نحبه فى شهر ذى القعدة سنة إحدى وأربعمائة.[2]

ولم يكد ينقضى على ذلك الحادث الذى تفرقت له نفسه عام واحد ، حتى كان موت أبيه .

---

(١) طوق الحمامة ، ص ١١٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١١٦ .

ثم لم ينقض على مصابه هذا إلا عام أو نحوه ، حتى كانت فجيعتـه فى حبيبته « نعم » ، وهى فجيعة نستطيع أن نتصور مدى تأثره بها ، فى هذه العبارات التى عبر بها عنها · بعد مضى عهـد طويل عليها ، يقارب خمسة عشر عاما ، لم يستطع أن ينسيه إياها ، وذلك إذ يقول : « كنت أشد الناس كلفا ، وأعظمهم حبا ، بجارية لى كانت فيما خلا اسمها « نعم » وكانت أمنية المتمنى ، وغاية الحسن خلقا وخلقا وموافقـة لى ، وكنت أبا عذرها ، وكنا قد تكافأنا المودة ، ففجعتني بها الأقـدار واخترمتها الليالى ومر النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، وسنى حين وفاتها دون العشرين سنة · وكانت هى دونى فى السن . فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى · ولا تفتر لى دمعة ، على جمود عينى وقلة إسعادها . وعلى ذلك فو الله ما سلوت حتى الآن ، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف ، و ببعض أعضـاء جسمى العزيزة على ، مسارعا طائعا . وما طاب لى عيش بعدها ، ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها . ولقد عفى حبى لها على كل ما قبله ، وحرم ما كان بعده » ومن تمام هذا ما أورده بعد ذلك من مراثيه فيها ، فقد أورد من ذلك بيتين ، هما :

كأنى لم آنس بألفاظك التى ... على عقد الألباب هن نوافث
ولم أتحكم فى الأمانى كأننى ... لإفراط ما حكمت فيهن عابث (١)

وهكذا كانت الـكوارث ما تزال تلاحق ابن حزم ، وما تزال محن الأيام تتراءى له صريحة واضحة لا حجاب عليها ، ولا مواربة فيها ، كأنما

---

(١) طوق الحمامة ، ص ٨٨ — ٨٩ .

تريد أن تصور له الدنيا على حقيقتها وفى شناعتها ، فى أوجز وقت ، بعد أن ظل ذلك العهد الطويل ، وقد حيل بينه و بينها بتلك الستائر التى لا تريه منها إلا مارق وعذب .

ثم انقضى الحصار ، وسلمت قرطبة لسليمان المستعين ، ودخلها بجنوده من البربر ، فهل شفع لآل حزم ما قاسوه فى هذه الفترة من الأذى والضر ، وما كابدوه فى دولة هشام المؤيد وحاجبه واضح العامرى ؟ كلا ! و إنما كان دخول المستعين ضغثا على إبالة ، فقد كان هـذا الدور أشد أدوار الفتنة وأنكاها بقرطبة . لقد دخل البربر قرطبة بعد ذلك الحصار الطويل دخول الثائر المتعطش للبطش والانتقام ، المحنق الذى يحمل فى صدره مواريث أجيال طويلة من العداوة والحقد والبغضاء ، فلم يكن من همهم إلا السلب والنهب والتحريق والتدمير . ويشير ابن حزم إلى ذلك و إلى ما نال أسرته منهم ، فى سياق بعض حديثه ، بقوله : « ... إلى أن ألقت الفتنة جرانها ، وأرخت عزاليها ، ووقع انتهاب جند البربر منازلنا فى الجانب الغربى بقرطبة ونزولهم فيها » (١) و بذلك بلغ الأمر غايتـه ؛ وما عسى أن يكون بعد أن أجلى آل حزم عن دورهم فى الجانب الغربى من قرطبة ، كما أجلوا من قبل عن دورهم فى الجانب الشرقى منها ؟

إنما هو الجلاء عن قرطبـة جميعا ، مع زمر الهاربين منها ، فلم تعد لابن حزم دار مقام . وهكذا لم يمض على دخول البربر قرطبة ، وقد دخلوها لثلاث بقين من شوال سنـة ٤٠٣ ، شهران ، حتى كان ابن حزم قد دبر

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١١٧ .

للرحيل عنها أمره ، فكان جلاؤه عنها فى مستهل عام ٤٠٤ [١] .

ترك ابن حزم قرطبة ، وهو فى العشرين من عمره ، شديد الحسرة عليها ، وعلى أيامه فيها ، بالرغم من كل مالقيه بها . وقد بقيت لنا قطعة بليغة يصور فيها دور آل حزم فى الجانب الغربى من قرطبة ، حيث قضى هذه المرحلة من حياته ، ما كانت عليها وما آلت إليها ؛ وهى إلى جانب تصويرها لهذه الدور تمثل مبلغ حنينه إليها ، وتعلقه بها ، حتى لم يعد يذكر شيئاً من مآسى حياته فيها ، بعد أن فارقها . قال :

« ولقد أخبرنى بعض الورّاد من قرطبة — وقد استخبرته عنها — أنه رأى دورنا ببلاط مغيث ، فى الجانب منها ، وقد امحت رسومها ، وطمست أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيرها البلى ، وصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافى موحشة بعد الأنس ، وخرائب منقطعة بعد الحسن وشعابا مفزعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ، ومعازف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش ، بعد رجال كالليوث ، وخرائد كالدمى ، تفيض لديهم النعم الفاشية . تبدد شملهم فصاروا فى البلاد أيادى سبا . فكأن تلك المحاريب المنمقة ، والمقاصير المزينة ، التى كانت تشرق إشراق الشمس ، ويجلو الهموم حسن منظرها ، حين شملها الخراب وعمها الهدم ، كأفواه السباع فاغرة ، تؤذن بفناء الدنيا وتريك عواقب أهلها ، وتخبرك عما يصير إليه كل من تراه قائما فيها ، وتُزهِّد فى طلبها بعد أن طال مازهدت فى تركها . وتذكرت أيامى بها ، ولذاتى فيها ، وشهود صباى

---

(١) طوق الحمامة ، ص ١١٠ .

لديها ، مع كواعب إلى مثلهن صبا الحليم . ومثلت لنفسي كونهن تحت الثرى ، وفي الآثار النائية ، والنواحي البعيدة ، وقد فرقهن يد الجلاء ، ومزقتهن أكف النوى . وخيل إلى بصري بقاء تلك النصبة بعدما علمته من حسنها وغضارتها ، والمراتب المحكمة التي نشأت فيما لديها ، وخلاء تلك الأفنية بعد تضايقها بأهلها . وأوهمت سمعي صوت الصدى والهام عليها ، بعد حركة تلك الجماعات التي ربيت بينهم فيها ، وكان ليلها تبعا لنهارها ، في انتشار ساكنها والتقاء عمارها ، فعاد نهارها تبعا لليلها في الهدوء والاستيحاش ، فأبكى عيني ، وأوجع قلبي ، وقرع صفاة كبدي ، وزاد في بلاء لبي ، فقلت شعرا منه :

لئن كان أظمانا فقد طال ما سقى
وإن ساءنا فيها فقد طال ماسرا . » (١)

ذلك هو مبلغ تعلق ابن حزم بقرطبة التي تركها « بعد أن طال ما زهد في تركها » كما يقول .

---

(١) طوق الحمامة ، ص ٩١ — ٩٢ .

- ٦ -

فى هذه المرحلة كان — كما قلنا — دور التحصيل المنظم لدي ابن حزم ، بالتلقى عن شيوخ الأدب ، والسماع من أئمة العلم . ولم تكن هذه النكبات التى عانتها قرطبة ، والصروف التى كابدتها أسرته ، لتحول بينه و بين طلب العلم طلبا منظما ، فقد أشرب حب العلم ، وكان توجيه أبيه إلى الحياة العلمية توجيها قويا مسدداً. بل لعل هذه الصروف التى واجهته كان لها أثرها فى تسديده فى تلك السبيل .

ويقول المقرى فى ترجمته لابن حزم إن أول سماعه كان فى سنة ٣٩٩ (١) ويقول ابن بشكوال والضبى إن أول سماعه كان من ابن الجسور ، قبل الاربعمائة (٢) وإذن فقد بدأ دراسته برواية الحديث ، كما كان الأسلوب المتبع ، وبهذا الفن من المعرفة بدأ ثقافته الدينية التى بلغ بها أقصى مراحلها وأعلى درجاتها .

أما ابن الجسور هذا الذى يذكر ابن بشكوال والضبى أنه أستاذه الأول فى علم الحديث ، فهو أبو عمر أحمد بن محمد بن الجسور ، أحد شيوخ المحدثين فى قرطبة فى ذلك الوقت ، إذ كان يناهز الثمانين حين أخذ ابن حزم يتلمذ عليه ويتلقى منه ، وكان من أهل الحى الذى كان يقيم فيه آل

---

(١) نفح الطيب ١ : ٣٦٥ .

(٢) الصلة ، س ٤٠٩ ، بغية الملتمس ، ص ٤٠٣ .

حزم إذا ذاك : بلاط المغيث بغربى قرطبة . وقد كان إلى جانب حفظه للحديث والرأى ، ومعرفته بأسمـاء الرجال ، ينزع نزوعا أدبيا ، إذ كان — كما يقول عنه ابن بشكوال — أديبا شاعراً ، وقد كان ذلك — ولا ريب — مما يوثق الصلة بينه و بين تلميذه الشاعر الأديب . ويذكر الضبى أن ابن حزم قرأ عليه كتاب التاريخ ، لمحمد بن جرير الطبرى ، وهو من الكتب التى عرف ابن الجسور بإقرائها ، وكان أخذه عن أبى بكر الدينورى ، حين دخل الأندلس قبل الخمسين والثلاثمائة

وإذا كنا لانرى اسم ابن الجسور كثيراً فى الرواة الذين يروى عنهم ابن حزم فى مثل كتابه المحلى ، فمرجع ذلك ، فيما نحسب ، إلى أن صحبته له وتلمذته عليه لم تطل ، إذ لم يلبث ابن الجسور أن قضى نحبه فى الطاعون الذى أناخ بقرطبة سنة ٤٠١ ، وذهب ضحيته أبو بكر أخو صاحبنا ابن حزم ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك (١) .

وكما نلاحظ أن ابن الجسور هذا من أقل شيوخ ابن حزم ورودا فى مثل كتابه المحلى ، فإننا نلاحظ أن أكثرهم على الإطلاق هو أبو محمد الرهونى ، عبد الله بن يوسف بن نامى . ولاندرى على وجه اليقين إذا كان ابن حزم قد تلمذ له فى هذه المرحلة التى نتحدث عنها ، ولـكن أكبر الظن أن تلمذته له قد امتدت وتجددت فى مراحل أخرى فى الفترات التى قضاها فى قرطبة بعد ذلك ، سنة ٤٠٩ ، سنة ٤١٤ . وقد نقل ابن بشكوال عن ابن مهدى فى صفته أنه « كان رجلا صالحا خيرا فاضلا ، لايقف بباب

---

(١) الصلة ، ص ٢٤ — ٢٥ ، بغية الملتمس ، ص ١٤٣ .

أحد ، ولا يزول عن تأديبه بمسجد أبي خالد بالمدينة . وكان مجوداً للقرآن ، قديم الطلب ، حسن الخلق ، شديد الانقباض ، جيد العقل ، خاشعا ، كثير البكاء ، متحريا فيما يسمع ، متحفظا به ، ورعا فى دينه »(١)

وإذا نحن اعتبرنا ما لاحظناه من أنه أكثر شيوخ ابن حزم ترددا فى كتبه ، استطعنا أن نفترض من هذا إلى أى حد كان شديد الاتصال به ، والأخذ عنه ، كما استطعنا أن نعرف فيه واحدا من الذين تأثر ابن حزم بهم ، فى اعتداده بنفسه واستقلاله برأيه ، وإخلاصه للعلم ، ووضع الضمير العلمى والدينى فوق كل اعتبار ، دون تلطف أو ترفق أو رعاية لشأن من شؤون الحياة الدنيا .

وليس من غرضنا هنا أن نتتبع أساتذته واحداً واحدا ، ولكننا لانستطيع أن نغفل أستاذاً من أول من اتصل بهم من شيوخه ، وهو رجل مصرى ، قدم الأندلس فى أواخر القرن الرابع ، سنة ٣٩٤ ، وكان إذ ذاك شيخا جاوز الستين ، وهو أبو القاسم ، عبد الرحمن بن محمد بن أبى يزيد الأزدى المصرى

وقد وصفه أحد تلاميذه ، أبو عمر بن الحذاء ، بأنه كان رجلا أديباً ، حلوا ، حافظاً للحديث وأسماء الرجال والأخبار ، وله أشعار حسان فى كل فن ، وكان معاشه من التجارة » . كما وصفه تلميذه الآخر الخولانى ، بأنه « كان أديباً نبيلا ذكياً شاعراً مطبوعاً »(٢)

وهذه الصفات النفسية والعلمية أقبلت بكثير من الطلاب عليه ، ينهلون

---

(١) الصلة ، ص ٢٦٥

(٢) الصلة ، ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

من علمه ، ويستمتعون بأدبه ، إلى جانب مصريته . وكان أهل الأندلس مفتونين بأهل المشرق عامة ، وأهل مصر خاصة ، يكبرونهم ويرونهم مثلا عاليا فى العلم والأدب ، وكذلك كان مجلس أبى القاسم المصرى الذى كان ينعقد بالرصافة ، من شمالى قرطبة — كما ينص على ذلك ابن حزم (١) — من أحفل مجالس العلم والأدب فى ذلك الوقت . ولم يكن العلم فى هذا المجلس هو علم الحديث فحسب ، وإنما كان يعنى فيه إلى جانب ذلك بالكلام والجدل ، كما يشير إلى ذلك أيضا ابن حزم ، فى بعض ما يتحدث به عن نفسه ، مع النص على أنه أستاذه فى هذا الشأن (٢) . وبذلك نستطيع أن نرى فى هذا المجلس بداية ذلك المتكلم الجدل العنيف الخصومة القوى الحجة ، على النحو الذى نراه فى مثل كتاب الفصل وكتاب المحلى

على أن لمجلس أبى القاسم الأزدى المصرى أثراً آخر ، لعله لا يقل عن هذا خطراً ، فى حياة ابن حزم وتكوينه النفسى ، ذلك الشاب الذى عاش ما عاش حتى ذلك الوقت مقصوراً ، لا يكاد يعرف من الصداقة إلا ما عرف منها عند صواحبه أولئك من الإماء والقيان ؛ فقد أتاح له هذا المجلس الحافل أن يعرف طعم الصداقة فى إخوانه وزملائه ، من تلاميذ شيخه أبى القاسم ، وإنه ليذكر بعضهم فى تلك الأحاديث الطليقة التى يستروح بها فى كتابه الطوق . ومنهم من يعزو إليه أكبر الأثر فى سمو مسلكه ، وفى ترفعه عن دنايا الصبا وسفاسف الشباب ، ولاسيما بعد أن خرج من نطاق

---

(١) طوق الحمامة ، ص ٦٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١١٧ .

تلك الرقابة التى كانت مضروبة قبلُ عليه ؛ وذلك هو أبو على الحسين ابن على الفاسى ، وذلك إذ يقول ، بعدأن يذكر ما من الله به عليه من العفة و براءة الذيل :

« وكان السبب فيما ذكرته أنى كنت وقت تأجج نار الصبا ، وشر الحداثة ، وتمكن غرارة الفتوة ، مقصوراً محظوراً على ، بين رقباء ورقائب . فلما ملكت نفسى وعقلت ، صحبت أبا على الحسين بن على الفاسى ، فى مجلس أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدى ، شيخنا وأستاذى رضى الله عنه . وكان أبو على المذكور عاقلا عاملا عالما ، ممن تقدم فى الصلاح والنسك الصحيح ، فى الزهد فى الدنيا والاجتهاد للآخرة ، وأحسبه كان حصورا ، لأنه لم تكن له امرأة قط . وما رأيت مثله جملة : علما وعملا ودينا وورعاً ، فنفعنى الله به كثيراً ، وعلمت به موقع الإساءة وقبح المعاصى »[1]

فقد كان أبو على الفاسى هذا مثلا لأنحا أمام ابن حزم فى طهارة النفس و براءة الخلق ، ولكنه كان كذلك مثلا عاليا لديه فى الإخلاص للعلم ، والاستغراق فيه ، إذ كان — كما يقول الحميدى عنه — « لم يزل يطلب ويختلف إلى العلماء محتسباً حتى مات » . ومما يصور هذا ما حكاه ابن بشكوال عن ابن حزم من قوله : « قلت له (أى لأبى على هذا) يوما ، يا أبا على ! متى تنقضى قراءتك على الشيخ ؟ — وأنا حينئذ أريد سماع كتاب آخر — فقال لى : إذا انقضى أجلى . فاستحسنتها منه »[2] . وهكذا نرى أى صداقة أتاحها مجلس الشيخ أبى القاسم لابن حزم وهو

---

(١) طوق الحمامة ، ص ١٢٥ .

(٢) الصلة ، ص ١٤١

فى مطالع شبابه ، فى شخص هذا الرجل ، وأى مثل رفيع أتيح له منه : طهارة خلق واستغراقا فى العلم .

ومن هؤلاء الذين أتيحت لابن حزم صداقتهم فى مجلس أبى القاسم المصرى ، صداقة جميلة وطيدة ، ظل ينعم بها أمدا طويلا ، أبو عبد الله ، محمد بن يحيى التميمى ، المعروف بابن الطبنى . وإنه ليذكره بهذه العبارات التى تفيض رقة ، وتنم عن أشد معانى التقدير له ، والإعجاب به ، والحب المتبادل بين الرجلين ، إذ يقول : « كان رحمه الله كأنه قد خلق الحسن على مثاله ، أو خلق من نفس كل من رآه . لم أشاهد له مثلا : حسنا ، وجمالا وخلقا ، وعفة ، وتصاونا ، وأدبا ، وفهما ، وحلما ، ووفاء ، وسؤددا ، وطهارة وكرما ، ودماثة ، وحلاوة ، ولباقة ، وإغضاء ، وعقلا ، ومروءة ، ودينا ، ودراية ، وحفظا للقرآن والحديث والنحو واللغة ، وشاعرا مفلقا ، وحسن الخط وبليغا مفتنا ، مع حظ صالح من الكلام والجدل . وكان من غلمان أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدى ، أستاذى فى هذا الشأن .... وكنت أنا وهو متقاربين فى الأسنان ، وكنا أليفين لا نفترق ، وخدنين لا يجرى الماء بيننا صفاء ، إلى أن ألقت الفتنة جرانها ... الخ » (١)

فهذا نوع آخر من الصداقة التى تمتزج فيها الروح بالروح ، ويتجاوب فيها العقل والعقل ، ما كان أشد حاجة ابن حزم إليه .

وصديق ثالث من هؤلاء الأصدقاء الذين هيأتهم لابن حزم حلقة أبى القاسم المصرى بالرصافة ، وهو يمثل نوعا ثالثا من الصداقة ، إذ هو

(١) طوق الحمامة ، ص ١١٧ .

صديق يسد حاجته الأدبية ، ويتجاوب وإياه فى قول الشعر وتذوقه ؛ وابن حزم — كما عرفنا — شاعر منـذ عهد الصبا الأول ، فلا جرم كان للشعر مكان ظاهر فى نفسه . وقد كان من حظه أن كان كثير من شيوخه شعراء أو على الأقل لايتحرجون من قول الشعر ، وكذلك كان كثير من أصدقائه، ومنهم هذا الصديق ، أبو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوى ؛ ويذكره فى سياق صورة من حياته فى هذه المرحلة يعرضها . قال :

« وأذكر فى مثل هذا أنى كنت مجتازاً فى بعض الأيام بقرطبة ، فى مقبرة باب عامر ، فى لمة من الطلاب وأصحاب الحديث ، ونحن نريد مجلس الشيخ أبى القاسم ، عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى ، بالرصافة ، أستاذى رضى الله عنه ، ومعنا أبو بكر ، عبد الرحمن بن سليمان البلوى ، من أهل سبتة ، وكان شاعراً مفلقاً ، وهو ينشد لنفسه فى صفة متجنّ معهود أبياتاً له ، منها :

سريع إلى ظهر الطريق ، وإنه ... إلى نقض أسباب المودة يسرع
يطول علينا أن نرقع ودّه ... إذا كان فى ترقيعه يتقطع

فوافق إنشاد البيت الأول من هذين البيتين خطور أبى على ، الحسين ابن على الفاسى ، رحمه الله ، وهو يؤم أيضاً مجلس ابن أبى يزيد ، فسمعه فتبسم رحمه الله نحونا ، وطوانا ماشياً ، وهو يقول : بل إلى عقد المودة إن شاء الله ، فهو أولى . هذا على جد أبى الحسين ، رحمه الله ، وفضله وتقربه وبراءته ونسكه وزهده وعلمه ، فقلت فى ذلك :

دع عنك نقض مودتى متعمدا ... واعقد حبال وصالنا ياظالم

ولترجعن ، أردته أم لم ترد كرها ، لما قال الفقيه العالم »[1]

وأبو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوى هذا من رجال الضبى ، ذكره فى كتابه ، وإن لم يزد فى صفته على قوله إنه « من أهل العلم ، أديب شاعر ، فى حدود الأربعمائة . رأيت له أبياتاً كتب بها إلى صديق له من أهل الكلام يمازحه ويستهديه كسوة » ، ثم أورد قطعة من هذه الأبيات [2]

فهذه صورة مما أتاحه مجلس أبى القاسم بن أبى يزيد المصرى لصاحبنا ابن حزم من أسباب الصداقة والمودة ، وأمد روحه بطائفة من ألوانها ، ما كان أمسّ حاجته إليها ، فوق ما ذكرنا من تلقى الحديث ، ورياضة العقل بالكلام والجدل ، إلى غير ذلك مما كان يمهد له السبيل إلى معرفة الحياة ومخالطة النفوس ، ومما كان يعتبر نوعاً من المقاومة الطبيعية لمشاعر الخوف والقلق التى كانت تبثها تلك الكوارث والخطوب التى حاولنا تصويرها

ومهما حبسنا النفس عن استقصاء شيوخ ابن حزم فى هذه الفترة ، فلن نستطيع إغفال أبى الوليد بن الفرضى وقد ذكره فى رسالته التى كتبها فى فضائل علماء الأندلس ، فى سياق كلامه عن كتب الحديث ، فقال :

« ومنها كتاب القاضى أبى الوليد ، عبد الله بن محمد بن يوسف بن الفرضى فى المختلف والمؤتلف فى أسماء الرجال ، ولم يبلغ عبد الغنى الحافظ البصرى

---

(١) طوق الحمامة ، ص ٦٨ .

(٢) بغية الملتمس ، ص ٣٥١ .

فى ذلك إلا كتابين ، و بلغ أبو الوليد رحمه الله تعالى نحو الثلاثين ، لا أعلم مثله فى فنه البتة » [1]

وشخصية أبى الوليد الفرضى من الشخصيات القوية ، كونها درس طويل ، ورحلة إلى المشرق ، وعناية بالكتب والقراءة ، وممارسة للحياة، « لم ير مثله بقرطبة فى سعة الرواية ، وحفظ الحديث ، ومعرفة الرجال ، والافتنان فى العلوم ، إلى الأدب البارع ، والفصاحة المطبوعة ، قل ما كان يلحن فى جميع كلامه ، من غير حوشية ؛ مع حضور الشاهد والمثل » ، فيما يقول ابن حيان عنه [2]

وقد كان هو أيضاً من أصحاب النزعة الأدبية ؛ وإن وصفه ابن بسام بأنه شاعر مقل ، وأنه فى العلماء أدخل منه فى الشعراء [3] . ولدينا بقية من شعره تدل على هذه النزعة ، فى الذخيرة والصلة و بغية الملتمس

فإذا تركنا شيوخه فى الحديث إلى شيوخه فى الأدب ، استطعنا أن نعرف منهم أبا سعيد الفتى الجعفرى ، وقد ذكر أنه قرأ عليه معلقة طرفة ابن العبد مشروحة [4] ، وأبا الخيار اللغوى [5] . على أن ابن حزم لم

---

(١) نفح الطيب ٢ : ٧٧٢ .

(٢) الصلة ، ص ٢٥٠ .

(٣) الذخيرة . القسم الأول . المجلد الثانى . ص ١٣٠ .

(٤) طوق الحمامة ، ص ٦٦ . ولا نعرف شيئا عن هذه الشخصية . إلا أن تكون هى شخصية أبى سعيد خلف مولى جعفر الفتى المعروف بابن الجعفرى ، وهو عالم نبيل مائل إلى الزهد من أهل قرطبة ، تركها فى الفتنة إلى طرطوشة ، وليس يبعد أن يكون هو ، مع فرض وقوع تحريف فى الاسم .

(٥) طوق الحمامة ، ص ١٠٣ ، وانظر الصلة ص ٥٥٨ .

يكن فى حاجة ماسة إلى حلقات الأدب واللغة ، فقد نال من ذلك حظاً غير قليل فيما كان يؤخذ به فى المرحلة الأولى من حياته ، كما كان يجد فى حلقات الحديث ، وشيوخه كما رأينا من أهل الأدب أيضاً ، ما يكفى تطلعه ويرضى نزوعه فى هذه الجهة

على أن ابن حزم لم يكتف من الدراسة المنظمة فى هذه الفترة بالتردد على حلقات الحديث والأدب ، فقد كانت نزعته المتطلعة ، ونزوعه الطبيعى إلى مقاومة مشاعر الخوف والقلق ، يدفعانه إلى التماس أبواب المعرفة المختلفة. ولا ريب أن الفلسفة وعلومها كانت تتبرج له وتثير رغباته ، وكانت قرطبة تزخر من علماء الفلسفة بطائفة غير قليلة ، وهم جماعة الأطباء الذين كان الطب يعتبر إذ ذاك شعبة من شعب ثقافتهم

وقد أتيح لابن حزم أن يعقد فى هذه المرحلة صلته بكبير من كبارهم ، هو أبو عبد الله ، محمد بن الحسين المذحجى ، المعروف بابن الكتانى ، وهو يدعوه بأستاذه حين يعرض ، فى رسالته فى فضل علماء الأندلس ، لذكر كتبه فى الطب ، ويصفها بأنها « كتب رفيعة حسان » ، أو رسائله الفلسفية ويصفها بأنها « مشهورة متداولة ، وتامة الحسن ، فائقة الجودة ، عظيمة المنفعة » [(١)] . وأكبر الظن أن اتصال ابن حزم بابن الكتانى إنما كان عن طريق اتصال هذا بأسرة العامريين — ونحن نعرف الصلة بين العامريين وآل حزم — فقد كان طبيب المنصور بن أبى عامر وابنه المظفر . كما أن نزعته الأدبية الظاهرة مما من شأنه أن يقوى صلة ابن حزم به ، ويقوى من رغبته

(١) نفح الطيب ٢ : ٧٧٤

فيـه ، فقد كان — كما يقول الضبي — « له مشاركة قوية فى علم الأدب والشعر ، وله تقدم فى علوم الطب والمنطق ، وكلام فى الحكم ، ورسائل فى كل ذلك ، وكتب معروفة ، وكتاب سماه كتاب محمد وسعدى ، مليح فى معناه »[1] . وقد أورد بعد ذلك شيئا من شعـره ، يدل على هذه النزعة الأدبية ، وهذه المشاركة القوية .

وأحسب أن صلة ابن حزم بابن الكتانى وتلقيه عنه لم يطل ، ذلك أن ابن الكتانى لم يلبث أن هجر قرطبة فيمن هجرها ، حين نشبت الفتنة ومضى عنها إلى سرقسطة (Saragosse) فى شرقى الأندلس[2] ؛ ولكنه على كل حال قد نبه فيه الرغبة إلى تحصيل ذلك اللون من المعرفة ، وأثار فى نفسه الشوق إلى التماسه ، فمضى يأخذه عن العلماء الآخرين ممن لم نقف على أسمائهم ، كما مضى يتلقاه عن الكتب ، وقد كانت قرطبة — كما رأينا من قبل — تعتبر من أمهات المدن التى تعنى بخزائن الكتب عناية خاصة .

و بعد، فهذه طائفة من وجوه النشاط العقلى التى أتيح لنا أن نعرفها عن صاحبنا ابن حزم فى هذه المرحلة ، ومنها نرى فى وضوح وجلاء أنه لم يأل فيها جهدا فى تحصيل المعرفة فى شتى صورها ، ومن مختلف وجوهها ومصادرها، وأنه أقبل على هذه الحياة الفعلية مشوقا إليها ، شغوفا بها ، نهما إلى استيعاب ما تموج به . وأكبر الظن أنه قد بدأ فى هذا الوقت يعرف نفسه ، ويتبين نوازعه ، و يستكشف السبيـل الذى ينبغى أن يسير فيه ؛ إنه سبيل العلم ،

---

(١) بغية الملتمس ، ص ٥٧ .

(٢) عيون الأنباء ٢ : ٤٥ .

أما السياسة ، فلا ندرى ماذا كان موقفه إذ ذاك منها ، على أنها إذا كانت أخذت تراوده ، فما كان ملابسات الحياة تأذن له أن يستجيب لها، أو يشارك مشاركة بينة فيها .

وقد انتهت هذه المرحلة باضطرار ابن حزم إلى الخروج عن قرطبة، كما رأينا من قبل. وقد عرفنا الضرورات التى ألزمته هذه الهجرة ، وأنها ضرورات مادية لم يكن من الخضوع لها بدّ. ولكن هذه الهجرة لم يكن منها بدأيضا لاستكمال شخصيته العلمية، إذ لم تعد قرطبة بعد هذه الفتن الطامة المعتلجة التى أطبقت عليها وفتكت بها، كافية لإرضاء حاجاته العقلية ومطامحه الأدبية بعد أن هجرها أكثر علمائها ورجال الأدب فيها ، وأخذ من بقى منهم يتحين الفرصة للنجاة بنفسه من هذا البلاء الماحق والفتن المردية ، فقد كانت هذه الأيام — كما يجمل صفتها ابن حيان — « شدادا نكدات ، صعابا مشؤومات ، كريهات المبدأ والفاتحة ، قبيحات المنتهى والخاتمة ، لم يعدم فيها حيف ، ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ، مع تغير السيرة ، وخرق الهيبة ، واشتعال الفتنة ، واعتلاء المعصية ، وظعن الأمن وحلول المخافة »[1] .

(١) الذخيرة . القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٢٥ .

كان مهاجر ابن حزم من قرطبة إلى مدينة المرية ، وقد أمضى فيها ثلاث سنوات ، ما بين سنة ٤٠٤ و سنة ٤٠٧ .

والمرية (Almeria) مدينة كبيرة تقع على البحر المتوسط ، فى الركن الجنوبى الشرقى من الأندلس ، فى مقابل مدينة وهران على العدوة الأخرى « إليها تقصد مراكب البحر من الإسكندرية والشام كله » ، كما يقول الإدريسى ، ومن ذلك « لم يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها مالا ، ولا أتجر منهم فى الصناعات وأصناف التجارات ، تصريفا وادخارا » ، كما « لم يكن فى بلاد الأندلس أحضر من أهلها نقدا ، ولا أوسع منهم أحوالا » [1] .

هذه هى المرية التى هاجر ابن حزم إليها ، بعد تلك المحنة العنيفة التى كابد أهوالها . ولسنا ندرى على سبيل التحقيق الملابسات التى جعلت ابن حزم يختارها ، وإن كنا نلاحظ أن هذه المدينة وما إليها من شرق الأندلس كانت فى حكم العامريين فى خلال تلك الفتنة ، فقد كان من الطبيعى إذن أن يلجأ إلى ذلك الجانب من البلاد من ضاقت بهم قرطبة من العامريين ومن ينتمون إليهم ، وأن يلتمسوا فى كنف سادته المطمأن الذى يجدون فيه

---

(١) صفة المغرب ... الخ ، ١٩٧ — ١٩٨ .

الأمن والسلام ، حين يتعرضون فى دورهم لصنـوف المحن والهوان . فهذا الجانب الشرقى كان إذن الملجأ الطبيعى للمهاجرين من قرطبة ، حتى لقد كان مما أذيع عن هشام المؤيد ، بعد دخول المستعين قرطبة أنه ترك يهرب منها وأن مهربه كان إلى المرية ، وإن ذهبت الإشاعة إلى أنه كان يعيش فيها عيشة نـكدة [1] .

وإلى شرق الأندلس ذهب عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ، وجعل مقامه فى سرقطسة ، فى جوار صاحبها منذر بن يحيى ، وكان يدين بمكانه للعامريين ، ثم لهذه الفتنة التى جعلته يستقل بهذه المدينة ، وجعلت عبد العزيز يلجأ إلى جواره لسابق الصلة وقديم العهد .

وكانت الجزائر الشرقية فى حكم مجاهد العامرى ، ثم دخلت دانية بعد الفتنة فى سلطانه ، وكانت بلنسية فى حكم مبارك ومظفر العامريين ، وكذلك كانت المرية تخضع إذ ذاك لسلطان الموالى العامريين ، إذ كان يحكمها خيران العامرى الصقلبى ، وهو قديم العهد بها ولاه المنصور بن أبى عامر الكبير قلعتها ، وهى القلعة التى كان الخليفة عبد الرحمن الناصر بناها هنالك ليرد بها غارات النورمنديين والفرنجة ، وليحتمى بها أسطول المسلمين . وقد ظل خيران هنالك قائما على هذه القلعة ، حتى نسبت إليـه ، فقيل : قلعة خيران . فإذا كانت الفتنة ، وأخذ البربر يطردون العامريين من قرطبة ، كانت المرية التى تسيطر بموقعها الممتاز على ذلك الركن الجنوبى الشرقى من بلاد الأندلس ، أحد المعاقل والملاجىء التى تتجه اليها أنظارهم .

---

(١) أنظر أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ، ص ١٤٠ — ١٤١ .

كذلك كان الأمر فى التجاه ابن حزم إلى المرية ، أوائل المحرم ، سنة ٤٠٤ .

وهكذا بدأ صاحبنا رحلاته التى قسمت حياته ، منذ هذا الوقت ، بين بلاد الأندلس المختلفة ، شرقية وغربية ، برية وبحرية ، وبذلك بدأ حياة جديدة هى أشبه شىء بحياة التشرد ، على النحو الذى سنراه فى هذه السيرة . وقد ترك ابن حزم موطنه وملاعب صباه ومسارح شبابه فى قرطبة ، وهجر كثيرا من إخوانه وزملائه الذين استشعر بهم معني الصداقة ، وأحس لديهم روح الود الخالص ، كصاحبه وصديقه أبي عبد الله بن الطنبى ، وقد عرفنا مبلغ ما كان يربط قلبيهما من ود ، فقد خلفه فى قرطبة ، ولكنه ظل وإياه يتهاديان الرسائل التى تعبر عن مكنون القلوب ، وتحمل الطابع الفنى الرائع ، وقد أورد ابن حزم قطعة تمثل لنا هذا النوع من الرسائل ، هى أبيات من الشعر ، قال إنها جاءت فى درج رسالة ، كانت آخر ماخاطبه صديقه ابن الطنبى به ، وهي هذه :

ليت شعرى عن حبل ودك هل يمـ ... ـسى جديداً لدى غير رثيث
وأرانى أرى محيـاك يوما ... وأناجيك من بلاط مغيث
فلو ان الديار ينهضها الشو ... ق أتاك البلاط كالمستغيث
ولو ان القلوب تسطيع سيرا ... سار قلبى إليك سير الحثيث
كن كما شئت لى ، فإنى محب ... ليس لى غير ذكركم من حديث
لك عندى ، وإن تناسيت ، عهدٌ ... فى صميم الفؤاد غير نكيث [1]

(١) طوق الحمامة ، ص ١١٧ . وانظر : بغية الملتمس ، ص ١٣٥ .

وبمثل هذه الرسائل المعبرة ظل ابن حزم مرتبطا بقرطبة ، متعزيا عن تركها ، مدى هذه السنوات الثلاثة التى أقامها فى المرية . ولا ريب أن مثل هذه القطعة كانت تهيج من حنينه ، ولكنه كان يربط على قلبه .

وكانت سن ابن حزم حين هجر موطنه فى قرطبة عشرين عاما ، فقد كان إذن شابا فى دور الاكتمال والنضوج ، وإنما الذى أنضجه هو هذه السنوات الأخيرة التى تعرض فيها لصنوف المحن والأرزاء ، وشهد فيها كيف تتقلب الأمور وتتصرف الأحداث ، بل كيف تتقلب القلوب وتتغير المودات ، وينكر المرء أخاه ، والصديق صديقه . ولكنه كان إذ ذاك فى فورة الشباب المحتدم ، وفى عنفوان الرغبة فى الاستمتاع بالحياة ، فهو ما يكاد يعبأ بشىء من ذلك كله . وما كان ليترك قرطبة إلا مكرها حين أجلى أهله عن دورهم ، فهو يغادرها ممتلىء القلب أسى وحسرة ، ماتفتأ تلك الصور الحبيبة إليه ، العزيزة لديه ، تراود خياله ، وما يزال الحنين يغالبه عن نفسه ، وقد أخذها بالتصبر والتسلى .

ولكن هذا الشعور كان يعادله فى نفسه شعور آخر ، هو شعوره بنفسه مستقلة منفردة ، وإحساسه بذاته قائمة فى الحياة وحدها ، فمن نفسه يجب أن يستمد القوة وعناصر الكفاح وروح البقاء .

وربما كانت بداية هذا الشعور حين أخذ يجد نفسه يواجه الحياة ، وقد جعلت أسبابه تتقطع واحدة بعد الأخرى ، إذ يباغت بموت أخيه الأكبر ، ثم بموت أبيه بعد ذلك ، ثم بموت حبيبته « نعم » ، ثم بهذه الأحداث التى تحيق بأسرته ، ولكنه كان على كل حال فى موطنه وبين عشيرته : أما

الآن فقد قذفت به الأحداث بعيداً عن الموطن ، وتركته فى هذا المغترب ، وجعلت تشعره أنه يواجه الحياة وحيداً ، وأنه يجب أن يعدّ نفسه لمواجهتها والملاءمة بينه وبينها ، إعداداً ذاتيا قويا لاونية فيه ولا فتور . وفى هـذا ما فيه من تـكوين الشخصية وتربية الخلق ، فوق ما أتيح له من ذلك قبل .

وقد لا يكون من اليسير أن نتبين على وجه اليقين أو مايقرب من اليقين الوجهة التى كان يتجه إليها بآماله ، والهدف الذى كان يهدف إليه بنشاطه وأعماله ، ولـكننا نتبين أن السياسة كانت إذ ذاك مما يراود نفسه ويخالط تفـكيره ، وأن المشاركة فى تحقيق بعض الغايات القريبة أو البعيدة التى تعمل لها فى هذه الفترة بعض الأحزاب الأموية ، كان مما يشغل باله ، و يستغرق جزءا غير قليل من همه ، فما يزال قريب عهد بالبيئة السياسية التى نشأ فيها وخرج منها ، وقد كانت السياسة مصدر سعادته ، كما كانت مصدر شقائه .

وليست التهمة التى وجهها إليه خيران ، صاحب المرية ، وسنعرض لها بعد ، إلا دليلا على هذا الاتجاه . مهما يكن أمره هذه التهمة ، وكذلك ما نراه بعد من انحيازه إلى المرتضى أو وزارته للمستنصر ، فنزعته السياسية لاريب فيها . فليس عجيبا أن تتمثل هذه النزعة فى صورة نشاط معين فى هذا الوقت ، وذلك على كل حال أمر طبيعى بالنسبة لشاب مثله ، متقد حماسة وحمية ، اعتدى عليه أو على أسرته ، وسلبت ما كان لها من حقوق سياسية وغير سياسية ، وقد شرد بهم ، وتركوا يشعرون بالظلم والطغيان

وعذاب الهون . فإنه لجد طبيعى فى مثل هذه الحال أن تتجه مشاعر هذا الشاب إلى دفع ذلك الظلم ، ورد ذلك العدوان ومحاولة اسـترداد تلك المـكانة المسلوبة ، والمشاركة فى كل عمل أو تدبير يدبر لغسل ذلك الجرح الذى مايزال يدمى وينغر .

هذا هو منطق الأمور بالنسبة لمثل ذلك الشاب أبى محمد ابن حزم ، فى مثل تلك الظروف ، وإن كنا لانستطيع القطع ، إذ لا نملك من ذلك شيئاً معيناً نستطيع أن نتحققه ونضع أيدينا عليه ، ولـكنه فرض على كل حال ، يحملنا على افتراضه ، ويقويه لدينا كل تلك الأسـباب والملابسات التى أوردنا .

وإنما الشىء الذى نستطيع أن نستيقنه ونطمئن إلى تقريره ، فهو أنه تابع فى المرية ما بدأه فى قرطبة ، من تحصيل العلم الذى فاته أن يحصله فى حياته المقصورة الأولى ، حيث كان الجانب الفنى هو أغلب الجوانب عليها وآثرفيها ، واستمر فى تلك السبيل التى اختطها لنفسه ، ورأى فيها نوازعه ، واطمأن فيهـا إلى كفايته ، وإن كنا لانستطيع أن نتبين على وجه الدقة والإحاطة وجوه نشاطه العلمى فى المرية ، إذ كانت النصوص التى يمـكن أن تهدينا فى هذا قليلة نزرة مبهمة ، فإنا لنتلمس معالم حياته فى هذه المدينة تلمسا ، ونتحسس فيها سبيلنا إلى تصوير حياته فيها تحسسا ، وسط ظلمات كثيفة ، لاتكاد تتبين فيها العين معلما واضحا .

على أنه مهما يكن من شىء ، فإن الهدوء الذى أصابه فى المرية ، بعد تلك الفترة المضطربة ، كان مما هو جدير أن يمكن له من تحقيق مطامحة

العلمية ، والمضى فى تلك السبيل التى انتهجها ، وإرواء ظمئه إلى المعرفة على نطاق واسع ، فيتصل فى ظل هذا الاستقرار والهدوء بعلماء هذه المدينة من رجال الحديث وغيرهم ، ممن هو من أهلها أو ممن وفد عليها .

ويحدثنا هو أنه كان متصلا فى المرية بطبيب إسرائيلى ، بصير بالفراسة محسن لها ، اسمه إسماعيل بن يونس ، وأنه كان يجلس فى دكانه فى لمة من الأصحاب [1] ، والأطباء كانوا فى تلك القرون الوسطى هم رجال الفلسفة ، على النحو الذى رأيناه عند أستاذه « ابن الكتانى » فى قرطبة . وبذلك نستطيع القول إن إسماعيل بن يونس هذا كان من ذلك الطراز ، كما يمكن القول بأن ابن حزم وجد فيه مسددا له فى سبيل النظر الفلسفى ، ومتابعة تلك الدراسة التى بدأها فى قرطبة، تلميذا لابن الكتانى .

ويبدو من ذلك الخبر الذى حكاه ابن حزم أن صلته بهذا الطبيب الإسرائيلى ، إسماعيل بن يونس ، كانت صلة صداقة ومعاشرة ، وأن مجلسه كان مجلس حديث ومناقشة ، فلعل ذلك كان من العوامل التى لفتته إلى تعرف أصول الدين اليهودى ، ومراجعة المعارف الإسرائيلية ، حتى أصبح فيها حجة ومرجعا ، مما مكن له من هذه المناظرات التى كان يتولاها مع رجال الدين اليهودى ، حاضر الشواهد والأدلة ، وهذه الفصول المطولة المفتنة التى جعلها فى تفنيد الدعاوى الإسرائيلية ، تفنيداً يلاحظ فيه أول شىء المعرفة الواسعة ، والإحاطة الدقيقة بتفاصيل الثقافة اليهودية ، فلعل الأصل فى هذا يرجع إلى مجلسه فى دكان إسماعيل بن يونس هذا ؛ وكان ما تزال

---

(١) طوق الحمامة ، ص ١٧

تعرض فيه هذه المسألة أو تلك من مسائل الدين اليهودى ، فتثور حولها المناقشة ، ويحتدم الجدل ، فيدعوه ذلك إلى البحث ، وإدمان المراجعة والدرس ، حتى أصبحت هذه الناحية من نواحى علمه من أشد ما يلفت النظر ويدعو إلى التعجب ، وحتى أصبحت مجالسه مع اليهود موضع تنويه العلماء . وإن إتقانه لهذه الناحية ظاهر فى هذه العبارات الساخرة التى كتب بها إليه ابن عمه أبو المغيرة حين نشبت الخصومة بينهما : « ونسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك ، التى صرت رئيس مدراسهم ، وكبير أحراسهم ، تحدثهم عما كان فيهم من العبر ، وتخبرهم بما تعاقب عليهم من الصفا والكدر ، فتارة عن السامرى والعجل ، وتارة عن القمل والنمل ، وطورا تبكيهم بحديث التيه ، وطوراً تضحكهم بقوم جالوت وذويه ، حتى كأن التوراة مصحفك ، وبيت الحزان معتكفك » (١).

وليس إسماعيل بن يونس هذا هو كل من أتيح لنا معرفته ممن اتصل بهم ابن حزم من اليهود فى المرية ، وهو يذكر فى موضع آخر أنه ناظر فى مسئلة من المسائل التى يدين بها اليهود « أعلمهم وأجدلهم ، وهو اشموال ابن يوسف اللاوى الكاتب المعروف بابن النغرالى ، فى سنة أربع وأربعمائة »(٢) وبتعيينه هذه السنة تبين لنا أن هذه المناظرة كانت فى المرية .

وإشموال بن يوسف هذا هو إسماعيل ، ابن النغرالى أو ابن النغريلى ،

(١) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٣٧

(٢) الفصل ١ : ١٥٢ ، وانظر أيضا ما عرض له من مناظرة ابن النغرالى فى موضع آخر ١ : ١٣٥ .

أحد الشخصيات اليهودية الكبيرة فى الأندلس بعد ذلك الوقت الذى نؤرخ ابن حزم فيه ، فقد أتيح له بعد أن يكون صاحب السلطان المطلق فى غرناطة بغلبته على أميرها باديس بن حبوس . وكان صاحب مطامح سياسية كبيرة حتى « طلب أن يقيم لليهود دولة » كما يقول ابن عذارى ، مما انتهى بقتله سنة تسع وخمسين وأربعمائة [1] . ومما ذكره عنه ابن بسام أنه « ألف كتابا فى الرد على الفقيه أبى محمد ابن حزم ، وجاهر بالكلام فى الطعن على ملة الإسلام » [2] . ومن ذلك تتبين أى رجل كان ابن النغرالى هذا فى الاعتداد بدينه ، والمجاهرة برأيه ، مع علم واسع وقوة فى الجدل ، كما يصفه ابن حزم بأنه أعلمهم وأجدلهم . ولعل صلته به ، سنة ٤٠٤ ، كانت وهو شاب فى نحو سن صاحبنا ابن حزم إذ ذاك ، ولكنه كان شابا نشأ على الثقافة اليهودية وعلى التعصب لها ، وكانت منزلة أبيه يوسف عند حبوس صاحب غرناطة وما أتيح له بهذه المنزلة من أن يعلى من شأن اليهود ، حتى يستطيلوا على المسلمين ، مما جعله حريصا على إبراز مقومات هذه اليهودية ، وتحصيل التراث الإسرائيلى ، والمباهاة به ، والمناظرة فيه .

فلا ريب أن صلته بابن حزم فى ذلك الوقت ، واجتماعه به فى مجالس المناظرة ، كان من الحوافز القوية التى حفزت صاحبنا على تحصيل تلك

---

(١) البيان المغرب ٣ : ٢٦٦ ، وقد ورد الاسم هنا بهذه الصورة « ابن نغزالة » كما أنه عنده يوسف بن إسماعيل لا إسماعيل بن يوسف ، كما جاء فى الفصل فى الموضعين ، وكما فى بعض شعر المنفتل فيه (الذخيرة ١ : ٢ ص ٢٦٦)

(٢) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٢٦٩

الألوان المختلفة من المعارف اليهودية ، مع مقارنتها وتعمقها ، حتى بلغ منها ذلك المبلغ .

فهذه ناحية من النواحى التى أتيحت لابن حزم فى المرية ، وبدأ بها يمارس الجدل والمناظرة ممارسة جدية .

وناحية أخرى أتيح لابن حزم أن يلابسها فى المرية فى ذلك الوقت ، ويجد فيها مثيرا جديدا لنشاطه العقلى ، هى هذه الحركة الكلامية التى كانت ثائرة إذ ذاك فى هذه المدينة حول بعض المسائل الدينية التى كان لمذهب ابن مسرة رأى خاص فيها ؛ وكان على رأس هـذا المذهب فى المرية فى ذلك الوقت إسماعيل بن عبد الله الرعينى .

وقد عرض له ابن حزم فى غير موضع : فقد ذكره فى الباب الذى عقده عن « الكلام فى القيامة وتغيير الأجساد » ، كما ذكره فى الباب الذى جعله فى « ذكر شنع المعتزلة » ، ويصفه بأنه « كان من المجتهـدين فى العبادة ، المنقطعين فى الزهد » ، وأنه « كان عند فرقته إماما واجبة طاعته ، يؤدون إليه زكاة أموالهم » ، كما ذكر الأقوال التى كان يدين بها ويدعو إليها ، من مذهب إمامه ابن مسرة [1] ، ومما أحدثه بعده . وقد كانت الحركة التى

---

(١) انظر الفصل ٤ : ٨٠ ، ١٩٩ . أما ابن مسرة فمذهبه يحتاج إلى شىء من التحقيق ، فهو فيما يبدو مزاج من النزعة الباطنية والنزعة العقلية . وقد ذكره القفطى فى سياق كلامه عن امبيذوقليس ، ووصفه بأنه باطنى ، إذ يقول : « ومن المشهرين فى الملة الإسلامية بالانتماء إلى مذهبه محمد بن عبدالله الجبلى الباطنى . . . وهو محمد بن عبد الله ابن مسرة بن نجيح القرطبى » (ص ١٣ ، ط السعادة ، ١٣٢٦ هـ) ، كما نستطيع أن نرى ذلك فى قول صاحب المطمح عنه : « وكانت له إشارات غامضة ، وعبارة عن منازل الملحدين غير واضحة ، ووجدت له مقالات رديه ، واستنباطات مردية » =

أحدثها ابن الرعينى هذا فى المرية حركة كبيرة الخطر ، فرقت أهلها فرقتين ، فرقة تتبعه وتبالغ فى تقديسه ، حتى ليقول ابن حزم : « ورأيت أنا من أصحاب إسماعيل الرعينى المذكور من يصفه بفهم منطق الطير ، و بأنه كان ينذر بأشياء قبل أن تكون فتكون » ، وفرقة تبرأ منه وتجد فى محاربته ، حتى اضطرته إلى الاختفاء فى بجّانة ، إحدى القرى القريبة من المرية . وقد بلغ من شأن هذه الخصومة حوله أن فرقت الأسرة الواحدة ، فتابعه بعضها وخالفه البعض الآخر ، « وكان أحمد الطبيب صهره ممن برئ منه ، وثبتت ابنته على هذه الأقوال ، متبعة لأبيها ، مخالفة لزوجها وابنها » كما يقول ابن حزم . وهكذا نرى كيف كانت المرية تموج بهذه الخصومة الدينية والعقلية حين حل ابن حزم بها ، مما لا نشك فى أنه كان كبير الأثر فى إلهاب مشاعره وإثارة تطلعه ، وأنه أتاح له طائفة من مجالس المناظرة ، يستجيب فيها لنشاطه العقلى المتوثب ، ولتلك الرغبة الكامنة فى صدره ، والتى تدفعه إلى التماس الغلبة وتحقيق السيطرة ، فكان يجد فى مجالس المناظرة هذه ما يرضى هذه الحاجة النفسية الملحة .

= وكذلك يعتبره دوزى فى كتابه تاريخ مسلمى أسبانيا (٢ : ١٢٧ ط ١٩٣٢) . أما اعتزاليته ، فتبدو فى قوله بالتوحيد فيما يتعلق بصفات الله ، متابعة لأستاذه أمبيذوقليس ، على النحو الذى يشرحه القفطى ، إذ يقول : إنه أول من ذهب إلى الجمع بين معانى صفات الله تعالى ، وأنها كلها تؤدى إلى شىء واحد .. وإلى هذا المذهب فى الصفات ذهب أبو الهذيل العلاف » ، كما يظهر فى قوله بالقدر ، كما يقول ابن حزم ، إلى غير ذلك . ويصف ابن حزم الحكم بن المنذر بن سعيد أنه كان على مذهب ابن مسرة فى القدر (الفصل ٤ : ٨٠) ، ويصفه فى موضع آخر بأنه رأس المعتزلة بالأندلس (طوق الحمامة ، ص ٤١) .

وكما كانت المرية مركزاً من مراكز ذلك النشاط الذى يستمد عناصره من مذهب ابن مسرة الأندلسى ومذهب المعتزلة المشرق ومذهب الباطنية، فقد كانت فى حقيقة الأمر مركزاً من المراكز التى تتمثل فيها المذاهب الإسلامية المختلفة، ما هو أجدر بالخاصة وأهل الفكر، وما هو أدنى إلى العامة، بما يصطنع من الأساليب التى تجتذب أهواءهم وتتملق أخيلتهم الساذجة الأولية. وقد أدى إلينا ابن حزم صورة من ذلك فى سياق كلامه عن شنع المرجئة قال:

«وقال بعض الكرامية: المنافقون مؤمنون من أهل الجنة؛ وقد أطلق ذلك بالمرية محمد بن عيسى الصوفى الأليبرى. وكانت ألفاظه تدل على أنه يذهب مذهبهم فى التجسيم وغيره، وكان ناسكا متقللا من الدنيا، واعظا مفوها مهذارا، قليل الصواب كثير الخطأ. رأيته مرة وسمعته يقول: إن النبى صلى الله عليه وسلم كان لا يلزمه زكاة مال، لأنه اختار أن يكون نبيا عبدا، والعبد لا زكاة عليه، ولذلك لم يورث ولا ورث، فأمسكت عن معارضته لأن العامة كانت تحضره، فخشيت لغطهم وتشنيعهم بالباطل، ولم يكن معى أحد إلا يحيى بن عبد الكثير بن وافد، كنت أتيت أنا وهو معى متنكرين لنسمع كلامه. وبلغتنى عنه شنع، منها القول بحلول الله فيما شاء من خلقه، أخبرنى عنه بهذا أبو أحمد الفقيه المعافرى، عن أبى على المقرى»[1].

وهكذا نرى إلى أى حد كانت المرية بيئة تضطرب بألوان الثقافات

(١) الفصل ٤ : ٢٠٥.

والنزعات والآراء ، كما نرى إلى أى حد كان تطلع ابن حزم إلى الاتصال بكل ماتضطرب به هذه البيئة ، والإحاطة بكل ما يقوله هؤلاء أو أولئك ، يمد به عقله المتوثب ، ويعد به نفسه إعدادا دائبا لهذه المناظرات التى شغلته وطبعت شخصيته بطابعها ، إذ أصبح منذ ذلك الوقت رجلا جدلا ، يجد فى اصطناع الجدل ، واستشعار الغلبة فيه ، لذة تعوض عليه ما فاته من صور السلطان .

ولدينا مثل يدل على هذه الروح الجدلية التى غلبت عليه منذ هذه الفترة ، ويصور مبلغ انصرافه إليه ، حتى فيما تعارف الناس أنه ليس موضوعا للجدل ولا محلا للمناظرة ، فهو يجادل فى مسألة من مسائل الحب ، كأنما يجادل فى مسألة من مسائل الدين أو الفلسفة أو السياسة . قال :

« ولقد سألنى يوما أبو عبد الله ، محمد بن كليب ، من أهل القيروان أيام كونى بالمرية — وكان طويل اللسان جدا ، متقنا للسؤال فى كل فن — فقال لى — وقد جرى ذكر الحب ومعانيه — : إذا كره من أحب لقائى ، وتجنب قربى ، فما أصنع ؟ قلت : أرى أن تسعى إلى إدخال الروح على نفسك بلقائه ، وإن كره . فقال : لكننى لا أرى ذلك ، بل أوثر هواه على هواى ، ومراده على مرادى ، وأصبر وأصبر ، ولو كان فى ذلك الحتف. فقلت له : إنى إنما أحببته لنفسى ، ولالتذاذها بصورته ، فأنا أتبع قياسى ، وأقود أصلى ، وأقفو طريقتى ، فى الرغبة فى سرورها . فقال لى : هذا ظلم من القياس أشد من الموت ما تمنى له الموت ، وأعز من النفس ما بذلت له النفس . فقلت له : إن بذل نفسك لم يكن اختيارا ، بل كان اضطرارا

ولو أمكنك ألا تبذلها لما بذلتها ، وتركك لقاءه اختيارا منك ، أنت فيه ملوم ، لإضرارك بنفسك ، وإدخالك الحيف عليها . فقال لى : أنت رجل جدلى ، ولا جدل فى الحب يلتفت إليه . فقلت له : إذا كان صاحبه مؤوفا . فقال : وأى آفة أعظم من الحب » (١) .

ولسنا نريد أن نقف عند هذا النص لتعرف دلالاته المختلفة ، فإنما حسبنا منه هذه الدلالة التى سقناه لها . فهذا هو ابن حزم الجدل المناظر ، فى مطلع شبابه ، وهو يبدأ العقد الثالث من عمره .

وتلك صورة من حياته العقلية فى المرية ، وهى — كما رأينا — من الأسس القوية التى بنيت عليها شخصيته العلمية . وفوق ذلك فإنا نحسب أن هذه الفترة من حياته كانت كبيرة الأثر فى ذلك الطابع النفسى الذى انطبع به ، إلى جانب تلك العوامل التى أشرنا إليها ، والتى لابست المرحلة الأولى والثانية من حياته .

لم يطل بابن حزم الهدوء فى المرية ، إذ ما لبث هذا الركن من الجزيرة أن دخل فى معمعان الاضطراب الذى تعرضت له قرطبة ، منذ استعلنت الخصومة بين صاحب سبتة ، على بن حمود الحسنى ، و بين الخليفة المستعين . وقد كان ابن حمود أخذ يستشرف لعرش قرطبة ، فهو يدبر أمره ، و يصطنع الوسائل المختلفة لتحقيق مطمحه هذا ، وتقويض عرش الأمويين ، وكان من ذلك أن التجأ إلى محالفة الصقالبة ، ولا سيا كبيرهم خيران العامرى ،

(١) طوق الحمامة ، ص ٤٢ — ٤٣ .

صاحب المرية . ولم يجد خيران حرجا فى نفسه أن يسارع إلى محالفة صديقه على بن حمود ، و بذل العون له على إزالة المستعين عن مكانه ، ورد الأمر إلى هشام المؤيد ، وكان الناس ما يزالون يتناقلون أنه على قيد الحياة ، ومكن لهذه الإشاعة موت هشام الزائف قبل ، واستغل ابن حمود هذه الشائعات ، فأخرج — كما يقول ابن عذارى — كتابا نسبه إلى هشام بن الحكم يقول فيه : أنقذنى من أسر البرابر والمستعين ، وأنت ولى عهدى (١) ،

وتم الأمر لعلى بن حمود بمؤازرة خيران ، فدخل قرطبة ، وقتل المستعين ووجد هشام دفينا ، و بذلك ارتقى عرش الأندلس ، وتلقب بالخلافة ، واسترد بذلك الأدارسة فى الأندلس ما فقدوا فى المغرب .

وكان من ذلك أن أصبحت المرية التى يقيم فيها ابن حزم مدينة علوية لا أموية ، بربرية لا صقلبية . ومنذ ذلك الوقت ، بل منذ انعقدت المحالفة بين خيران وعلى بن حمود ، أصبح مكان ابن حزم فى المرية ، يكتنفه الشذوذ وتحيط به الريب ، ويثير كثيرا من القالات ؛ فهو من أسرة أموية الهوى والولاء ، معروفة بذلك ، وهو غريم البربر الذين أجلوه هو وأسرته عن ديارهم ، وشردوا بهم كل مشرد ، وهو حين التجأ إلى خيران فإنما كان التجاؤه إليه لأنه رجل من موالى العامريين ومن رجال الأمويين . كل هذه الاعتبارات جعلت مقام ابن حزم فى المرية محاطا بالشبه ، ومبعثا للشائعات ، ومثارا للتهم ، من خيران نفسه الذى كان شديد التحمس لعلى ابن حمود ، مغاليا فى التظاهر بمظاهر الإخلاص له .

---

(١) البيان المغرب ٣ : ١١٦ .

ولا ريب أن شرق الأندلس لم يكن من الممكن أن يصفو لهذه الدولة الجديدة ، أو يؤمن جانبه إزاءها ، فكان ذلك مما جعل خيران ينصب نفسه فى المرية لمناهضة كل حركة أو همسة يشتم منها روح الثورة عليها ، فلم يكن من أجل ذاك يتأخر عن أن يأخذ بالظنة . وقد كانت تلك الاعتبارات الملحوظة فى ابن حزم — بصرف النظر عما يمكن أن يكون له من نشاط سياسى — كفيلة بأن تضعه فى موضع الاتهام .

وكذلك لم يلبث ، بعد أن استقر الأمر لعلى بن حمود فى قرطبة ، أن امتدت إليه تلك اليد التى تتحسس خصومها ، فقبض عليه خيران ، وألقى به فى السجن ، وذاق ابن حزم بذلك نوعا جديدا من المحنة . وقد أشار هو نفسه إلى ذلك ، فى سياق حديث من تلك الأحاديث الطليقة ، عن بعض علاقات المودة بينه وهو فى المرية ، و بين صديق له ظل فى قرطبة ، إذ يقول:

« فكنا على ذلك إلى أن انقطعت دولة بنى مروان ... وظهرت دولة الطالبيين، و بويع على بن حمود الحسنى المسمى بالناصر بالخلافة ، وتغلب على قرطبة وتملكها ، واستمر فى قتاله إياها بجيوش المتغلبين والثوار فى أقطار الأندلس . وفى أثر ذلك نكبنى خيران صاحب المرية ، إذ نقل إليه من لم يتق الله عز وجل من الباغين — وقد انتقم الله لى منهم — عنى وعن محمد ابن إسحاق صاحبى ، أنا نسعى فى القيام بدعوة الدولة الأموية ، فاعتقلنا عند نفسه أشهرا ، ثم أخرجنا على جهة التغريب ، فصرنا إلى حصن القصر ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هذيل التجيبى المعروف بابن المقفل ،

فأقمنا عنده شهورا فى خير إقامة ، و بين خير أهل وجيران ، وعند أجل الناس همة ، وأكملهم معروفا ، وأتمهم سيادة »[1].

وهكذا انتهى مقام ابن حزم فى المرية بالسجن ، ثم النفى . وهكذا انقضت هذه المرحلة من حياته بتلك المحنة التى تركت أثرها فى نفسه ، فجعلته لا يطمئن على حال ، ولا يسكن إلى أحد ، فهو دائما قلق مستوفز .

---

(١) طوق الحمامة ، ص ١١٧ .

ولعل من القريب أن نرد إلى ذلك الوقت الذى أمضاه هو وصاحبه فى حصن القصر هذا الخبر الذى يورده فى الطوق (ص١٦) « ولقد أذكرنى هذا الخبر يوما ودعت أنا وأبوبكر محمد بن إسحاق ، أباعامر محمد بن عامر ، صديقنا رحمه الله ، فى سفرته إلى المشرق التى لم نره بعدها ، فجعل أبو بكر يبكى عند وداعه ، وينشد متمثلا بهذا البيت :

ألا إن عينا لم تجد يوم واسط ... عليك بباقى دمعها لجمود

. . . ونحن وقوف على ساحل البحر بمالقة ، وجعلت أنا أكثر التفجع والأسف ولاتساعدنى عينى ، فقلت مجيبا لأبى بكر :

وإن امرءا لم يغن حسن اصطباره ... عليك وإن فارقته لجليد

أما أبو عامر هذا ، فانظر بعض الحديث عنه فى الطوق ص ٦٩ — ٧٠ .

— ٨ —

و بعد هذه المرحلة تبدأ فى حياة ابن حزم مرحلة جديدة مختلفة كل الاختلاف عما سبقها ، و إن كانت تعتبر نتيجة طبيعية لها ، إذ هى تحقيق لما كان يدور فى نفسه ، وتهجس به خواطره ، وتحول الظروف بينه و بين الجهر به ، فهى مرحلة نشاط سياسى خالص ، غامر فيه بنفسه ، وصارح فيه برأيه وسيفه ، وإن كان نشاطا انتهى بالفشل ؛ لأن الحركة الأموية التى وضع نفسه فى خدمتها وأخذ نفسه بمؤازرتها ، كانت حركة مقضيا عليها بالفشل ، ولأن قضية الخلافة الأموية التى سارع إلى تأييدها ، مخلصا لها ، متفانيا فيها إنما كانت فى حقيقتها قضية الأهواء الشخصية لمثل خيران العامرى ومنذر ابن يحيى التجيبى ، لم يقصد بها إحياء حق أو إماتة باطل ، و إنما قصد بها — قبل كل شىء — التمهيد لمجد شخصى يرومه كل منهما لنفسه من ورائها ، فإذا بدا لهما أن ما دبراه من ذلك منتقض من هنا أو هنا ، أو متعارض مع هذا أو ذاك ، فقد أسلما الأمر للأقدار ، وتخليا عن هـذه القضية ، وذهبا يرسمان خطة جديدة ، ويدبران أمرا آخر ، أدنى إلى الظفر ، وأقرب إلى تحقيق ذلك المجد المرجوّ . وهكذا لم يغن إيمان ابن حزم شيئا بهذه القضية التى غامر بنفسه فيها ، بعد أن تكشفت عن مهزلة سخيفة ، غير جديرة بما بذل لها ذلك الرجل .

لقد كان ابن حزم — منذ اقتحم البربر قرطبة واستولوا عليها وعاثوا فيها، و بغوا بها، وأخرجوه منها — يحس أن عليه أن يعمل شيئا يشارك به فى رد الأمور إلى نصابها، وإزالة ذلك المنكر الضارب أطنابه. ولسنا نبعد أن التهمة التى اتهمه بها خيران فى المرية ونفاه من أجلها، كان لها ما يبررها، وأنه كان حقا « يسعى فى القيام بدعوة الدولة الأموية ». وهو نفسه لم ينف فى كلامه هذه التهمة عن نفسه، ولم ينكرها فى إيراده خبرها، و إنما الذى أنكره هو سعى الباغين بهلدى خيران حتى اعتقله ونفاه، أما أن هذه التهمة صحيحة أو باطلة، فذلك ما لم يعرض له. فلا علينا إذن أن نساير منطق الأمور، وأن نقرر هنا ما افترضناه من قبل من أنه فى مدة إقامته بالمرية، لم يخل من المشاركة فيما كانت تدبره وتنظر فيه وتسعى له بعض الأحزاب المناوئة لسيطرة البربر. حتى إذا قام على بن حمود، وقتل المستعين، فقد انتشر التذمر، وأخذ السعى لإقصاء هؤلاء البربر صورة جادة وأنه كان لابن حزم نصيبه الخفى فى هذا السعى.

وكذلك لم يكد يسمع وهو فى حصن القصر، عند أبى القاسم التجيبى أن تدبير الحزب الأموى قد اتخذ صورة معينة، وأن عبد الرحمن بن محمد، سليل عبد الرحمن الناصر الأموى، قد نودى به خليفة، حتى أحس أن الأمر يمسه من قرب، فاستأذن صاحبه، وركب البحر من شرق الأندلس حيث يقع حصن القصر، إلى غربها حيث يقيم الخليفة المرتضى فى بلنسية، ليكون إلى جانبه، يؤيده ويشد أزره، و يشارك بكل ما يملك فى النضال من دونه، ويحقق بهذا ذلك الغرض الذى ما زال يراوده ويلح عليه،

ويكاتمه حينا ويسرّ به حينا ، منذ خرج من قرطبة شريدا . وإنه ليأمل أن يعود بعد ذلك إلى قرطبة ، موطنه ومهوى قلبه ، إلى جوار الخليفة بعد أن يستتب له الأمر ، ويقضى على عناصر الشغب والفوضى .

وكانت بلنسية فى ذلك الوقت فى حكم رجلين من الصقالبة ، من عامتهم انتزيا عليها فى غمرة الفتنة ، هما مظفر ومبارك العامريان ، فهما يحكمانها معا ، وقد استطاعا أن يجعلا منها مدينة من المدن العامرة المرموقة . وبحسبنا فى تصويرها وبيان حالة المجتمع إذ ذاك فيها ، أن ننقل ما يورده ابن عذارى عنها ، إذ يقول :

« ولحق بهم لأول أمرهم ، من موالى المسلمين ومن أجناس الصقلب والافرنج والبشكنس عشيرتهم ، من دربوا على الركوب ، حتى تلاحق ببلنسية ونواحيها من هؤلاء الأصناف فوارس برزوا فى البسالة والثقاف ، وانفتح على المسلمين ببلاد الأندلس أمر شديد ، فى إباقة العبيد ؛ إذ نزع إليهم كل شريد طريد ، وكل عاق مشاق . وزهدوا فى الأحرار وأبنائهم ، ممن طرأ منهم عليهم ، فلم يواسوهم . وانتمت جماعة هذه الأخلاط الممتهنة الأصاغر معهم ، إلى ولاء بنى أبى عامر ، وانتفت عن نسبها ابتغاء عرض الدنيا ، فكثروا . وطلب هذان العبدان ، لما اتسعت لهم الدنيا ، فاخر الأسلحة والآلات والخيل المطهمات ونفائس الحلى والحلل ، فصارت دولتهم أسرى الدول ، ولحق بهم عريف كل صناعة ، فنفق سوق المتاع لديهم ، وجلبت كل ذخيرة إليهم . وكانا بنيا بلنسية وسدا عورتها بسور أحاط بمدينتها تحت أبواب حصينة ، فارتفع الطمع عنها ، ورحل الناس من كل قطر

بالأموال إليها ، وطمحت بسكانها الآمال . واستوطنها طائفة من جالية قرطبة القلقة الاستقرار ، فألقوا بها عصا التسيار ، وأجملت عشرتهم، فتبوءوا بها المنازل والقصور ، واتخـذوا البساتين الزاهرة ، والرياضات الناضرة ، وأجروا بها المياه المتدفقة » [1].

هذه هى بلنسية فى حكم ذينـك الأميرين اللذين يدعوهما ابن بسام « أميرى فتنة » ، بمعنى أن الفتنـة هى التى رشحتهما للامارة ، ولـكنهما كانا فى حقيقة الأمر من أهل السداد والتوفيق ، كما كان مابينهما من الألفة التامة ما أصبح مضرب المثل [2] . وقد احتفظ ابن حزم من ذلك بصورة ظلت ماثلة فى خياله ، إزاء أخلاق أهل عصره ، وإهدارهم معانى الصداقة ، ومن ذلك ما يقول : « وأقصى غايات الصداقة التى لا مزيد عليها من شاركك بنفسه وبماله ، لغير علة توجب ذلك ، وآثرك على من سواك . ولولا أنى شاهدت مظفرا ومباركا صاحبى بلنسية ، لقـدرت أن هذا الخلق معدوم فى زماننا . ولـكنى ما رأيت قط رجلين استوفيا جميع أسباب الصداقة مع تأتى الأحوال الموجبة للفرقة غيرهما » [3] .

وفى بلنسية هذه كان يقيم عبد الرحمن بن محمد ، مرشح الحزب الأموى للخلافة ، ولعلها بمناعتها ومجتمعها الذى رأينا منه صورة واضحة فى وصف ابن عذارى ، كانت أصلح مكان لمثل هذا الحزب ، يدبر فيه أمره ، ويبث

---

(١) البيان المغرب . ص ١٦٠ .
(٢) انظر فى ذلك المرجع نفسه ص ١٥٩ .
(٣) الأخلاق والسير ، ص ٤٣ .

منه نشاطه ، فى أمن وطمأنينة ، وإن كان صاحباها أقرب إلى المسالمة والموادعة ولين الجانب .

سارع ابن حزم إذن إلى بلنسية ليلقى الخليفة الذى تحوم آماله حوله ، ولعله دهش قليلا إذ شهد هنالك خيران الذى زج به بالأمس فى السجن ، ثم نفاه عن المرية ، بتهمة الانتقاض على ابن حمود ، والسعى « فى القيام بدعوة الدولة الأموية » ، وهاهو ذا اليوم إلى جانب هذا الخليفة الأموى ، يجند له الجنود ، ويحشد له الأتباع ، ويرتب له هو وصاحبه المنذر بن يحيى الجيوش ، ليسير بها إلى على بن حمود ، وينتزع مقاليد الملك منه . كان هذا ولا ريب مشهدا أثار فى نفس ابن حزم الدهشة ، ولكنه كان جديرا أن يثير فيها التشاؤم والخوف من عاقبة هذه الحملة . فهذا الذى ناصر على ابن حمود ، وبالغ فى الانتصار له والنكاية فى خصومه ، يوشك أن يغدر بالمرتضى ، إذا أحس أنه لا يحقق له مطمحه .

وسارت جيوش المرتضى ، ومعها ابن حزم ، ماضية فى سبيلها إلى قرطبة ، حتى إذا مرت بغرناطة وقفت أمامها ، وعليها فى ذلك الوقت شيخ البربر ، زاوى بن زيرى الصنهاجى ، فطلب إليه أن يبايع المرتضى ، فأبى ذلك ، وما كان له أن يفعل ، فخصومة صنهاجة للمروانيين خصومة أصيلة ترجع للمذهب كما ترجع للجنس ، ومذهب هذه القبيلة من قبائل البربر خاصة هو المذهب الشيعى ، فكيف يبايعون أمويا وينصرونه على الخليفة الشيعى القائم فى قرطبة ، وهو فوق ذلك إفريقى مثلهم . وكذلك

نشبت الحرب بين الفريقين ، وقد شارك ابن حزم فيها .

وظلت الحرب أياما ، انتهت بعدها بهزيمة الأمويين هزيمة شنيعة ، بعد أن كان خيران وصاحبه قد أضمرا الغدر بالمرتضى ، فتخليا عنه . وقد وقع ابن حزم فى أسر الغرناطيين ، ثم أطلقوا سراحه بعد قليل . أما المرتضى فلجأ حين حقت الهزيمة بقادس ، وهنالك دس عليه خيران من قتله غيلة .

وهكذا انتهت هذه المحاولة السياسية التى أتيح لابن حزم أن يشارك فيها تلك النهاية التعيسة ، وتكشفت هذه المغامرة التى غامر ابن حزم فيها وأراد بها أن ينتصر لنفسه ولأسرته ومذهبه ، وأن يرجع بها إلى قرطبة عزيزا كريما ، قد مسح الجرح الذى ما زال ينغر ، عن أقسى ألوان الفشل ، تحف بها أخس صور الخيانة والغدر .

ولكن ابن حزم أتيحت له هذه المرة أيضا تجربة جديدة جلت لعينيه من أخلاق الناس وطباعهم ما مكن فى نفسه طبيعة الحذر وإساءة الظن والتشاؤم ، وجعلته يقول بعد فى تلك الرسالة الصغيرة التى عبر بها عن تجاربه فى عبارات جامعة مركزة : « محن الإنسان فى دهره كثيرة ، وأعظمها محنته بأهل نوعه من الإنس » ، ثم يقول : « داء الإنسان بالناس أعظم من دائه بالسباع الكلبة والأفاعى الضارية ، لأن التحفظ من كل ما ذكرنا ممكن ، ولا يمكن التحفظ من الإنس أصلا »[1] .

---

(١) الأخلاق والسير ، ص ٩٢ .

ومهما يكن من أمر ، فقد انتهت هـذه المرحلة من حياة ابن حزم ، وقد انطوى على آلامه وأحزانه تؤزه أزا ، لا يدرى ما ذا يفعل ، وأنى يتوجه ، بعد أن أطلق ابن زيرى سراحه ، وخلى سبيله .

لقد كان من الطبيعى فى مثل هذه المحنة أن تمثل قرطبة أمامه ، فها هى ذى صورها تغمر خياله ، وها هى ذى مسارح صباه فيها ومراتع شبابه بها ، تتبرج له ، وتملأ قلبه حنينا غامرا ، وشوقا بالغا . لقد أخذت الرغبة فى العودة إليها تأخذ صورة عنيفة ، فهى ما زالت تستبد بنفسه وتثير أحلامه . وقد أصبحت هذه العودة ضرورة لا بد منها لقلبـه الكليم ونفسه المحزونة ، فهى التى تستطيع أن تمسح شيئا من أحزانها ، وتخفف بعض برحائها ، وتمنحه نوعا من السكون والروح والدعة ، بعد هذه القلاقل التى ما زالت به يتبع بعضها بعضا .

وكان عهد على بن حمود فى قرطبة قد انتهى بمقتله ، وبدأ أخوه القاسم عهدا جديدا . وقد جعلت تترامى إلى ابن حزم أخبار السياسة الجديدة التى اصطنعها لإشاعة روح الطمأنينة والدعة بين أهل قرطبة ، والتعفية على الآثار البغيضة التى تركتها ولاية أخيه على فى نفوس الناس ، وبلغه نداؤه «بأمان الأحمر والأسود» ، وأنه «أطفأ النائرة بولايته ، وتنسم الناس روح الرفق وباشروا ظل الأمن ، واطمأنت بهم الدار ، وأمر بإسقاط التقرية ، وأظهر البراءة منها ، وأقصى السعاة وطردهم ، وأقر القاضى والحكام والخدمة على

منازلهم » [1] ، فكان ذلك كله مما يضعف من شأن الأسباب التى كانت تعتمل فى نفس ابن حزم ، وتقعد به عن إنفاذ رغبته فى العودة إلى قرطبة ، حتى لم يعد أمامه إلا أن يستجيب لتلك الرغبة القوية الملحة .

وهكذا لم يلبث أن أخذ طريقه إليها ، ودخلها فى شوال ، سنة ٤٠٩ بعد غيبة طويلة قاربت أن تبلغ سبعة أعوام [2] .

---

(١) الذخيرة ، القسم الاول — المجلد الثانى ، ص ١٢

(٢) طوق الحمامة ص ١١١ — ١١٩

بعودة ابن حزم إلى قرطبة ثانية يبدأ فترة جديدة من حياته لا ندرى على وجه التحقيق كم امتدت ، ومتى انتهت ، ولكننا نستطيع القطع بأنها لا تقل عن خمس سنين ، ولا تتجاوز التسع .

وقد أقبل ابن حزم بعد هذا الغياب الطويل على قرطبة ، وهو يلتمس فيها شفاء نفسه ، ودواء جروحه ، وسكون روحه ، بعد هذه الاضطرابات العنيفة التى تعرض لها ، ولا سيما فى هاتين السنتين الأخيرتين ؛ فهو لا يكاد يدخلها حتى يمضى إلى مراجعة معاهد حياته الأولى ، واجترار صور صباه وشبابه فيها ، ولكنه ما يكاد يفعل حتى يحس إحساسا قويا لأول وهلة أن هذه المعاهد قد طمستها الغير وأحالها الزمان . شدّ ما تغيرت قرطبة فى هذه السنوات التى غابها عنها ! وشدما يحس الوجيعة لها تقبض صدره وتثير شجونه .

ثم ها هى ذى صاحبته التى كان يألفها فى قصر أبيه ألفة المحبة ، والتى تحدث عن جمالها ودلالها وعفافها ذلك الحديث الرائع الذى قدمناه ، إنه ما يكاد يراها الآن ، بعد عشر سنين أو دونها حتى ينكرها ، « وقد تغير أكثر محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفنيت تلك البهجة ، وغاض ذلك الماء الذى كان يرى كالسيف الصقيل والمرآة المهذبة ، وذبل ذلك النوار الذى كان البصر يقصد نحوه متنورا ، ويرتاد فيه متخيرا ، وينصرف عنه متحيرا

فلم يبق إلا البعض المنبئ عن الكل ، والخبر المخبر عن الجميع ، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها ، وعدم الصيانة التى كانت غذيت بها فى أيام دولتنا وامتداد ظلنا ، ولتبذلها فى الخروج فيما لا بد لها منه ، مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك » (١) .

فهاهي ذى صورة حبه قد أحالها الزمان ونكرتها الأيام ، وقد أنكرتها عينه حين هم بمراجعة حياته هنالك ؛ وكذلك فعل الزمان فعله بصداقة من أعز الصداقات عليه ، فأصابها ، تلك هى صداقة صديقه الكريم انوفى ، ابن الطينى ، التي نشأت وترعرعت فى ذلك العهد الناضر ، فى مجلس أستاذه أبي يزيد الأزدى المصرى ، والتى ظلت متصلة تنشر على قلبه الروح ، حتى فى أيام افتراقهما ، فهونت عليه مضاضة النفى وآلام الغربة ، فإذا كان على وشك أن يرجع إلى قرطبة ، ممنيا نفسه بلقاء ذلك الصديق ، فقد نعى إليه وهو فى بلنسية . و بذلك انهار أمل كبير من آمال قلبه ، وانطمست صورة من أعز الصور الوجدانية التى كانت تشوقه فى قرطبة .

وكذلك لم يكد يدخلها ، وإن ذكريات تلك الصداقة تغمر نفسه يجللها الحزن ، حتى مضى يحاول أن يرى صديقه هذا فى حيث كان يحيا ، وفى آثاره وتراثه الأدبى يتأمله و يتملاه و يعيش فترة معه ، لعله يتعزى شيئا به عن مصابه فى صاحبه ، ولكن حتى هذا الأمل الأخير لم يجد إليه سبيلا ، فقد حالت الأقدار بينه و بينه ، كما نفست عليه صديقه ، فانتزعته وهو يمنى النفس بلقائه ، وها هو ذا حديثه عن ذلك :

---

(١) طوق الحمامة ، ص ١١١ .

« ودخلت قرطبة ، فلم أقدم شيئا على قصد أبى عمرو ، القاسم بن يحيى التميمى ، أخى أبى عبد الله — رحمه الله — فسألته عن حاله ، وعزيته عن أخيه ، وما كان أولى بالتعزية عنه منى . ثم سألته عن أشعاره ورسائله ، إذ كان الذى عندى منه قد ذهب بالنهب ، فى السبب الذى ذكرته فى صدر هذه الحكاية (يعنى النكبة التى نكبه بها خيران فى المرية) . فأخبرنى عنه أنه لما قربت وفاته ، وأيقن بحضور المنية ، ولم يشك فى الموت ، دعا بجميع شعره ، وبكتبى التى كنت خاطبته أنا بها ، فقطعها كلها ، ثم أمر بدفنها . قال أبو عمرو : فقلت له : « يا أخى ! دعها تبق » . فقال : « إنى أقطعها ، وأنا أدرى أنى أقطع فيها أدبا كثيرا . ولكن لو كان أبو محمد (يعنيني) حاضرا لدفعتها إليه تكون عنده ، تذكرة لمودتى ، ولكنى لا أعلم أى البلاد أضمرته ، ولا أحى هو أم ميت » . وكانت نكبتى اتصلت به ، ولم يعلم مستقرى ، ولا إلام آل أمرى . فمن مراثى له قصيدة منها :

لئن سترتك بطون اللحود ... فوجدى بعدك لا يستتر

قصدت ديارك قصد المشو ... ق ، وللدهر فينا كرور ومر

فألفيتها منك قفرا خلاء ... فأسكبت عينى عليك العبر» (1)

وهكذا كانت قرطبة فى رأى قلبه حين دخلها . لم يبق من هذه الصور العزيزة التى طوى عليها صدره ، إلا أطلال دارسة ورسوم طامسة ، تهيج الألم ، فوقف عليها يبكيها ويتوجع فيها ، إنها الذكريات وحدها التى تدور برأسه ، وتتزاحم فى قلبه ، وتتواتر أمام خياله .

(1) طوق الحمامة ، ص ١١٩

ولكن ابن حزم لم يلبث — على كل حال — أن استأنف حياته فى قرطبة ، واندفع قدر ما تأذن طبيعته التى تميل إلى الاعتزال والتوحد ، نحو بيئاتها الأدبية والعلمية ، وبذلك جعل يملأ فراغه ، ويستكمل شخصيته العلمية .

ولا ريب أن الحياة الأدبية فى قرطبة كانت قد تأثرت تأثرا كبيرا بهذه النكبات التى أصابتها ، وهذه الصروف التى مازالت تتداولها وتتواتر عليها . وقد كانت تلك الصروف مازالت تضطر كثيرا من شعرائها النابهين وأدبائها البارزين إلى الهجرة عنها ، والتماس مجال نشاطهم الأدبى فى غيرها من المدن الأندلسية وقصورها الناشئة . ثم كانت هذه الشواغل السياسية المترادفة التى أخذت بأكظامها ، وملكت أمر ملوكها وسراتها مما لم يدع للشعر والأدب سبيلا فيها ، وبذلك نزل وضعف وتهافت ، فلم يعد له شىء من تلك القوة والروعة والمنزلة التى كانت له قبل عهد الفتنة ؛ فهو إما شعر عابث هازل خفيف طياش ، كشعر أبى العباس أحمد بن أبى حاتم ، وزير القاسم بن حمود [١] ، وإما شعر يعتمد على المبالغة فى التملق ، والإسفاف فى التزلف ، كشعر ابن المنفتل ، أبى أحمد عبد العزيز بن خيرة [٢] ، وإما شعر متكلف ، يستمد كيانه من الفنون اللغوية والعلوم اللسانية ، كشعر أبى القاسم ابن الإفليلى [٣] . أما الشعر الحق فلم يبق منه فى قرطبة إلا القليل الذاهب فى هذه الغمرة .

---

(١) الذخيرة . القسم الاول — المجلد الثانى ، ص ١٥
(٢) الذخيرة . القسم الاول — المجلد الثانى ، ص ١٥٩
(٣) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الأول ص ٢٤٠

وقد وصف ابن شهيد الحياة الأدبيه فى قرطبة ، فى هذه الفترة ، وصورها صورة رائعة ، وإن تكن صورة ساخرة أيضا ، فى رسالة وجه بها إلى المؤتمن العامرى ، وذلك إذ يقول فيها :

« .. لا كقوم عندنا ، حظهم من الفهم الحفظ ، ومن العلم الذكر . وهذا حظ القصاص ، وأعلى منازل النوّاح . فترى الممخرق منهم إذا قرىء عليه الشعر ، يزوى أنفه ، ويكسر طرفه ، وإذا عرضت عليه الخطبة ، يميل شقه ويلوى شدقه ، فإن تناولهما لم يبق ملحة إلا حشدها ؛ ولا أبقى عفصة لجة إلا جلبها ، وأصل قلة هذا الشأن ، وعدم البيان ، فساد الأزمنة ، ونبوّ الأمكنة ؛ وأن الفتنة نسخ للأشياء ، من العلوم والأهواء ؛ ترى الفهم فيها بائر السلعة ، خاسر الصفقة ، يلمح بأعين الشنآن ، ويستثقل بكل مكان هذا دأبنا وحربنا ، أنا طلبنا البيان ، فأدركناه بكل لسان ، والتمسنا الإبداع فأثبتنا كل معجب ، وأتينا على كل مطرب ، فما سقطنا على سوقة يهش إلينا ، ولا دفعنا إلى ملك يصبو بنا ، وليت إذ لم يكن غنم ألا يكون غرم ، ووددنا أنا برازخ : لا حرب ولا سلم ، ولا يقظة ولا حلم ، كفى بذلك إنحاء على الزمن »(١)

هذا هو الجو العام للحياة الأدبية فى قرطبة ، فى هذه الفترة التى عاد فيها ابن حزم إليها ، وأراد أن يصل ما انقطع من أساليب حياته فيها ؛ ومع ذلك فقد كانت لا تزال هنالك بقية من الشعراء المحلقين الذين عرفتهم هذه المدينة فى عهدها الماضى المزدهر ، كأبى عامر أحمد بن عبد الملك بن

---

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٧٩ .

شهيد، هذا الذى يعتصم بروحه الساخرة ، وكأبى حفص بن برد الأصفر؛ وأبى بكر عبادة بن ماء السماء ، وهم الذين احتفظوا لهذه المدينة بشيء من سمعتها الأدبية ، وأبقوا على بعض ما كان لها فى عالم الشعر والأدب الرفيع من منزلة عالية؛ وبذلك استطاع بن حزم — وقد عرفنا نشأته الأدبية ومزاجه الفنى — أن يجد فى الاتصال بهذه البقية الكريمة مايلتمسه من المتاع الروحى ، وأن يرضى بذلك نزعاته الأدبية ، وأن يسد حاجته الملحة إلى استئناف حياته الأولى

وإذا كنا لانملك الآن من النصوص ما يعيننا على تعيين صلاته الأدبية المختلفة بقرطبة فى هذه الفترة؛ فليس ينبغى أن يفوتنا النص على صلاته القوية بأبى عامر ، أحمد بن عبد الملك بن شهيد الذى رأيناه منذ قليل فى تلك القطعة الساخرة؛ وهو — وإن يكن لا يزال إذ ذاك شابا لم يكد يبلغ الثلاثين — يعد سيد شعراء قرطبة وأدبائها

والصلة بين ابن حزم وابن شهيد قديمة، ترجع إلى عهد الصبا الأول ، فقد كان أبوه عبد الملك أحد كبار الوزراء فى عهد الأمويين ، كما كان وثيق الصلة بالمنصور العامرى؛ فشأن أسرتيهما متقارب كما نرى ، وكذلك كان شأنهما فى ذلك العهد ، فكما كان ابن حزم يتردد بين دور العامريين كذلك كانت نشأة ابن شهيد ، وهو يصف هذه النشأة ويصور تلك الصلة فى إحدى رسائله التى كان يوجه بها من قرطبة إلى المؤتمن عبد العزيز بن أبى عامر ، كقوله فيها :

« وأقل ما أمت به . . . من مواتى بالمنصور جده — رضى الله

عنهما – أنى نشأت فى حجره ، وربيت فى قصره ، وارتضعت ثدى كرائمه ، واعتجرت رداء مكارمه ، وأغتذيت من فيه ، أكلا زقنيه، وماء علنيه ؛ فصرت من أفراخ نعمائه الحمر الحواصل ، ولحقت بأخوة أبنائه الغر العباهل » ، إلى غير ذلك مما يصور مبلغ هذه الصلة [1] ويجعلنا نتمثل الصبيين وقد نشآ معا ، وعقدت بينهما الألفة والصداقة منذ ذلك العهد الأول ، ولاسيا إذ كان سنهما متقاربا ، إذ لم يكن ابن شهيد يكبر ابن حزم إلا بعامين اثنين

على أننا نستطيع إلى جانب هذا أن نرى فى رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد مايدلنا على هذه الصلة القديمة بين ابن شهيد وأسرة ابن حزم ، فقد وجه القول فى صدرها إلى شخص كناه بأبى بكر ؛ وقال ابن بسام فى تقدمتها إنه أبو بكر ابن حزم . وأكبر الظن عندنا أنه أخو صاحبنا الذى سبقت الإشارة إليه [2]

وقد ظل ابن شهيد فى قرطبة لم تحمله الفتنة على مغادرتها ، كما حملت صاحبه ابن حزم ، فلما عاد إليها وأخذ يستأنف حياته الأدبية فيها كان ابن شهيد ذخره المذخور له فيها ، فكان من أعز أصدقائه الذين يحرص

---

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٦٣

(٢) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ٢١٠ ، ولاينبغى أن يعترض على هذا الفرض بأن أبا بكر بن حزم هذا مات شابا ، ففى صدر هذه الرسالة ما يدل على أن ابن شهيد كتبها كذلك وهو شاب : « لله أبا بكر ظن رميته فأصميت . . حين لمحت صاحبك الذى تكسبته ، ورأيته قد أخذ بأطراف السماء . . فقلت : كيف أوتى الحكم صبيا ، وهز بجذع نخلة الكلام فاساقط عليه رطبا جنيا » .

عليهم ، فكانا ما يزالان يتزاوران و يتبادلان الشعر والرسائل . ويحكى المقرى أن « أبا محمد ابن حزم قصد أبا عامر ابن شهيد ، فى يوم غزير المطر والوحل ، شديد الريح ، فلقيه أبو عامر ، وأعظم قصده على تلك الحال ، وقال له : يا سيدى ! مثلك يقصدنى فى هذا اليوم ؟ فأنشده بديها :

ولو كانت الدنيا دوينك لجة | وفى الجو صعق دائم وحريق
لسهل ودى فيك نحوك مسلكا | ولم يتعذر لى إليك طريق »[١]

وهذه القصة على بساطتها تصور لنا مبلغ ما كان يشعر به ابن حزم نحو ابن شهيد من صداقة قوية عميقة ، وحرص بالغ شديد على لقائه والتحدث إليه .

وقد أشار ابن خلكان فى سياق ترجمته لابن شهيد ، إلى أنه كانت « بينه و بين ابن حزم الظاهرى مكاتبات ومداعبات »[٢] . ولم يورد شيئا من هذا الذى كان بينهما من ذلك . ولكن هذه الإشارة تدلنا — على كل حال — على شىء من طبيعة هذه الصلة التى بقيت قائمة بين الرجلين ، وكل منهما أحرص من صاحبه عليها ، وأرغب فى تعزيزها واستدامتها ، وهو روح الدعابة التى تبدو لأول وهلة أمرا غريبا بالنسبة لابن حزم .

أما ابن شهيد فروح الدعابة ظاهرة أجلى ظهور فيه ، و يقول أبو مروان ابن حيان من صفته أنه « كان فى تنميق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه على سائر ذلك . . . وله رسائل كثيرة فى فنون الفكاهة وأنواع التعريض

(١) نفح الطيب ١ :
(٢) وفيات الاعيان

والأهزال ، قصار وطوال »[1] . فأما ابن حزم فنسبة الدعابة إليه تبدو أمرا غريبا ، كما قلنا ، لأن أول مايبدو منه هو هذه الحدة وصرامة الخلق ، والواقع أنه كان يخفى وراء ذلك الجد الذى يظهر لنا فى كتبه ميلا إلى الدعابة قويا ، غير أنه كان يغالبه ويقاومه ، إذ كان يكره أن يعرف به . وهو يعدّ هذا الميل إلى الدعابة فيه فيما يعد من العيوب التى لم يزل يروض نفسه — فيما يقول — على مداواتها . وهو يقول فى ذلك : «ومنها دعابة غالبة . فالذى قدرت عليه فيها إمساكى عما يغضب المازح ، وسامحت نفسى فيها ، إذ رأيت تركها من الانغلاق ، ومضاهيا للكبر »[2] . وما كان أحوج ابن حزم فى هذه المرحلة أن يستجيب لطبيعته فى المزاح والدعابة ، فذلك جدير أن يخفف عنه شيئا من عبء تلك الأحاسيس التى أرهقته بها الكوارث والأحداث .

وهكذا نرى أن الروابط التى كانت تربط ابن حزم بابن شهيد كانت روابط وثيقة ، مشتقة من الزمن الطويل ، وروح الحفاظ على العهد ، ومن النزعة الأدبية القوية ، ثم من طبيعة المزاح والدعابة ، وبذلك وجد ابن حزم فى ابن شهيد عنصراً من عناصر الروح النفسى ، فى هذه الفترة من حياته ، مما نحسب أثره كبيراً فى تسديده .

وقد ظلت علاقة ما بين الرجلين قوية إلى آخر لحظة . وليس علينا بأس هنا فى أن نخالف قليلا الخطة التي رسمناها لهذا البحث ، من مسايرة حياة ابن حزم مرحلة مرحلة ، لننظر إلى ما كان بينهما ، حين اشتدت

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٦٢ .
(٢) الأخلاق والسير ص ٣٣ .

العلة بابن شهيد ، « وغلب عليه الفالج الذى عرض له فى مستهل ذى القعدة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة » ، وكانت علة شديدة القسوة على نفسه ، وقد بقى لنا من شعره مايصور أحاسيسه لقاءها . ومن ذلك هذه القطعة التى اتجه بها إلى صديقه ابن حزم ، وهى قطعة غاية فى الروعة والصدق :

ولما رأيت العيش ولى برأسه   وأيقنت أن الموت لاشك لاحق
تمنيت أنى ساكن فى غيابة   بأعلى مهب الريح فى رأس شاهق
أذر سقيط الحب فى فضل عيشة   وحيدا وحسى الماء ثنى المفالق
خليلى من ذاق المنية مرة   فقد ذقتها خمسين، قولة صادق
كأنى وقد حان ارتحالى لم أفز   قديما من الدنيا بلمحة بارق
فمن مبلغ عنى ابن حزم وكان لى   يدا فى ملماتى وعند مضايقى
عليك سلام الله إنى مفارق   وحسبك زادا من حبيب مفارق
فلا تنس تأبينى إذا ما فقدتنى   وتذ كار أيامى وفضل خلائقى
فلى فى ادكاري بعد موتى راحة   فلا تمنعونيها علالة زاهق
وإنى لأرجو الله فيما تقدمت   ذنوبى به مما درى من حقائقى

فأجابه ابن حزم بقطعة من الشعر أورد ابن بسام منها هذه الأبيات :

أبا عامر ناديت خلا مصافيا
يفديك من دهم الخطوب الطوارق
وألفيت قلبا مخلصا لك ، ممحضا
بودك موصول العرى والوثائق
شدائد يجلوها الإله بلطفه   فلاتأس أن الدهر جم المضايق

ورب أسير فى يد الدهر مطلق ومنطلق والدهر أسوق سائق
سفينة نوح لم تضق بحلولها وضاق بهم رحب الفلا المتضايق
فإن تنج قلت : الحمد لله ، مخلصا فمن أعظم النعمى بقاء المصادق [1]

و بعد ، فهذه إحدى علاقات المودة وصلات الأدب التى أتيحت لابن حزم فى قرطبة فى هذه الفترة ، وقد استطاع أن يجد فيها عونا صادقا على حياته النفسية ، كما وجد فيها متاعا لنزعته الأدبية الأصيلة

وربما كان كثير من الشعر الذى أودعه كتابه طوق الحمامة ، وبقى لنا طرف منه فى النسخة التى بين أيدينا ، مما يرجع إلى هذه الفترة ، إلى جانب إنتاجه الشعرى الذى يرجع إلى ماقبل ذلك ، وأشرنا إلى بعضه فيما سبق . وإنه ليدلنا دلالة صريحة على أن ابن حزم ظل حريصا على صفته الأدبية ، لايغفلها ولايهملها ، وإن أخذت شخصيته تبرز بروزا قويا فى الناحية الدينية والعلمية .

(١) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الأول ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣

وليس من ريب فى أن ابن حزم ظل متابعا فى هـذه المرحلة أيضا دراساته الدينية ، وتلقيه عن شيوخ الحديث والفقه . وقد أشرنا من قبل إلى أستاذه عبد الله بن يوسف الرهونى الذى يكثر الرواية عنه كثرة ملحوظة، وقد عاش عبد الله بن يوسف هذا إلى سنة ٤٣٥ ، ولانشك أن ابن حزم قد جدد صلته به ، منذ عاد إلى قرطبة ، كما جدد صلاته بغيره ، ممن بقى من شيوخها فيها

ولـكن ابن حزم رجع إلى قرطبة رجلا ناضجا ، قوى الشخصية ، مستكمل الأداة ، وقد نشأ معتدا بنفسه ، ثم زادته الأحداث التى عرضت له ، وأفردته فى كثير من الأحيان ، اعتدادا بالنفس ، واستقلالا فى الرأى ، وكانت مجالس المناظرة التى أتيحت له فى المرية ، ونجاحه فيها ، وشهادة مناظريه له ، مما سدده فى سبيل النظر المستقل ، والرأى الذى لايخضع إلا لما يجتمع له من أدلة تقنعه ، فى مسائل الدين والعلم ، ووجه نشاطه فى ذلك هى الوجهة التى طبعت حياته العقلية والمادية بطابعها

فلم تلبث مظاهر هذه الشخصية القوية المستقلة أن أخذت فى الظهور والإعلان عن نفسها ، بعد أن عاد إلى قرطبة ، واستقرت له حياته فيها ، فلم يكفه أن خرج على المذهب المالكى السائد بين أهل الأندلس ، واصطنع

مذهب الشافعى ، حتى تجاوز ذلك تجاوزا بعيدا إلى مذهب آخر يرفض هذه المذاهب المعروفة جميعا ، إذ يخالفها فى أحد الأصول الأولى التى بنت عليها وهو القياس ، وذلك هو مذهب داود بن على الأصبهانى ، رأس المذهب الظاهرى فى الشرق [1].

والذى يعنينا هنا ، مما يدخل فى نطاق موضوعنا ، هو أن نتعرف الأسباب والعوامل التى حولت ابن حزم إلى هذا المذهب ، الذى يعد مذهبا غريبا بين أهل الأندلس ، وإن وجد بعض الأتباع له فيهم ، مع ما فى ذلك من

---

(١) هذا هو ما نرجحه فى فترة اعتناق ابن حزم للمذهب الظاهرى ، وإن كنا لا نستطيع أن نفترض لهذا تاريخا معينا ، جاهر فيه باعتناقه له . ولكن الذى نملك القطع به هو أن ذلك كان قبل تأليف طوق الحمامة فى نحو سنة ٤١٧ ، كما سيجىء تحقيقه ، وذلك إذا صح ما أورده المقرى ، أنه من كتاب طوق الحمامة قال :

« قال ابن حزم فى طوق الحمامة أنه مر يوما هو وأبو عمر ابن عبد البر بسكة الحطابين ، بمدينة أشبيلية ، فلقيهما شاب حسن الوجه ، فقال أبو محمد : هذه صورة حسنة ، فقال له أبو عمر : لم تر إلا الوجه ، فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك . فقال ابن حزم ارتجالا :

وذى عذل فيمن سبانى حسنه ... يطيل ملامى فى الهوى ويقول
أمن أجل وجه لاح لم تر غيره ... ولم تدر كيف الجسم ، أنت عليل
فقلت له : أسرفت فى اللوم ، فاتئد ... فعندى رد لو أشاء طويل
ألم تر أنى ظاهرى ، وأننى ... على ما أرى حتى يقوم دليل

ولم نجد هذه القصة فى نسخة الطوق التى بين أيدينا . ولكن ذلك لا يطعن فى رواية المقرى ، إذ كانت هذه النسخة منشورة عن نسخة عملت فيها يد صاحبها بالحذف والاختيار ، كما هو ظاهر فى العبارة التى أثبتها فى نهايتها :

« كملت الرسالة المعروفة بطوق الحمامة ... بعد (...) أكثر أشعارها وإبقاء العيون منها تحسينا لها وإظهارا لمحاسنها وتصغيرا لحجمها ، وتسهيلا لوجدان المعانى الغريبة من لفظها ، بحمد الله وعونه وحسن توفيقه) .

مواجهة الأذى والتعرض للمكروه . عندنا أن جملة العوامل ترجع إلى أصلين كبيرين ، يتصل أحدهما بمزاجه الشخصي ، ويتصل الآخر بالبيئة الدينية ومايداخلها ، وذلك إلى جانب بعض الملابسات التي كان لها — ولاريب — أثرها الحافز إلى اعتناق هذا المذهب والدعوة إليه والنضال دونه .

وتفسير المذهب الظاهري عندنا هو أنه رد فعل طبيعي للمذهب القياسي والإسراف فيه ، على النحو الذي نراه باطراد في تاريخ العلم الإسلامي فالوقوف عند النص يقابل الإسراف في تجاوزه ، والمبالغة في الاستنتاج منه وتحميله الكثير المختلف ، مما يحتمل ومالا يحتمل ، كالذي نراه في تفسير القرآن ، عند ابن عمر ثم عند ابن المسيب مثلا ، بعد أن استفاض القول في القرآن ، من تحميل آياته ماتطيق ومالا تطيق ، واجتلاب الأخبار والآراء من هنا ، والتكثر من ذلك ، لإقحامها في تفسير القرآن ؛ وكالذي نراه في رواية الحديث من تحرج قوم عن الرواية جملة ، نتيجة تكثر قوم منها ، وتجاوزهم الحدود الواجبة فيها ، واعتبارهم هذا التكثر غاية في نفسه يتحرونها

والأمر في تاريخ الفقه شبيه بذلك ، ومن هذا الباب جاء المذهب الظاهري الذي نراه أولا ، في صورة ما ، عند معتزلة البصرة ، إزاء أهل الرأي في الكوفة ، ثم لانلبث حتى نراه يتخذ صورة مذهب تشريعي كامل مستقل في القرن الثالث للهجرة ، في بغداد ، على يد أبي سليمان ، داود بن علي الأصبهاني ، بعد أن أخذت صناعة القياس تبسط سلطانها ، ويشتد إغراؤها للفقهاء ، فيذهبون بها المذاهب المختلفة في التشريع والإفتاء ، فكان

من الطبيعى أن تظهر النزعة المعارضة لذلك ، نراها عند أحمد بن حنبل فى صورة ، وعند داود بن على هذا فى صورة أخرى .

بهذا التفسير لنشأة المذهب الظاهرى نستطيع أن نفسر تحول ابن حزم إليه .

وقد أتيح لابن حزم أن يدرس « الفقه » فى مذاهبه المختلفة ، وأن يقرأ من كتب المذاهب المعتبرة طائفة غير قليلة ، نستطيع أن نعرفها فى رسالته التى أورد المقرى نصها ، فى فضل علماء أهل الأندلس ، وأن يمعن فى الأحكام التشريعية المختلفة التى جاءت بها هذه المذاهب ، ودونتها هذه الكتب ، نظراً وتأملا وتتبعا ، بتعرف مصادرها ومواردها ، وأسباب التخالف بينها ، واختلاف السبل بها ، وكيف كان هذا التفاوت البعيد فيها ، إذا كانت تصدر عن أصول لم يختلف المسلمون عليها ، وهى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الصحيحة بصحة أسانيدها ، وعدالة رواتها وناقليها ، فما بال هذا الاختلاف البعيد والافتراق الشديد إذن ؟ إنما هو القياس والرأى ، يحكمونه فى هذه النصوص ، ويمعنون فى هذا التحكيم ، فإذا هى خاضعة ، أو هى فى حقيقة الأمر خاضعة لهم هم ، إذ كان هذا القياس شيئا مختلفاً ، لا ميزانا ثابتاً عادلا ، فهم إنما يصدرون إذن فى هذه الأحكام التشريعية عن الهوى الذى يسمونه قياسا ورأيا ، ومن ذلك كان اختلاف هذه الأحكام ذلك الاختلاف المتباعد الأطراف ، وذلك التشتت الذى لا يكاد يضبطه ضابط .

« وجميع أهل القياس مختلفون فى قياساتهم ، لا تكاد توجد مسألة إلا وكل

طائفة منهم تأتى بقياس تدعى صحته ، تعارض به قياس الاخرى ، وهم كلهم مقرون مجمعون على أنه ليس كل قياس صحيحا ، ولا كل رأى حقا » . كما هو نص عبارة ابن حزم[1] .

ولا نكاد نشك فى أن هذا الفساد الذى تعرضت له الحياة الاجتماعية فى الأندلس عامة ، وفى قرطبة خاصة ، كان له أثره البعيد فى البيئات الفقهية والقضائية ، وكان القياس وما إليه من الاستحسان مركبا ذلولا طيعا ، استطاع به جماعة من هؤلاء الفقهاء أن يوائموا من أحكامهم وفتاواهم ، و بين مقتضيات الحياة الفاسدة التى اطّرحت فيها مبادئ الخلق والضمير اطراحا ، ومسخت فيها كل أصول الدين وآدابه مسخا ، وأصبح الرجل العاقل فيها هو « من حمله كل بلد ، ونفق عنـــد كل أحد » ، كما يقول أبو المغيرة ابن حزم[2] .

فمثل هذه « الوصولية » التى أصبحت خلق العصر ، وذلك النفاق الذى أصبح قوام الحياة « العاقلة » ، لايمكن إلا أن يضع ميسمه و يترك أثره على الحياة التشريعية فى قرطبة خاصة ، وقد رأينا مبلغ ما تعرضت له من ذلك . هـذا أمر طبيعى لاغضاضة مطلقا فى تقديره ، و بذلك لم يقف القياس والاستحسان واعتبار المصلحة عند الحدود التى وضعت لها ، بل اتسع فيها ، وتسومح فى رعاية الشروط المفروضة لها والقيود المضروبة عليها . وذلك أشبه شىء بالفوضى التى لاضابط لها، فكان من الطبيعى الذى يجارى

(١) كتاب المحلى ١ : ٥٨ ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ .
(٢) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الاول ، ص ١٢٩

منطق الأمور ، أن يحدث لهذا « رد فعل » كالذى حدث فى بغـداد فى القرن الثالث ، بمنع القياس البتة ، فضلا عما عداه مما هو أبعـد عن قيود النص مدى .

وكان ابن حزم أصلح من تظهر على يديه حركة رد الفعل هذه فى شكل ثابت قوى ، إذ كان — كما رأينا — رجلا عالما واسع الاطلاع على المذاهب والآراء المختلفة ، وإذ كان رجلا من أصحاب المبادىء الذين يضعون دينهم وخلقهم وضميرهم ومعتقدهم فوق كل اعتبار ، كما رأينا ذلك واضحا فى غير مناسبة ، وإذ كان رجلا صريح النفس ، مستقيم الخلق ، لاتغشيه غاشية ، ولايقوم دون ضميره حجاب . يكره المواربة ، ويبغض الالتواء ، ويمقت التأول ؛ يمضى إلى غايته قدما ، ويأخذ السبيل إلى هدفه مباشرة ، دون مداورة . ثم كان مع هذا كله شديد الثقة بنفسه والاعتداد بها والإعجاب بمواهبها ، إلى حد الغرور أو العجب الشديد ، كما رأينا ذلك أيضا ، وكما يصرح هو به فى ذكره لعيوبه التى لم يزل بالرياضـة يعانى مداواتها حتى أعان الله على أكثرها [1] .

وبعد هذا كله ، كان رجلا سيىء الظن بالناس ، وسوء الظن هذا صفة أصيلة عنده ، بل لعلها من أرسخ صفاته وأعمقها فى نفسه ، نشأت معه فى حياته المقصورة الأولى ، وقوتها الملابسات التى لابست حياته على النحو الذى رأينا طرفاً منه فى مثل صلته بخيران العامرى ، حتى كان ذلك كالطبيعة له ، فكان يقول فى أواخر حياته : « من امتحن بأن يخالط الناس فلا يلق

(١) الأخلاق والسير ، ص ٣٣

بوهمه كله إلى من صحب ، ولا يبن منه إلا على أنه عدو مناصب ، ولا يصبح كل غداة إلا وهو مترقب من غدر إخوانه ، وسوء معاملتهم ، مثل مايترقب من العدو المكاشف ، فإن سـلم من ذلك فلله الحمد ، وإن كانت الأخرى ألفى متأهبا ، ولم يمت هما »[1] كما كان يقول : « محن الإنسان كثيرة ، وأعظمها محنة بأهل نوعه من الأنس » ، « داء الإنسان بالناس أعظم من دائه بالسباع الكلبة ، والأفاعى الضارية ، لأن التحفظ من كل من ذكرنا ممكن ، ولا يمكن التحفظ من الإنسان أصـلا »[2] . وهو بذلك لم يكن يعدّ هذا الخلق عيباً من عيوبه ، بل يقره وينكر على من ينكره ، إذيقول : « وأما سوء الظن فيعده قومه عيبا على الإطلاق ، وليس كذلك ، إلا إذا أدى صاحبه إلى ما لايحل فى الديانة ، أو إلى ما يقبح فى المعاملة . وإلا فهو حزم ، والحزم فضيلة »[3] . ولسوء الظن ماله من أثر فى الحكم على الأشياء عامة ، من تجسيم العيوب وتكبير الهنات ، والنظر إلى الأعمال من جهة بعينها تفرضها هذه النزعة .

بهذا الخلق الناقم المتشائم ، وبهذه الشخصية المتعالية المترفعة ، وبهذا الطبع الصريح المستقيم الواضح ، جعل ابن حزم ينظر إلى هؤلاء الفقهاء والقضاة ، وما يستنبطونه من الأحكام ويقضون به ، فإذا هو سيء الرأى فيهم ، شديد النقمة عليهم ، وإنما هو القياس عنده الذى مكن لهم من أن

---

(١) الأخلاق والسير ، ص ٤٠
(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٢
(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٤

يقولوا فى الدين برأيهم، ويحكّموا فى كلام الله وسنة الرسول أهواءهم ، حتى كانت هذه الفوضى التشريعية فى رأيه . وهكذا أتيح لظاهرة « رد الفعل » فى هذا المجال أن تجد فيــه معبراً عنها ، فانصرف ابن حزم عن المذهب الشافعى الذى لم يخل فى اعتناقه له من مؤاخذة مواطنيه ، إلى المذهب الظاهرى الذى يرجع بالدين وأحكامه إلى ظاهر النص وحده (١) .

وبدأ ابن حزم بذلك عهداً جديداً تعرض فيه لنوع آخر من الاضطهاد ، اضطهاد الفقهاء وجمهرة رجال الدين ، استطاع أن يثبت له ، كما بدأ عهـداً جديداً من النشاط العقلى ، فى تقرير مذهبه هذا وتوطيد أركانه والدفاع عنه ، ظهرت فيــه شخصيته أقوى ظهور ، بما كان يعقده ويديره من المناظرات المتصلة العنيفة بينه وبين هؤلاء الفقهاء . وقد أمدته ملكاته العقلية وشدة مراسه وطلاقة لسانه ومتانة خلقه ، بما أظهره فى هذه الخصومة من الناحية العقلية ، وأذاع من شأنه فى البيئات العلمية المختلفة . ولعلنا نستطيع أن نتمثل صورة من هذه الخصومة فى كتابه « المحلى » ، وإن كنا لا نملك القطع

(١) هذا هو الأصل فى اعتناق ابن حزم المذهب الظاهرى ، فيما هو طريقتنا فى تفسير المذاهب والاتجاهات ، وإن كان ذلك لا يمنع أن تكون هناك ملابسات ثانوية ، كالذى أشار إليه مترجم ابن حزم فى دائرة المعارف الإسلامية من تأثير تعاليم أستاذه أبى الخيار ، وقد سبقت الإشارة إليه ، « وكان داودى المذهب لا يرى التقليد » (الصلة ص ٥٥٩ وانظر بغية الملتمس ص ٤٥٣) . وربما كان من ذلك ما كان يضمر من إعجاب وإكبار للقاضى أبى الحكم منذر بن سعيد ، « وكان داودى المذهب ، قوياً على الانتصار له » ، كما يقول هو عنه فى رسالته « فضل علماء الأندلس » (٢ : ٧٧١ ط بولاق) . وانظر فى ذلك أيضاً : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٤ . (ط دار الكاتب المصرى ، ١٩٤٨ م) .

بتاريخ وضعه ، إلا أنه يمثل لنا على كل حال موقف الرجل من مناظريه فى هذا المذهب الذى اصطنعه ، كما يمثل لنا اندفاعه فى المهاجمة دون هوادة أو مصانعة .

ولم يكن ابن حزم ظاهرى المذهب فى أمور الفقه ومسائل التشريع فحسب ، فظاهريته التى ترجع — كما رأينا — إلى أصول ثابتة من طبيعته وخلقه ومزاجه ، منفعلة بخلق عصره ، والصفات الغالبة على الحياة العقلية فيه ، فإذا كانت ظاهريته كذلك ، لم يكن من الطبيعى أن نقف عند هذه الأمور التشريعية لاتعدوها ، فهى بالنسبة له ظاهرة تتبع أسبابها وتصدر عن مقدماتها ، على النحو الذى عرضنا الآن طرفا منه . وابن حزم رجل صريح الطبع مستقيم الخلق بعيد عن الالتواء والتعقد ، كذلك كان نهجه فى الحياة ، وكذلك كانت ظواهر حياته العقلية ، تنبع من ذلك النبع ، وتسير فى ذلك المسار ، شخصية متوحدة مجتمعة لاتفكك فيها ولاتنافر بين ظواهرها . وبذلك نرى أن ظاهرية ابن حزم كانت أعمق وأكثر من أن تنحصر فى دائرة الفتيا والتشريع وأصول الفقه ، فقد وجهت آراءه فى العقائد والمذاهب الكلامية وجهتها ، وطبعتها بطابعها ، فهو ظاهرى فيها ، كما هو ظاهرى فى الفقه والتشريع . ولم تكن الفوضى فى هذه الدائرة ، دائرة العقائد ، أقل منها فى مجال الفقه ، إن لم تكن أكثر وأخطر .

وقد أجمل ابن حزم مذهبه هذا فى قوله : « وجملة الخبر كله أن تلزموا ما نص عليه ربكم تعالى فى القرآن ، بلسان عربى مبين ، لم يفرط فيه من شىء ، تبيانا لكل شىء ، وما صح عن نبيكم ، صلى الله عليه وسلم ، برواية

الثقات من أئمة أصحاب الحديث ، رضى الله عنهم ، مسندا إليه عليه السلام . فهما طريقتان يوصلانكم إلى رضى ربكم عز وجل »[1] . وهذه النصوص كافية مبينة عن نفسها بنفسها ، لاشىء من دين الله خارج عنها ، أو مستتر وراءها : « واعلموا أن دين الله ظاهر لاباطن فيه ، وجهر لاسر تحته ، كله برهان لامسامحة فيه . واتهموا كل من يدعو إلى أن يتبع بلابرهان ، وكل من ادعى للديانة سراً وباطناً ، فهى دعاوى ومخارق . واعلموا أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها ، ولا أطلع أخص الناس به ، من زوجة أو ابنة أو عم أو ابن عم أو صاحب ، على شىء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم ، ولا كان عنده ، عليه السلام ، سر ولا رمز ولا باطن ، غير ما دعا الناس كلهم إليه ، ولو كتمهم شيئا لما بلغ كما أمر . ومن قال هذا فهو كافر . فإياكم وكل قول لم يبن سبيله ، ولاوضح دليله ، ولاتعوجوا عما مضى عليه نبيكم ، صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ، رضى الله عنهم »[2] .

ودلالة هذه النصوص التى هى المرجع الأصيل فى العقيدة الإسلامية هى الدلالة اللغوية ، « وحمل الكلام على ظاهره الذى وضع له فى اللغة فرض لايجوز تعديه إلا بنص أو إجماع ، لأن من فعل غير ذلك أفسد الحقائق كلها ، والشرائع كلها ، والمعقول كله »[3] ، « ومن أحال شيئاً من

(١) الفصل ٢ : ١١٦ — ١١٧

(٢) المرجع نفسه ٢ : ١١٦

(٣) المرجع نفسه ٣ : ٣

الألفاظ اللغوية عن موضوعها فى اللغة ، بغير نص محيل لها ، ولا بإجماع من أهل الشريعة ، فقد فارق حكم أهل العقول والحياء ، وصار فى نصاب من لايتكلم معه » (١)

فالرجوع إلى النص والاعتماد عليه إنما يكون بوساطة هذه الدلالة اللغوية المتفق عليها بين أهل اللغة . وذلك ما يصر ابن حزم عليه إصرارا ، ويكرره تكرارا ، فى كل مناسبة ، وفى سياق كثير من المناقشات التى يمتحن بها آراء خصومه ، كقوله فى سياق الكلام عن تحديد معنى الجسم ، والفرق بينه و بين الشىء والحق والحقيقة والمثبت : « هذا حكم هذه الأسماء فى اللغة التى هذه الأسماء منها ، فمن أراد أن يوقع شيئاً منها على غير موضوعها فى اللغة ، فهو مجنون و قاح ، وهو كمن أراد أن يسمى الحق باطلا والباطل حقاً ، وأراد أن يسمى الذهب خشبا ، وهذا غاية الجهل والسخف ، إلا أن يأتى نص بنقل اسم منها عن موضوعه إلى معنى آخر ، فيوقف عنده ، وإلا فلا . و إنما يلزم كل مناظر يريد معرفة الحقائق أو التعريف بها ، أن يحقق المعانى التى يقع عليها الاسم ، ثم يخبر بعد بها أو عنها بالواجب . وأما مزج الأشياء ، وقلبها عن موضوعاتها فى اللغة ، فهذا فعل السوفسطائية الوقحاء ، الجهال ، العابثين لعقولهم وأنفسهم » (٢)

وفى جميع هذه الأقوال نلاحظ أنه إنما يجيز العدول عما يدل عليه الوضع اللغوى حين يكون هناك نص محيل لهذه الدلالة ، أو إجماع بصرفها .

(١) الفصل ٣ : ٢٧
(٢) المصدر نفسه ٢ : ١١٨

وقد زاد حالة ثالثة فى موضع آخر فصل فيه القول ، وهى ضرورة الحس ، وذلك إذ يقول : « إن كلام الله تعالى واجب أن يحمل على ظاهره ، ولا يحال عن ظاهره البتة ، إلا أن يأتى نص أو إجماع أو ضرورة حس ، على أن شيئاً منه ليس على ظاهره ، وأنه قد نقل عن ظاهره إلى معنى آخر فالانقياد واجب علينا لما أوجبه ذلك النص أو الإجماع أو الضرورة ، لأن كلام الله تعالى وأخباره وأوامره لاتختلف ، والإجماع لايأتى إلا بحق ، والله تعالى لا يقول إلا الحق ، وكل ماأبطله برهان ضرورى فليس بحق»[(١)]

وحسبنا هذه النصوص بياناً لظاهرية ابن حزم فى ناحية الأصول ، وقد استطاع أن يقيم هذا المذهب فى جميع المسائل الكلامية ، وأن يطبق مبادئه عليها تطبيقاً بارعاً دقيقاً ، وأن يحتج برأيه فى هذه المسائل احتجاجاً قوياً ، وأن يخاصم فيه جميع المتكلمين دون استثناء مخاصمة عنيفة ، يبسط فيها حجته بسطا رائعاً ، كما يبسط فيهم لسانه أحياناً بسطاً لاذعاً ، انتصاراً لهذا المذهب الذى اصطنعه فى الكلام ، كما اصطنعه فى الفقه . ولا نكاد نعرف له فيه هنا سلفا يقرره هذا التقرير ، ويبسط مبادئه ذلك البسط ، إنما هى بعض المسائل المفردة ، نراها عند مثل الشافعى وداود الأصبهانى[(٢)]

وهكذا وقف ابن حزم وحده هنا فى مسائل الكلام ، كما وقف وحده هناك فى مسائل الفقه والتشريع

وكان ابن حزم قد أتيح له أن يدرس المذاهب المختلفة دراسة عميقة

---

(١) الفصل ٢ : ١٣٣ ، وانظر أيضا : ٢ : ١٢٢

(٢) انظر مثلا : الفصل ٢ : ١٤٠

مفصلة ، وأن يستحضر فى ذهنه تفصيلاتها ودقائقها استحضاراً دائما ، وأن يعرف من تاريخ هذه المذاهب وسير أصحابها ما يعينه على امتلاك ناصية القول فيها ، والاستجابة لطبيعته الغلابة فى نقدها وتفنيدها وتزييفها . وإنا لنستطيع من خلال قراءة كتابه « الفصل » أن نتمثل فى يسر مبلغ مطالعاته الكثيرة ودراساته المفصلة لكتب المتكلمين من أهل المذاهب المختلفة من المشارقة والمغاربة ، كالنظام والجاحظ والباقلاني وأبى جعفر السمنانى ومحمد بن زكريا الرازى ومحمد بن الحسن بن فورك وابن مسرة ، إلى كثير غيرهم ، ولكنه كما كان يقرأ هذه الكتب بعقله الفاحص المدقق ، فقد كان يقرؤها كذلك بشخصيتها الفعالية المتشائمة ، وينظر إليها بعينه الناقدة التى تقع أول ما تقع على العيوب والمآخذ مكبرة متضخمة ، فلا جرم كان إيراده لما فى هذه الكتب من آراء ، وتوجيهه لها ، متأثراً بشخصيته ورأيه ، مطبوعاً بطابعه ، إلى الحد الذى قد يتهم فيه بتعمد التحوير والتزوير والتشويه

ومهما يكن من أمر ، فقد أخذ ابن حزم يهاجم هذه المذاهب والآراء الكلامية المختلفة ، مهاجمة عنيفة متصلة ، كلما أتيحت له الفرصة لمهاجمتها ، بل لم يكتف بمجالس المناظرة التى كانت تنعقد بينه و بين خصومه من هذه الطوائف المختلفة ، وكانت ممثلة فى الأندلس تمثيلا وافياً ، بل جعل يضع فى ذلك الرسائل والكتب ، كذلك الكتاب الذى أشار إليه فى الفصل وأضافه إليه ؛ ونحسب أنه إنما ألفه فى هذه الفترة التى تصور حياته فيها ، وهو : « النصائح المنجية ، من الفضائح المخزية ، والقبائح المردية من أقوال

أهل البدع ، من الفرق الأربع ، المعتزلة والمرجئة والخوارج والشيع »

وهذه الفرق الأربع التى كانت معروفة منتشرة فى أرجاء الأندلس فى ذلك الوقت ، كانت كل واحدة منها تنطوى على فرق مختلفة وآراء متعارضة ومذاهب كثيرة ، وإن يكن يجمعها أصل المذهب الذى تنتمى إليه ، وكل ذلك مما كان يجعل أمر الفكر الإسلامى أقرب إلى الفوضى التى لاضابط لها ، وكما قلنا ، وإلى جانب هذه الطوائف الإسلامية كانت هنالك طوائف اليهود والنصارى والملاحدة ، تضطرب بمختلف النوازع ، وشتى الآراء والأهواء ، وتصطنع فى ظهورها والتعبير عن نفسها المظاهر المختلفة والأساليب الكثيرة

كل ذلك كان يتمثله ابن حزم فى ذهنه تمثلا واضحاً متميزاً ، وقدوقف من هؤلاء جميعاً موقف الرجل المكبر لنفسه ، المعتد أكبر الاعتداد برأيه ، المؤمن أقوى الإيمان بمذهبه ، إلى الحد الذى يكاد معه يهدر كل ما عدا رأيه من آراء ، ويلغى كل ماسوى عقله من عقول . بذلك اتسمت مناظراته ومناقشاته إلى جانب ما اتسمت به أيضاً من قوة الحجة وسطوع الدليل ؛ وكما اتسمت فى أكثر الأحيان بسلاطة اللسان ، والتهجم على المناظر بألوان مختلفة من السباب والتسفيه والتكفير والتفسيق ، وهى سمة ترجع — فى بعضها — إلى ذلك الخلق الذى عرضنا بعض وجوهه ، كما ترجع إلى سبب عضوى يتصل بكيانه الجسدى ، وهو مرضه الذى أشار إليه وهو يتأمل نفسه ، ويحلل حالاته ويعللها ، فيقول : « ولقد أصابتنى علة شديدة ولدت على ربواً فى الطحال شديداً ، فولد ذلك على من الضجر ، وضيق

الخلق ، وقلة الصبر والنزق ، أمرا حاسبت نفسى فيه ، إذ أنكرت تبدل خلقى ، واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى ، وصح عندى أن الطحال موضع الفرح إذا فسد تولد ضده »[1] فلعل ذلك المرض كان من الأسباب التى وسمته فى مناظراته بتلك السمة التى ينكرها الكثير منا .

ومهما يكن من أمر ، فهكذا كان شأن ابن حزم فى خصومته العلمية والدينية ، وفى موقفه من علماء عصره ، سواء الفقهاء والمتكلمون ، وسواء المسلمون وغير المسلمين ، وذلك أول ما يحسه الناظر فى كتاب ككتاب الفصل ، وقد كان ذلك — ولا ريب — من أول ما أفسد بينه و بين معاصريه ، وأثار عليه الزوابع والأعاصير .

وهكذا انصدع ما بين ابن حزم وأهل عصره ، وما زال هذا الصدع يتفاقم و يتسع منذ ذلك ، وما زالت الأعاصير تأخذه من كل جانب ، وهو ماض فى سبيله لايكاد يعبأ بها ، فهو يرى نفسه موكولا إليه محاربة هذه المذاهب والآراء ، وإذاعة المذاهب الذى يراه المذهب الحق ، وأنه بأداء هذه الرسالة يحقق نفسه ، وأن إيمانه بنفسه على هذا الوجه يجعله لايقيم وزنا لإنكار الناس وما يثيرونه عليه ، وما يحيطونه به من تشيع عليه وتنفير منه ، بل إنه ليرى فى موقفه من إنكار الناس فضيلة من أكبر فضائله ، ونقيبة من أجل ما يجب أن يحرص عليه من نقائبه ، « وهو اطراح المبالاة بكلام الناس ، واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل » على حد تعبيره وكما يقول فى هذا الموضع نفسه : « من حقق النظر ، وراض نفسه على

(١) رسالة الأخلاق والسير ، ص ٨٧ — ٧٨

السكون إلى الحقائق ، وإن آلمتها فى أول صدمة ، كان اغتباطه بذم الناس إياه ، أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه »[1]

فهو إذن لا يكتفى بعدم المبالاة بإنكار الناس عليه ، بل يلذ ذلك الإنكار ويستشعر الغبطة به .

وبعد ، فهذه صورة موجزة من حياة ابن حزم العقلية فى هذه المرحلة من حياته ، ومنها نرى كيف بعد المدى بين حالته ، وهو مقبل على قرطبة فى كثير من الشغف والنهم والحنين ، وحالته وهو منصرف عنها ، بعد أن لابس هذه البيئات ، فملأت نفسه خيبة ، وانبت ما بينه وبينها

---

(١) رسالة الأخلاق والسير ، ص ١٣

- ١١ -

لم يكن نشاط ابن حزم خـلال هذه المرحلة خالصاً كل الخلوص لهذه الألوان من النشاط الأدبى والدينى والعقلى ، بالرغم من استغراقه فيها . فإن هذا الاستغراق لم يصرفه تماماً عن السياسة ، والتفكير فى أمر الحكم ، منذ استقر فى قرطبة ، وجعلت نفسه تثوب إليه ، وأخذت تجتمع فيها ثانيـة أحلامه المبعثرة وآماله المتناثرة ، فإنه ليرنو بعينيه إلى ذلك اليوم الذى يعود فيه الحق إلى نصابه ، ويرجع أمر السلطان فيه إلى بنى أمية ، ويدال لهم من هؤلاء الحموديين الدخـلاء على الأندلس ، الواثبين على عرشها عدواناً وظلماً ، الغاصبين له فى غفوة الأيام ، هؤلاء الشيعة الذين ملئوا قرطبة بالسودان والبربر ، يسودونها ويتحكمون فيها ويركبون أهلها بأنواع العسف

وإذا كان الأمان الذى بذله القاسم بن حمود قد أتاح له أن يعود إلى قرطبة ، ويستقر فى موطنه ، ويضع حداً لحياة الخوف والقلق والاضطراب والتشرد التى سيطرت عليه زمانا ، ومكن له من أن يفرغ لدراساته وقراءاته ومناظراته ، وهذه الرسالة الدينية والعقلية التى يراها منوطة به ، موكولة إليه ، إذ كان قد أتيح له ذلك كله بفضل إمامه القاسم بن حمود ، وفى ظل سياسته الرخية الرضية ، وإغضائه عن خصومه السياسيين وتسامحه معهم ، فما كان ذلك ليجعله يهدر آماله السياسـية ، ويرجع عن رأيه وأمويته ،

فأمويته أعمق وأرسخ من أن تخدع عن حقيقتها بشيء من ذلك ، وأجل من أن ترضى بحكم هؤلاء العلويين وعمالهم وقوادهم من السودان والبرابرة وأهل العدوة الأخرى .

ولا ريب أن ابن حزم كان على اتصال بجماعة الأمويين فى قرطبة ، يشاركهم فى السعى والتدبير ، حتى إذا ضعف أمر القاسم ، واضطرب الحبل فى يده ، « وتسلط عليه البرابرة ، حتى احتقروه » كما يقول ابن حيان ، فقد أخذت آمال ذلك الحزب الأموى تنتعش ، وجعل الأمل يمثل أمامه : لقد أراد القاسم أن يخلص من سلطان هؤلاء البربر الذين جعلوا يعبثون به فأحل السودان محلهم ، يضرب هؤلاء بأولئك ، وما كان إلا عرشه يضرب به . فقد أحنق البربر صنيعه ، فأخذوا يتآمرون عليه مع ابني أخيه يحيي وإدريس . فما إن أحس بهذه المؤامرة ، وشعر أنها تضيق الخناق عليه ، حتى رأى من الحكمة أن ينجو بنفسه ، ويدع قرطبة ، فهرب منها إلى أشبيلية ، سنة ٤١٢ ولكنه إنما هرب منها ليجيء ابن أخيه يحيي فيجلس على عرشها . وإذا كان الوقت لم يكن قد حان بعد للحزب الأموى لكى يضرب ضربته ويبلغ أربه ، فقد كانت الأمور سائرة فى سبيل ذلك ، بتفرق الحموديين هذه الفرقة ، وانحلال أمرهم ذلك الانحلال . فلم يطل المقام بيحيي حتى تزلزل عرشه هو أيضاً ، حين رأي نفسه وحيداً فى قرطبة ، قد تفرق عنه السودان والبربر جميعاً ، فآثر العافية ، والتمس الأمن لنفسه ، وترك قرطبة كما تركها عمه من قبل ، منذ عام وبعض عام ، واتخذ سبيله إلى مالقة ، ولكن الأمر لم يكن ثم بعد للأمويين . فعاد القاسم مرة أخرى .

وفى خلال ذلك كان الحزب الأموى بقرطبة يقوى ويشتد ، وكانت هذه الصدوع التى أصابت بناء الحموديين قد كثرت واتسعت فاستطاع ذلك الحزب أن ينفذ إلى غرضه منها ، فيعيد العرش إلى أصحابه من بنى أمية ، ويطرد عن البلاد هؤلاء الدخلاء من السودان والبربر ، الذين نكّروا وجهها ، وأمرّوا عيشها ، وأفسدوا الحياة فيها ، وسلطوا عليها الفزع والخوف زمناً غير قليل

وهكذا لم يلبث القاسم الحمودى أن أحس بثورة به ، فى عام ٤١٤ ، ثورة انتهت بخلعه ، « فارتفعت بزواله عن قرطبة دولة آل حمود ، بعد وقعة للبرابرة على أهلها بالمرج ، باد فيها جماعة منهم ، ثم انصرفت الكرة على البرابرة ، فقتلوا قتلا ذريعا ، وارتحلوا عن قرطبة ، وجاء القاسم مغلولا إلى أشبيلية » [١]

وإذا كنا لا نعرف أى دور كان يؤديه ابن حزم فى مناهضة الحزب الأموى للحموديين وثورته عليهم ، فإن ما نعرفه من مشاركاته السياسية من قبل ، ومن رأيه فى الأموية واعتزازه بها ودفاعه فى كل مناسبة عنها يجعلنا نفترض أن مكانه من ذلك الحزب لم يكن بالمغمور ، وأنه أخذ بنصيبه فى هذه الحركة التى انتهت بسقوط الأسرة الحمودية ، لإعادة الأمويين إلى عرش الأندلس ، بعد ذلك العهد الطويل

وهكذا استشرف ابن حزم مرة أخرى إلى هذا الحلم الذى مازال يراود خياله منذ تلك الفتنة الكبرى التى قذفت به ، من عشر سنوات ، خارج

---

(١) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الثانى ، ص ١٧

قرطبـة ، وشردته بين شرق الأندلس وغربها : وهو أن يرى بالأندلس دولة أموية قوية ، تحيي ذكرى تلك الدولة التي ظل محتفظاً بها في ذاكرته ، ويقوم عليها رجل يمثل الحزم النافذ ، كما يمثل العقل البصير والذهن المستنير والذوق المرهف الدقيق .

ولـكن وا أسفاه ! هيهات هيهات ! فإنما تلك تعـلاّت أو علالات فقـد انتهى عهد الأمويين في الأندلس إلا تلك الومضات الخاطفات ! .

وقد كان جـديراً بابن حزم أن يعرف ذلك حق معرفته ، فهو يرى بقايا الأمويين من سـلالة تلك الأسرة ، وقد ضعفوا وهانوا ، وقل فيهم من يمكن أن يتوسم فيه الخير ، ويرجى منه القيام بهـذا الأمر ؛ ولـكن رغبة ابن حزم القوية وحفاظه الشديد للأموية ، غلباه على أن يرى ذلك .

وقد ومضت الأموية ومضة سريعة خاطفة ، عقب سـقوط الدولة الحمودية ، لم تعد سبعة وأربعين يوماً ، ولي فيها الخلافة عبد الرحمن بن هشام الناصري ، ولقـد لقب بالمستظهر . وكان كما يصفه ابن حيان « لبقاً ذكيا ، وأديباً لوذعيا ، لم يكن في بيته يومئـذ أبرع منه منزلة . وكان قد نقلته المخاوف ، وتقاذفت به الأسـفار ، فتحنك وتخرج وتمرن فيها » [1] ويصفه في موضع آخر بقوله : « وكان على حداثة سـنه ذكيا يقظا ، لبيبا أديباً ، حسن الكلام ، جيد القريحة ، مليح العبارة ، يتصرف فيما شاءه من الخطابة : بديهة وروية ، ويصوغ قطعا من الشعر مستجادة . وقـد اقتضب بحضرة الوزراء في أيامه عدة رسائل وتوقيعات لم يقصر فيها عن

(١) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الأول ، ص ٣٤

الغاية ، يزين ذلك بطهارة أثواب وعفة وبراءة من شرب النبيذ سراً وعلانية ؛ وكان فى وقته نسيج وحده ، ختم به فضلاء أهل بيته الناصريين. فلم يأت بعده مثله» (١)

بمثل هذا الشاب المثقف تلك الثقافة الأدبية الرفيعة ، المهيأ تلك التهيئة النفسية الممتازة ، كانت تتعلق آمال الحزب الأموى عامة ، وآمال رجل كابن حزم خاصة ، فى استحياء الدولة الأموية ، واستعادة ذلك المجد القديم ، ثم فى تمثيلها لتلك المثل الرفيعة التى كانت الدولة تعنى بها من قبل عناية خاصة ، فى أيام الناصر والمستنصر وابن أبى عامر ، من رعاية الأدب وحماية العلم ، فقد كان بتلك الصفات التى عرف بها ، وصار من أجلها الوحيد بين سلالة الأمويين ، جديراً بتحقيق ذلك ، إلى جانب طهارة ثوبه وبراءة دخيلته ، وبعده عن الدنايا والسفاسف التى استهترت بها هذه البقايا الأموية ، حتى صارت سمة كل أموى فى الأندلس

وكذلك أراد المستظهر أن يسبغ على دولته وعلى قصره صبغة أدبية تلائم نزعته الخاصة ، فاتخذ وزراءه وحاشيته من رجال الأدب ، من أهل السابقة . فكان منهم صاحبنا أبو محمد بن حزم ، وابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم، وأبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، كما كان منهم أيضاً الشاعر البارع حسان بن مالك بن أبى عبدة (٢) ، والكاتب الرائع ابن برد ، « واشتغل مع ابن شهيد وابنى حزم بالمباحثة فى الآداب

(١) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الأول ، ص ٤٠

(٢) انظر نفح الطيب : ٢ · ٣٧٠ (ط أوربا)

ونظم الشعر » كما يقول المقرى [1] . وقرت عين ابن حزم بهـذا الظفر ، وبرؤية هذه الدولة الأموية ماثلة فى الحياة ، وإن تكن محـدودة الأفق ، ضيقة الموارد ، وبأن يكون إلى جانب هذا الشاب المترف الدقيق الحس ، الطامح إلى استحياء تلك التقاليد الأموية القديمة التى رفعت شأن الأندلس وأذاعت صيتها فى العلم والأدب

وما كان يدور بخلد ابن حزم ، وهو فى نشوته الغامرة ، أن هذا الاتجاه الأدبى الذى اتجهت إليه الدولة الجـديدة ، كان من العوامل التى ساعدت على انتهائهـا وشيكا ، وعلى انقضاء حياة ذلك الشاب الطموح . لقد كان الفساد الذى عم قرطبة ، والإسفاف الذى غلب عليها وتغلغل فيها يأبى أن تقوم فيـه دولة مثل هذه الدولة تقيم مثل هذه المثل الرفيعة ، فلم يلبث أن أصبح قصر المستظهر ودولته الجديدة أحدوثة منكرة ، فقد كان تقريبه لهذه الطبقة من الأدباء ، ممـا أحقد عليه مشايخ الوزراء والـكبراء كما يقول المقرى ، فجعلوه مضغة فى أفواههم ، ومضى خصومه والحاقدون والمزورون يستغلون اختياره لهؤلاء ، فيملؤون الجو تشهيراً به وتشنيعاً عليه « فأبو عامر ابن شهيد ، فى رقته وبراعتـه وظرفه ، خليعها المنهمك فى بطالته ، وأعجب الناس تفاوتا ما بين قوله وفعله ، وأحطهم فى هوى نفسه ، وأهتكهم لعرضه ، وأجرؤهم على خالقه » ، كما يقول أبو حيان فى ذلك السياق [2] ، أما ابن حزم « فهو المشهور بالرد على العلمـاء » وكفى بذلك

(١) نفح الطيب ١ : (٢٣١ ط بولاق)
(٢) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الأول ، ص ٣٦

تشهيراً به ، « وابن عمه عبد الوهاب الغزل المترف فى حالته » .

وهكذا كانت هذه الصبغة الأدبية التى أراد بها المستظهر أن يرفع بها من شأن دولته وبالا على هذه الدولة ، لا أقول إنها هى التى قوضتها ، فالواقع أن العوامل المحيطة بها كانت بحيث لاتدع لهـا شيئاً من قوة تدفع عنها أو تمسكها ، ولـكنى أحسب أنها كانت من الأسباب التى عجلت بمصيرها ، فلم تلبث الكارثة أن وقعت ، وقتل المستظهر ، وانتهى ذلك الحلم الجميل الذى تبرج لابن حزم فترة من الزمن .

وقتل المستظهر مظهر من مظاهر الفساد المتغلغل أشد التغلغل ، ودليل على ما انتهت إليه هذه الأسرة الأموية فى الأندلس ، فقـد انتقل العرش إلى أموى آخر ، فـكأن ذلك القتل كان لحسابه ، وكفى بهذا انحلالا وتفككا وإدبارا .

و إذا كانت الخلافة ظلت بعد المستظهر أموية ناصرية ، إذ تحولت إلى محمد بن عبد الرحمن الناصرى ، الذى اتخذ لنفسه لقب « المستكفى » ، فمـا كان أبعد ما بين الرجلين ، وشتان ما بين النقيضين ! وقد رأينا صفة ابن حيان للمستظهر ، وها هى ذى صفته للمستكفى ، قال : « ولم يكن هذا المستكفى من هذا الأمر فى ورد ولا صدر ، إنمـا أرسله الله تعالى على أهل قرطبة محنة وبلية ، إذ كان منذ عرف غفلاعطلا منقطعاً إلى البطالة ، مجبولا على الجهالة ، عاطلا من كل خلة تدل على فضيلة ، عضته الفتنة فأملق ، حتى استجاز طلب الصدقة . . . وبالجملة فى تلخيص التعريف بأمره ، أن أجمع

أهل التحصيل أنه لم يجلس فى الإمارة مدة تلك الفتنة أسقط منه ولا أنقص، إذ لم يزل معروفاً بالتخلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيم السر والعلانية ، أسير الشهوة ، عاهر الخلوة ، ضدا لقتيله عبد الرحمن المستظهر فى الأدب والمعرفة » (١)

ومن هذا نعرف أى نكسة شديدة أصابت الخلافة الأموية فى الأندلس ، وأصابت آمال ابن حزم التى لم تلبث أن تطلعت حتى ارتدت حسيرة مقهورة . وما قيمة أن تكون الخلافة أموية إذ كان ممثلها والقائم عليها هذا النكس المتخلف ؟ و إذا صارت مقاليد أمورها إلى أراذل الناس ، وأصحاب الطبقة الدنيا من العامة والخدمة وزعانف الكتاب ، على حد تعبير ابن حيان . ما لهذا كان ابن حزم يسعى و يتطلع .

ومن الطبيعي أن لم يعد لصاحبنا مكان فى دولة المستكفى هذا ، ولعله لم يكن يرجو أكثر من أن يترك لشأنه ، لا عليه ولا له . ولكن المستكفى لم يلبث أن أحس بتغيير الأحوال فى قرطبة ، واضطراب الجو فيها ببعض التيارات التى أخذت تهز عرشه ، وأن هناك مؤامرة تدبر ضده مع يحيى بن حمود فى مالقة ، وتوشك إن لم يأخذ للأمر عدته فيما يقدر أن تهب عليه فتقتلعه ، فجعل يصطنع أساليب العنف ، يأخذ بها من يكون فى طريق اتهامه ، وكان أول هؤلاء عنده أصحاب سلفه وشيعة قتيله المستظهر ، فسجن من سجن ، وقتل من قتل ، إلا من لم تظفر به يده ، كأبى عامر ابن شهيد ، الذى نجا بنفسه فاراً إلى مالقة ، وكان من بين من قذف بهم

(١) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الأول ، ص ٣٨٠

فى ظلمات المطبق صاحبنا ابن حزم وابن عمه عبد الوهاب . وهكذا امتحن ابن حزم بالسجن مرة أخرى ، وكانت محنة جديدة من سلسلة المحن التى تعرض لها .

ولا ندرى كم لبث ابن حزم فى السجن ، ولكن عهد المستكفى لم يطل على كل حال ، فلم يلبث أهل قرطبة ، هذه المدينة الثوارة ، أن ضاقوا به ، وثاروا عليه ، فقتلوا وزيره وأحدقوا بقصره ، يريدون أن يظفروا به ويقتلوه ، لولا أنه استطاع أن يتسلل من القصر هارباً متنكراً ، وبذلك انقضت أيام هذا الخليفة ، فى سنة ٤١٦ ، بعد سبعة عشر شهراً ، وأتيح لابن حزم أن يخرج من سجنه . ولكن قرطبة كانت إذ ذاك فى أشد حالات الفوضى ، لا حاكم فيها ، ولا ضابط لها ، ولا وازع يزع أهلها . فإذا أقبل عليها من يريد أن يضبطها ويحكمها من لدن يحيى الحمودى ، فإنه لا يلبث أن يرى الثورة تعصف به ، وإذا جاءها بعد ذلك خيران ، صاحب المرية ، ومجاهد صاحب دانية ، وقد تعاقدا على أن يكونا حليفين فى حكمها ، فإنهما لا يلبثان أن يتركاها الواحد بعد الآخر ، والفوضى مسيطرة عليها ، والفتنة تعيث فيها .

ولسنا ندرى على التحقيق ماذا صنع ابن حزم بعد خروجه من السجن أقام فى قرطبة أم تركها ملتمساً مقاماً له فى غـيرها ، وهل ظل على صلته بالسياسة والحزب الأموى ، أم انصرف عنها ، بعد أن يئس منها ، ورأى ألاّ خير يرجى من المشاركة فيها ، وألا جدوى من هذه المحاولات لاستحياء تلك الدولة ؟

أما العلامة دوزى فيذهب هذا المذهب الأخير ، ويرى أن ابن حزم ودع السياسة بعد المستظهر الوداع الأخـير ، وانصرف انصرافا تاماً عن مظاهر المجد الدنيوى ، وجعل يلتمس العزاء والسلوى ونسيان الماضى فى الدرس والهدوء والعبادة [١] . وأما ياقوت فينقل أنه بعد أن وزر للمستظهر ، كان وزيراً « لهشام المعتد بالله ، بن محمـد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، ثم نبذ هذه الطريقة ، وأقبل على قراءة العـلوم ، وتقييد الآثار والسنن » [٢] . وهذا الذى يورده ياقوت إنمـا ينقله عن كتاب « أخبار الحكماء » لصاعد بن أحمـد الجيانى الأندلسى ، وهو معاصر لابن حزم . فقد ما بين سنتى ٤٢٠ و٤٦٢ ، وكان — فوق ذلك — أحـد تلاميذه

(1) Hlistoire des Musulmans d'Espagne Jusqu'à la Conquête del'Andalousie par les Almoravides 2 : 333

(٢) معجم الأدباء ١٢ : ٢٣٧ (ط . دار المأمون)

الذين ردوا عنه ، كما ينص على ذلك ابن بشكوال فى ترجمته له . وهو يصفه فيها بأنه « كان متحريا فى أموره » ، وأنه « كان من أهل المعرفة والذكاء والرواية والدراية »[1]

وإذ كان من حفظ حجة على من لم يحفظ ، كما يقول منهج البحث فليس لنا إلا أن نقبل قول صاعد هذا الذى أداه إلينا ياقوت ، مالم يقم دونه ما يعترضه ويمكن أن يبطله ، ولاسيما إذ كان صاعد — كما رأينا — ثقة يمكن الركون إليه ، مع مايعضده فى هذا من المعاصرة التى هى من أقرب وسائل المعرفة . وليس هناك — فيما نعلم — ما ينص على أن ابن حزم اعتزل السياسة بموت المستظهر ، فقطع مابينه و بينها منذ هذا التاريخ ، كما يذهب إليه العلامة دوزى ، دون أن يطلع — فيما نرجح — على ما نص عليه صاعد ، ونقله عنه ياقوت

والحق أنه ليس لدينا من دليل على ولاية ابن حزم الوزارة للمعتد ، غير هذا النص . ولكن مهما يكن من أمر فلسنا نملك أن نغفله إغفالا تاماً أو قريباً من التمام فى أخباره وآثاره ، فلعل فيما ضاع منا أو غاب عنا من ذلك ما يمكن أن يؤازر ذلك القول و يعضده ويفصل مجمله

وإذن فلا بد لنا الآن من قبول هذه الرواية ، على أى وجه من الوجوه ، حتى يثبت لدينا ما ينقضها ، وعلى ذلك فقد ظل ابن حزم بعد خروجه من سجن المستكفى محتفظاً بنزوعه إلى المشاركة فى الحياة السياسية مستأنفاً نشاطه السياسي ، على المذهب الذى ما زال مؤمناً به أشد الإيمان

---

(١) الصلة ص ٢٣٤

وأعمقه ، وهو أحقية الأمويين للخلافة ، بالرغم من كل ما حدث ، و بقى — كما كان من قبل — عضواً عاملا فى الحزب الأموي ، وقد كان هذا الحزب الذى ما زال عرضة للكوارث المختلفة ، ولأسباب التثبيط والخيبة ، يتلفت هنا وهنا باحثاً عن شخصية أموية جديدة جديرة أن يركز فيها نشاطه ، ويحقق بها آماله ، فيضعها على عرش قرطبة ، وينوط بها إمامة المسلمين ، ويجعلها الخليفة الشرعى فى البلاد الأندلسية ، يضبط الأمور بحزمه وحكمته ويقضى على ذلك الاضطراب العنيف الغامر الذى ساد قرطبة ، ومازال ينشر فيها الفزع والقلق والهرج والمرج الذى لاتستقيم معه حياة

وقد كان الاهتداء إلى مثل هذه الشخصية التى تستطيع أن تضع الأمور فى نصابها أمراً عسيراً بعيد المنال ، بعد أن تفسخت الأسرة الأموية وأصبحت بقاياها المبعثرة بين فاجر مسرف فى اللهو والمجانة ، منصرف إلى العبث والخلاعة ، على نحو ما كان عليه المستكفى ، و بين ضعيف مقصوص الجناح مهيض الجانب خافت الصوت ، كما كان المستظهر ، وكان أمثل أسرته جميعاً . ولكن لم يكن بد من إيجاد هذه الشخصية قدر ما يمكن ، وأخيراً وقع الاختيار على ذلك الأمير الأموى ، هشام بن محمد بن عبد الملك ابن عبد الرحمن الناصر . ولعل أكبر ما كان يرشحه للخلافة أنه أخو الخليفة المرتضى الذى قتل دون الخلافة ، ففى استخلافه إحياء لذكراه ، ثم كان مما يزكيه أنه كان قد جاوز فى ذلك الوقت سن الكهولة ، ودخل فى دور الشيخوخة ، فهو وإن « كان معروفاً بالشطارة فى شبابه » كما كان

شأن ذلك الجيل من شباب الأمويين ، إلا أنه « أقلع مع شيبه ، فرجى فلاحه » كما يقول ابن عذارى[1]

وكان هشام ، بعد هزيمة أخيه ومقتله في غرناطة ، وبعد أن ظل مشرداً حيناً ، قد آوى إلى قرية حصينة من قرى بلنسية تسمى البونت (Alpuente) ، يلتمس فيها العزاء والسلوى ، ويستشعر فيها الهدوء والروح ، ويظفر فيها بالأمن والطمأنينة ، في جوار صاحبها الأمير عبد الله بن قاسم الفهرى ، وهو الذى أجاره وضيفه ، بعد أن أنكره العامريون وزهدوا فيه ، على حد تعبير ابن عذارى

اتجه الحزب الأموى إلى ذلك الأمير ، إذ قدر أنه واجد فيه الخليفة الجديد بما عقد عليه من أمل وناط به من رجاء ، أما صاحبنا ابن حزم فلا ندرى على وجه التحقيق ماذا كان موقفه إزاء ذلك الاختيار ، وإن يكن أكبر الظن عندنا أنه كان راضى النفس به ، مطمئن الخاطر له ؛ فعلاقته بأبى بكر هشام بن محمد علاقة قديمة ، وقد جمعت بينهما تلك المحنة التى تعرضت لها الخلافة الأموية منذ عشر سنين ، أمام أسوار غرناطة ، وإزاء جنسد صنهاجة ، وكانا جميعاً إلى جانب الخليفة المرتضى ، يقاتلان معه ، ويؤازرانه فى الدفع عن الخلافة الأموية الممتحنة . وقد شهدا معا مصرعه دون ذلك الغرض الأسمى ، وكل ذلك من شأنه أن يربط بين قلبيهما برباط وثيق ، وسنرى بعد قليل مصداق ذلك فى قصيدة من الشعر يمدحه بها . فلا جرم كان ابن حزم جديراً بأن يكون مطمئن النفس إلى ترشيح

---

(١) البيان المغرب ٣ : ١٤٧

مثل ذلك الرجل ، ففى ولايته الخلافة إحياء لذكرى ذلك الخليفة المنكود ، كما أن فيها إحياء لذلك الأمل الذى كان يملأ نفس ابن حزم ، فأخمدته الأقدار ، وطمسته ظروف الزمان .

ذلك هو — فيما نقدر — موقف ابن حزم من ذلك الترشيح . ومن يدرى فلعله بهذه العلاقة الوثيقة التى كانت تربطه بأبى بكر ، كان ذا أثر كبير فى توجيه جماعة الحزب الأموى إليه ، واختيارهم له .

أما كيف كانت صلته به بعد أن استخلف — وكان قد اتخذ لنفسه لقب المعتـد — وعلى أى وجه كانت وزارته له ، وهل كان ذلك فى البونت أم فى قرطبة — فقد ظل الرجل منذ بويع بالخلافة مقيما فى البونت مدى عامين ، حتى سنة ٤٢٠ ، إذ انتقل إلى قرطبة ، وظل بها إلى أن خلع عام ٤٢٢ — فذلك مالا سبيل لنا إلى القول فيه ، إذ ليس لدينا — كما قلنا — إلا ذلك النص الذى نقله ياقوت عن صاعد .

على أن ما نعرف عن خلافة المعتد وملابساتها يجعلنا نأخذ وزارة ابن حزم له بأقل معانيها ، وأدنى صورها ، فلا نراها امتدت أو اتخـذت شكلا جدياً . ذلك أن المعتد كان فى خلافته واقعاً تحت تأثير وزير له من وزراء ذلك الزمان ، قالوا إنه كان حائكا من أبناء الزعانف ، « لم تكن له سالفة شرف ، ولا جاه متقدم ، يعرف بحكم بن سـعيد القزاز » ، وكان سلطان هذا الوزير عليه سلطاناً مطلقاً ، صوره ابن عذارى بقوله : « ... فقلد هشام حكما القزاز جملة تلك الأعمال ، وأطلق يده فى المـال ، فجرى مجرى

أعاظم الوزراء المستبدين على فتية الملوك فى سالف الأزمنة ، فحجر هو على هذا الخليفة فى سن الشيخوخة ، بطبق ومائدة ، كانا طباق همته الكاسدة عكف عليهما راضيا بأدنى العيشة . وقد بقى فى قصره ، ينظر بعينه ، ويسمع بأذنه ، ويدنى من أدناه ، ويقصى من أقصاه ؛ وخلاه ومعاظم الأمور يدبرها بجهله وخرقه واعتسافه وتهوره ، فلم يلبث أن انتقضت به ، واحتاج حكم إلى رجال يستعين بهم فى تدبيره ، فلم يهتد منهم إلا إلى نغل دغل ، أو ما جن سفيه ، أو سوقى رذل ، سقطت به عليهم المشاكلة ، واتخذهم بطانة ، فمدوا له فى الغواية ، وجروا فى هواه طلق الجموح ، ما فيهم حازم ولا نصيح » ، ثم يقول بعد ذلك فى تصوير علاقاته بالناس : « فبدر لأول وقته بعداوة الأحرار ، وتنقص الفضلاء ، والميل على ذوى البيوتات بالأذى ، وصير صنائعه فى أضدادهم ، فكانوا وزراءه وأنصاره » (١)

فهذا هو الجو الذى كان يعيش فيه المعتد ، وهذه هى الحاشية التى كانت تحيط به ، أفكان من الممكن أن يكون لابن حزم مكان فيها ؟ وهكذا نكب ابن حزم فى أمله هذا أيضاً .

وكذلك نرى أنه لم يلبث أن انصرف عنه ، ومضى لشأنه ، يائساً من تحقيق ذلك الأمل الذى ظل دهراً يراوده ويداعب أحلامه ، أمل استحياء ذلك المجد القديم الذى كان يتمثل له دائماً فى هذه الخلافة الأموية ، فقد كان أبو بكر هذا عنده هو البقية الباقية التى كان يدور حولها ، ويتشبث

---

(١) البيان المغرب ، ٣ : ١٤٧ ـ ١٤٨

بها ذلك الأمل ، والتي كان ابن حزم يحيك منها أحلامه التي ذهبت بددا ، وضاعت سدى

ولعلنا نستطيع أن نتمثل مبلغ ما كان يضمره ابن حزم لأبي بكر ، هشام بن محمد هذا ، من حب وتقدير له ، وأمل فيه ، في هذه الأبيات التي بقيت لنا من قصيدة قالها في مدحه . وقد أوردها في كتابه طوق الحمامة . قال :

أساعة توديعك أم ساعة الحشر وليلة بيني منك أم ليلة النشر ؟
وهجرك تعذيب الموحّد : ينقضي
ويرجو التلاقي ، أم عذاب ذوي الكفر ؟

. . . .

سقى الله أياما مضت ولياليا تحاكي لنا النيلوفر الغض في النشر
فأوراقه الأيام حسناً وبهجة وأوسطه الليل المقصر للعمر
لهونا بها في غمرة وتألف تمرّ فلا ندري وتأتي فلا ندري
فأعقبنا منه زمان كأنه ولا شك حسن العقد أعقب بالغدر

. . . .

فلا تيأسي يا نفس ! علّ زماننا يعود بوجه مقبل غير مدبر
كما صرف الرحمن ملك أمية إليهم ، ولوذي بالتجمل والصبر

. . . .

أليس يحيط الروح فينا بكل ما دنا وتناءى وهو في حجب الصدر

كذا الدهر جسم وهو فى الدهر روحه   محيط بمـا فيه و إن شئت فاستقر

. . . .

إتاوتها تهـــدى إليه ، ومنة   تقبلها منهم تقاوم بالشكر
كذا كل نهر فى البلاد وإن طمت   غزارته ينصب فى لجج البحر (١)

وينص ابن حزم فى أثناء هذه الأبيات ، عند إيراد الأربعة الأخيرة منها ، على أنها فى مدح « أبى بكر هشام بن محمـــد ، أخى أمير المؤمنين عبد الرحمن المرتضى ، رحمه الله » ، فيلاحظ فى هذه العبارة أنه لم يصف أبا بكر — كما وصف أخاه — بإمارة المؤمنين . و إذن فهذه القصيدة ترجع إلى عهد سابق على العهد الذى بويع فيه بالخلافة . فهذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، نرى فى هذه الأبيات الأربعة إشارة إلى الترشيح للخلافة ، فهو روح الدهر ، محيط بكل ما فيـه ، وهو البحر تنصب الأنهار إليه ، وهذه الإتاوات تهدى له ، وتصرف نحوه

فهل لنا أن نرى فى هذا إشارة إلى فترة ترشيح أبى بكر للخلافة من لدن الحزب الأموى ، و إلى بعض ما كان يتخذ لذلك من وسائل وتدابير لإنجاح ذلك الترشيح ، وأن تلك القصيدة إنما ترجع إلى تلك الأيام التى أعقبت خلع المستكفى ، ســـنة ٤١٦ ، ووقوع قرطبة فريسة للفوضى والاضطراب والهرج والمرج ، يتنازعها البربر ، وعليهم المعتلى بالله يحيى بن على ، والصقالبة و يمثلهم مجاهد وخيران ، ومحاولة الحزب الأموى الخروج من هذه الفتنة ، بإسناد الأمر إلى ذلك الشيخ المقيم فى البونت ، و بذلك

---

(١) طوق الحمامة ، ص ٧٣ — ٧٤

نعتبر هذه القصيدة أثراً من الآثار الأدبية التى تصور أمل الحزب الأموى عامة ، وابن حزم خاصة ، فى استحياء الخلافة الأموية ، فى شخص أخى الخليفة المرتضى الذى قتله البربر ، و « قد وقع بينهم و بينه ، ما وقع بين أهل قرطبة و بينهم » [1] ؟

و إذا صح هذا الفرض ، وهو فرض كما نرى قريب ، مساير لطبيعة الأمور ومنطق الأحداث ، ففيه كذلك ما يؤيد القول الذى رأينا من أن ابن حزم لم ينصرف عن السياسة والحياة السياسية ، بعد عهد المستظهر ، بل ظل فى أيام المستكفى ، وفى خلال الفتنة التى أعقبته ، متصلا بها مغامرا فيها داعياً إلى تحقيق مذهبه السياسى بما يملك من وسائل ، ليس إلى تحقيق القول فيها من سبيل

(١) البيان المغرب ٣ : ١٤٦

والآن نعود إلى السؤال الذى سألناه من قبل : أين كان ابن حزم بعد خروجه من سجن المكتفى ، أأقام فى قرطبة أم غادرها؟

أما أن قرطبة لم تعد ، فى حقيقة الأمر ، بيئة صالحة له ، فى تلك الفتنة المطبقة ، لا لنشاطه السياسى ، ولا لنشاطه الدينى والعلمى ، و إذن فإلى أين يتجه ؟ لم يكن بد من أن يخرج إلى بلد صديق ، وجو هادىء رفيق . وكذلك نراه اختار بلاد العامريين فى شرق الأندلس ، كما اختارها قبل فى مهاجره الأول من قرطبة . واختار من هذه البلاد إمارة بلنسية التى ذهب إليها منذ عشر سنين للقاء المرتضى ، أيام المظفر والمبارك . أما الآن فكان أميرها عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ، وكان آثر العامريين منزلة وأدناهم إلى قلوب أوليائهم ، وكان — كما يقول ابن عذارى — « من أوصلهم لرحمه ، وأحفظهم لقرابته . ابتعثه الله رحمة للممتحنين من أهل بيته ، فآواهم ، وجبر الكسير ، ونعش الفقير ، طول مدته ، حتى بلغ من ذلك مبلغاً أعيا ملوك زمانه »[١]

وكذلك نرى ابن حزم لاجئا مرة أخرى إلى هذه الأقاليم الشرقية ، بحكم طابعها العامرى ، وقربها من الأموية ، التى لايزال يدين بها . ولكنا

(١) البيان المغرب ٣ : ١٦٤

نراه هذه المرة فى مدينة شاطبة (Jàtiva) ، إحدى مدن إمارة بلنسية

وفى هذه المدينة ، فى هذه الفترة ، وضع كتابه « طوق الحمامة » ، كما أشار إليها غير مرة فى هذا الكتاب ، فهو يقول فى مقدمته : « ... فإن كتابك وردنى من مدينة المرية إلى مسكنى بحضرة شاطبة » . كما يقول فى موضع آخر ، فى سياق الحديث عن رجل يعرفه ، من أبناء الكتاب ، كان كثير التصاون : « فأول خبر طرأ على بعد إجائى شاطبة ، أنه خلع عذاره ... الخ »[١] ، ويذكرها كذلك فى موضع ثالث منه ، فيقول : « ولعهدى بصديق لى داره المرية ، فعنت له حوائج إلى شاطبة فقصدها ، وكان نازلا بها فى منزلى مدة إقامته بها »[٢]

أما تاريخ وضع الكتاب فنستطيع أن نجد الإشارة إليه أو الدليل عليه فى غير موضع منه أيضاً . ففى هذا النص الأخير نجده يشير إلى ما كان بين مجاهد ، صاحب الجزائر الشرقية ، وخيران صاحب المرية ، من منابذة ومحاربة ، فهو يقول عن صديقه هذا : « ... وكان له بالمرية علاقة هى أكبر همه ، وأدهى غمه ، وكان يؤمل تبتيته وفراغ أسبابه ، وأن يوشك الرجعة ويسرع الأوبة ، فلم يكن إلا حين لطيف بعد احتلاله عندى ، حتى جيش الموفق ، أبو الحسن مجاهد صاحب الجزائر ، الجيوش ، وقرب العساكر ، ونابذ خيران صاحب المرية ، وعزم على استئصاله ، فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب ، وتحوميت السبل ، واحترس البحر بالأساطيل» .

---

(١) ص ٣٧

(٢) ص ٨٢

وإذن فإنما كتب ابن حزم كتابه طوق الحمامة بعد هذه الخصومة العنيفة التى فرقت بين الرجلين ، وشبت بينهما نار الحرب على هذه الصورة التى نراها هنا . وقد كان ذلك فى شهر ربيع الثانى ، سنة ٤١٧

وهناك إشارة أخرى تجعل هذا الكتاب قبل سنة ٤٢٠ ، وهى السنة التى مات فيها ، أو فى نحوها ، الحكم بن المنذر بن سعيد ، كما يذكر ذلك ابن بشكوال [١] ، فقد أشار إليه ابن حزم فى سياق بعض الأخبار بقوله : « وحكم المذكور فى الحياة ، فى حين كتابتى إليك بهذه الرسالة قد كفّ بصره ، وأسن جداً » [٢]

على أن هناك إشارة ثالثة تقصر هذا المدى شيئاً ، وهى تقع فى سياق قصيدته التى أوردنا بعض أبياتها منذ قليل ، فى مدح هشام بن محمد . وقد رأينا هناك ، من أجل هذه الإشارة ، أنها ترجع إلى ما قبل خلافته ، فكذلك يجب أن يكون الأمر فى هذا الكتاب الذى أورد فيه هذه الأبيات وتلك الإشارة . وإذن فقد وضعه قبل شهر ربيع الثانى ، سنة ٤١٨ ، وهو تاريخ مبايعة هشام خليفة ، وتلقيبه بأمير المؤمنين المعتد بالله .

وهكذا نستطيع القول بأن ابن حزم كتب « طوق الحمامة » ، فى الفترة التى تقع بين ربيع الثانى سنة ٤١٧ ، وربيع الثانى من السنة التى تليها ، ٤١٨

وكتاب « طوق الحمامة » هذا هو كتاب أو « رسالة فى صفة الحب

---

(١) الصلة ، ص ١٤٩
(٢) ص ٤٢

ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله ، على سبيل الحقيقة [1] ، على حد تعبيره عنه فى مقدمته . وليس مما تحتمله هذه السيرة أن نتحدث عن هذا الكتاب الفذ ، تعريفاً به ، وتحليلا له ، وتبييناً لأصوله ؛ فذلك أجدر أن يكون فى بحث خاص به ، أو دراسة مقصورة على منهج الرجل العلمى أو أسلوبه الأدبى ، ومدى مشاركته فى تطور العقل الإسلامى . أما ونحن إنما نجلو صورة حياته ، بتتبع سيرته وتعرف الملابسات المؤثرة فيها أو الكاشفة لها ، فليس يعنينا من هذا الكتاب إلا ما يكشف لنا هذه الناحية ، ويلقى الضوء على هذه الفـترة التى أمضاها فى مدينة شاطبة ، تاركاً مرة أخرى وطنه ومسارح صباه وملاعب شبابه ومجمع ذكرياته

وإذن فما هى الملابسات التى لابسته فى الاتجاه إلى هذا الكتاب وتأليفه ؟ يقول هو فى مقدمته ، موجهاً الحديث إلى صديق قديم ، كان يسكن مدينة المرية : « ... فإن كتابك وردنى من مدينة المرية ، إلى مسكنى بحضرة شاطبة ، تذكر من حسن حالك ما يسرنى ... ثم لم ألبث أن اطّلع على شخصك ، وقصدتنى بنفسك ، على بعد الشقة ، وتنائى الديار وشحط المزار ، وطول المسافة ، وغول الطريق ؛ وفى دون هذا ما سلّى المشتاق ونسى الذاكر إلا من تمسك بحبل الوفاء مثلك ، ورعى سالف الأذمة ووكيد المودات وحق النشأة ومحبة الصبى ، وكانت مودته لله تعالى ... وكانت مغازيك فى كتابك زائدة على ما عهدته فى سائر كتبك ؛ ثم كشفت لى بإقبالك غرضك ، وأطلعتنى على مذهبك ، سجية لم تزل علينا من مشاركتك

(١) ص ٢

لى فى حلوك ومرك ، وسرك وجهرك ... وكلفتني — أعزك الله — أن أصنف لك رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لامتزيدا ولا مفتناً ، لكن مورداً لما يحضرنى على وجهه ، و بحسب وقوعه ؛ فبادرت إلى مرغو بك »

فقد كتب ابن حزم إذن كتابه هذا استجابة لصديقه كما يقول . وإن كان من الممكن أن يقال إن هذا الذى قدم به كتابه ليس إلا أسلوباً من الأساليب التقليدية فى تقديم الكتب ، وإن الأولى بنا أن نغفل مثل هذه الأشكال التى جرى عليها المؤلفون ، ونمضى إلى ما وراءها ، فى تعرف الحوافز الحقيقية التى تثير فى نفوسهم الرغبة نحو كتابة هذا الكتاب أو ذاك .

ومهما يكن من أمر ، فسواء صح أن كتاب طوق الحمامة صدر عن استجابة ابن حزم لرغبةهذا الصديق أم لم يصح ، فالذى لا ريب فيه عندنا أنه لابد من الحافز النفسى ، ولا بد لهذا الحافز النفسى من الملابسات التى تملك أن تثيره وتبعثه من مكمنه . فإذا صح أن صديقه هذا اقترح عليه ، وليس ما يمنع منه ، فقد صادف إذن اقتراحه هوي فى نفسه . وصديقه هذا — كما يقول — صديق قديم ، شاركه « حق النشأة ، ومحبة الصبى » ، فهما يشتركان إذن فى ذكريات عهد النضارة ، أو فى ذلك الكنز الذهبى الذى يدخره الإنسان فى خياله ، ليرجع إليه ، ويمتح منه ، ويسعد به فى أيام الجدب والجفاف وقسوة الحياة

ولا ريب أن ابن حزم كان يعانى ، فى هذه الفترة من حياته ، محنة

نفسية قاسية ، أشعرته بمعنى الغربة ، مطبقة عليه من كل جانب بوحشتها وكآبتها وظلامها . لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يترك فيها قرطبة ، موطنه ومهوى قلبه ، ولكنه — فيما يبدو — لم يحس قبل كما يحس الآن أنه يفارقها إلى غير رجعة ، وبغير أمل فى معاودتها . وإن كان خرج منها يحف به ذلك الأمل فى استحياء الخلافة الأموية ، ولكنه — بعد كل تلك التجارب — أمل تعبث به هذه الحقائق الصارخة التى تتجاوب بها قرطبة والأندلس جميعاً ، فهو أمل ضعيف خافت مضطرب ، لا يكشف ظلمة ولا يدفع وحشة ، ولا يجلب عزاء

وهكذا كان إحساسه بالغربة هذه المرة إحساسا قويا غامراً عميقاً . ولقد كانت عناصر هذا الإحساس قديمة ، خلقتها فى نفسه ظروف حياته التى أسلفنا تصويرها ، فقد تجمعت الآن هذه العناصر ونمت وتشعبت وأظلت نفسه وتغلغلت فى طواياها ، فإذا هو منفرد متوحد متوحش ، يعيش فى نفسه ، فيما يدرس ويقرأ ويتأمل ، فإذا أحس فيما بين ذلك الحاجة إلى الاسترواح ، فانصرف عن هذا اللون من العيش ، فإنما ينصرف إلى هذه الصور الجميلة الحبيبة العزيزة التى حفلت بها نفسه ، عن أيام صباه ، وعهود شبابه ، يجول بينها ويلذها ، ويستمتع بها ، ويستغرق فى تأملها واجتلاء مفاتنها . وعن هذه الحالة النفسية الطبيعية صدر — فيما نرى — كتاب طوق الحمامة

فهو إذا كان — فى ظاهر الأمر — استجابة لرغبة صديقه ، فهو — فى حقيقة الرأى — استجابة لنزعة التعبير عن تلك الحالة ، إذ مضى فى كتابه هذا يسترجع صور تلك الحياة الماضية ويتأملها ويسجلها ويدون مشاعره

إزاءها . وقد رأينا مكان الحب فى حياة ابن حزم ، ومبلغ ما كان له من أثر فى توجيه هذه الحياة وتلوينها .

ومن ذلك كان طوق الحمامة ، فى حديثه عن الحب ، لا يعرض لأخباره المأثورة ، أو آثاره المروية المحفوظة ، مما تقدم به الزمان ، أو اختلف فيه المكان ، كما يقول هو فى مقدمته : « ودعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبى أن أنضى مطية سواى ، أو أتحلى بحلى مستعار » ، إذ كان حافزه إلى هذا الكتاب هو تلك الحالة النفسية التى رأيناها ، والاندفاع الطبيعى إلى مقاومة تلك الأزمة ، والخروج من تلك الغربة ، والتحرر من هذه الغاشية المطبقة ولعل ذلك صادف بعد موافقة لما نعرفه فيه من اعتداد بالنفس ، تظهر فى هذه العبارة نغمته ، أو تعصب لموطنه

ولسنا نعدم فى كتابه هذا ما يعبر عن هذه الحالة النفسية التى كان يعانيها تعبيراً صادقاً قوياً ، كالذى نجده فى هذه الكلمات الحارة الدافقة ، التى يوردها فى سياق بعض كلامه فيه ، إذ يقول : « . . . وما انتفعت بعيش ، ولا فارقنى الإطراق والانغلاق ، مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشجى يعتادنى ، وولوع هم ما ينفك يطرقنى . ولقد نغص تذكرى ما مضى كل عيش أستأنفه ، وإنى لقتيل الهموم فى عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا ، والله المحمود على كل حال ، لا إله إلا هو »(١)

أراد ابن حزم إذن أن يسترد حياته تلك فى قرطبة ، على النحو الذى يستطيع

---

(١) ص ٢٣

أن يملكه و يحققه ، فكان له ذلك على هذا الأسلوب ، وكان كتاب « طوق الحمامة » ، فهو إذا شئنا كان صورة من حياته تلك في قرطبة ، و إذا شئنا كان صورة من تلك الحالة النفسية التي استبدت به بعد خروجه منها ، وما يداخلها من يأس ممض . و إذا كان هو — بعد أن رأى كتابه هذا ماثلا بين يديه — أخذ يعجب من أنه استطاع أن يذكر حياته الماضية ، مع هذه الحال التي يعانيها ، فيقول في آخر الكتاب : « والكلام في مثل هذا إنما هو مع خلاء الذرع ، وفراغ القلب . وإن حفظ شيء و بقاء رسم وتذكر فائت لمثل خاطرى ، لعجب ، على ما مضى ودهمني . فأنت تعلم أن ذهنى متقلب ، و بالى متهضم ، بما نحن فيه من نبوّ الديار ، والجلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير الإخوان ، وفساد الأحوال ، وتبدل الأيام ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة في البلاد ، وذهاب المال والجاه ، والفكر في صيانة الأهل والولد ، واليأس من الرجوع إلى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الأقدار ، ولا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا ، وإن الذى أبقى لأكثر مما أخذ ... »[1]

إذا كان ابن حزم يرى من العجيب أن يستطيع تذكر ذلك الفائت واسترداد تلك الرسوم ، مع هذه الحال التي أجمل صفتها ، والتي تصور مشاعره أدق تصوير ، فإننا لنرى أن هذه الحالة نفسها هي التي أتاحت له ذلك الكتاب ؛ بل إن العجيب عندنا حقا هو أنه كان يملك إخراج مثل

---

(١) ص ١٥٣

كتابه هذا ، دون أن يكون قد تعرض لمثل ما تعرض له من تلك المحنة النفسية القاسية ، وتلك الغربة الروحية الشديدة ، وذلك اليأس « من الرجوع إلى موضع الأهل » كما يقول

وأما بعد ، فهذا هو كتاب « طوق الحمامة » ، من حيث الملابسات التى لابسته ، ومن حيث كونه يؤرخ مرحلة من مراحل هذه الحياة العجيبة المضطربة ، فيجلوها ويضىء بعض جوانبها ، ويكشف لنا عن بعض ما كان يداخلها ، مما هو نتيجة من نتائج المراحل السابقة ، وأثر من آثارها ، ومما قد يكون مدرجة لما يتلوها ، ومهيئاً لما يجىء بعدها ، أما ما عدا ذلك من الكتاب نفسه ، فليس من شأن هذه الرسالة ، ولا هو مما تحتمله

وإذا كان ابن حزم يذكر « اليأس » فى غير موضع من كتابه ، كما رأينا فى ذلك النص الذى أوردنا ، وكما فى هذه الأبيات التى جعلها خاتمة لكتابه :

جعلت اليأس لى حصنا ودرعا ... فلم ألبس ثياب المهتضام
وأكثر من جميع الناس عندى ... يسير صاننى دون الأنام
إذا ما صح لى دينى وعرضى ... فلست لما تولى ذا اهتمام

فإن الأمر لم يبلغ — فيما يبدو — غايته ، فإن هذا الظلام الموحش كان ما تزال تشقه ، بين حين وآخر ، خاطفة برق تجىء من ناحية البونت ، حيث كان يقيم هشام بن محمد ، معقد أمل الأمويين ، فتهفو نفسه ، وتثير قليلا مما خبا من أمله ، وتراوده أن يمضى إليه ، ويخلص من هذا الظلام

الذى يحتوشه و يطبق عليه . ولكن ذلك الأمل ما يلبث أن يتبدد ، على النحو الذى رأينا . و بذلك نفض يديه من تلك الآمال السياسية التى كانت ما تزال تراوده وتتبرج له ، وتغريه على أن يخرج من برجه العاجى ، كما يقولون الآن ، بعد أن انتهت عنده هذه المحاولة الأخيرة لاستحياء الخلافة الأموية إلى الفشل ، و إن كانت لم تبلغ غايتها الصريحة التى انتهت إليها بعد ، سنة ٤٢٢ (١)

(١) يرد اسم « ابن حزم » بين من كانوا مع زهير الفتى فى حربه مع باديس ابن حبوس . سنة ٤٢٩ : « وعف باديس عن دماء حملة الأقلام دونه ، إلا من أصيب منهم فى الحرب . وأطلق ابن حزم والباجى وغيرهما » (ابن عذارى ٣ : ١٧١) . ولكن ابن حزم هذا هو — فيما نعتقد — أبو المغيرة ابن حزم ، لا أبو محمد صاحبنا

هكذا انتهى العهد الأموى فى نفس ابن حزم بآماله وأحلامه إلى غير رجعة ، وانتهى بذلك أيضاً نشاطه السياسى ؛ وكانت هذه المحاولة الأخيرة الفاشلة هى الحد الفاصل بين عهدين فى تاريخ الرجل ، وبداية العهد الذى خلص فيه للعلم والدين والكفاح العلمى والمذهبى ، دون أن يخالطه شوب من اعتبار سياسى ، أو قصد إلى مجد دنيوى ، إذلم يعدهنالك مكان للأمل فى استحياء الرفات الرميم . وحسبه هـذه التجارب الثلاث التى شارك فيهـا ، إلى جانب المرتضى أولا ، ثم إلى جانب المستظهر ثانياً ، ثم إلى جانب ذلك الخليفة التعيس المعتد ، أخيراً ، وقد تبين أن استخلافه إنما كان مهزلة منطوية على مأساة ، أو مأساة منطوية على مهزلة . كذلك لم يكن هنالك موضع فى نفس ابن حزم يأذن له أن يشارك فى سياسة دولة غير تلك الدولة التى نصب نفسه داعية لها ، إذ كان إنما يحمله على مناصرتها والدعوة لها إيمان عميق بفضل الأمويين ، تعرض بسببه لكثير من ألوان الأذى ، ووفاء مطلق كان أغلب الصفات عليه ، كما كان هو أحرص على أن يوصف به ، كما يتبين ذلك من تأمل شخصيته ومنهج حياته عامة ، وكما يظهر فى غير موضع من كتابه طوق الحمامة (١) .

---

(١) انظر مثلا ص ٧٨ ، ١١٤

والحق أن شخصية ابن حزم على النحو الذى تبيناه حتى الآن ، وفى تلك الملابسات التى لابستها وتكونت بها ، لم تكن تصلح لمثل هذا الذى أخذ نفسه به من المغامرة فى السياسة ، ولكنما غره بهـا — فيما يبدو — ذكرى مجـد سياسى غابر ، وخيال منزلة قـديمة ، كانت تهيجه وتبتعثه ، وتراوده مرة ومرة ومرة . وربما كان من الممكن أن يصلح الرجل لشىء من ذلك ، لو أن العصر كان عصر استقرار وطمأنينة ، أما فى ذلك الاضطراب الغامر وتلك الفوضى الشاملة لكل شىء ، والماحقة لكل مبدأ ، فهيهات هيهات .

انتهى إذن هذا الشطر الأول من حياة ابن حزم ، وقد كان كما — رأينا — سلسـلة متصلة الحلقات من المحن والنكبات والتشرد فى أنحاء الأندلس شرقها وغربها ، والامتحان بما كانت تنطوى عليه نفوس الناس فى ذلك الوقت من غدر وتقلب وعدم مبالاة . وقد كانت حياته فى هذه المرحلة صورة من الصراع العنيف الدائب بين ثبـات الخلق واضطراب الأهواء ، كما كان تشرده وتعرضه لصنوف الأذى والنكر ، صورة لما تعرضت له قرطبة خاصة والأندلس عامة من شر ومكر .

وانتهى ابن حزم من السياسة وشواغلها ومكايدها و بغتاتها ، ولـكنه لم ينته مع ذلك من التعرض للأذى والاضطراب . فلم يكن الفساد هنالك هو فساد الحياة السياسية وحدها ، و إنما كان فساد الحياة السياسية فى الأندلس صورة من الفساد الاجتماعى ، وظاهرة من ظواهره ، وصدى من أصدائه. و إذن فلم يكن اعتزاله السياسة ليعصمه مما تضطرب به الحياة عامة

وإن كان منعه — إلى حدما — مما تضطرب به بيئات السلطان ، إلا أن يتجنب المجتمع كله ، وهذا مالا سبيل إليـه بالنسبة لرجل مثله . لقد كان الرجل فى حقيقة الأمر شـذوذاً فى عصره ، وكان يمثل نزعة المقاومة لذلك الفساد الغالب عليه ، فلا جرم أن استمرت المحادة بينه وبين المجتمع ، كما سنرى فيما تصوره لنـا المرحلة التالية من حياته ، ولم يعفه منها اعتزاله السياسة ، وتجنبه السلطان ، وانصرافه إلى حياة العلم والتأمل والمناظرة والمدارسة والتأليف والتصنيف .

لقد حاول ابن حزم أن يصل ماضى أسرته فلم يفلح ، وسيحاول بعد الآن أن تركن إلى الناحيـة الأخرى من ناحيتيه اللتين ظلتا حتى اليوم تتنازعانه : مجد الدنيا ومجد الآخرة . ولكن ذلك لن يبلغ ما لعله كان يـتشرف إليه ويعلل النفس به ، من هــدوء النفس وسكون القلب . ومرجع ذلك كله إلى تكوين شخصيته أولا ، ثم إلى طبيعة العصر ثانياً ، تلك الطبيعة التى تبدت لنا من خلال هذه الدراسة . ولأبى المغيرة ابن حزم ، ابن عم صاحبنا كلمة تعبر عن هذه الطبيعة خير تعبير . وهى قوله : «والعاقل من حمله كل بلد ، ونفق عند كل أحد ، وأعقل منه من عرف الناس ولم يعرفوه ، فاستراح من أجنبى متكلف ، أوقريب غير منصف ، ولم يفتقر إلا إلى ربه ولم يأنس إلا بنور لبه» [1] . فالعاقل فى هذه الحكمة إما أن يكون وصولياً لا مبـدأ له ولا خلق يعصمه ويقف به ، وإما أن

(١) الذخيرة ، القسم الأول ـ المجلد الأول ، ص ١٢٩

يكون رجلا ناسكا اعتزل الناس وهجرهم . ولم يكن ابن حزم ، وما كان من الممكن أن يكون واحداً من هذين .

قضى ابن حزم هذا الشطر الأخير من حياته مضطرباً فى شرق الأندلس متنقلا بين هذه الإمارات المختلفة التى تخلفت عن ذلك الملك العريض الرفيع الشامخ ، حين طاحت به الطوائح ، فتهاوت أجزاؤه ، وتناثرت أشلاؤه ؛ لا يكاد يستقر ببلد حتى يزعج عنها ، فيمضى يلتمس غيرها ، إلى أن انتهى أخيراً إلى أشبيلية ، فلبلة ، فى غرب الأندلس ، موطن أسرته ، ومنبت أرومته . وهناك انتهت حياته وغربت شمسه ، وانتهى حيث بدأ تاريخ هذه الأسرة .

ولن نستطيع متابعة ابن حزم فى تجواله بشرق الأندلس، ننزل بنزوله ونرحل برحيله ، فذلك مالا تتيحه لنـــا أخباره المقتضبة ، كما لا نجد من الإشارات فى كتبه ما يمكننا من وضع هذا الشطر من حياته فى نسق منظم مطرد . وقد رأيناه فى مدينة شاطبة يضع كتابه طوق الحمامة ، قبل أن يستخلف الخليفة المعتد ، ولسنا نعرف إلى أين مضى بعد ذلك ، وفى أى بلد كان مقامه ، ولكننا نعلم أنه فى هذه الفترة أخذيضع كتابه : « الفصل فى الملل والأهواء والنحل »

وكما استطعنا أن نستخلص من « طوق الحمامة » تاريخ وضعه ، كذلك نجد كتاب الفصل يمدنا ببعض الإشارات الدالة على تاريخه ، فى غير موضع منه ، ففى أوائله يشير إلى « زماننا هذا الذى هو وقت ولاية هشام المعتد » [(١)] ، وبذلك ينبغى أن نضع تاريخه فيما بين سنة ٤١٨ وسنة ٤٢٢ . وفى موضع آخر ، فى الفصل الذى جعل عنوانه : « مطلب بيان كذب من ادعى لمدة الدنيا عددا معلوما » ، يقول فى سياق بعض ما يورده تدليلا على هذا : « وله عليه السلام ، منذ بعث ، أربعمائة عام ونيّف » [(٢)] ، ولكن دلالة هذا النص يداخلها الإبهام من ناحية هذا

---

(١) ١ : ١١٦

(٢) ٢ : ١٠٦

« النيف » وهو لفظ مبهم . على أن الإبهام يزول بهذا النص الثالث ، إذ يقول فى بيان عجز العرب عن معارضة القرآن : « إنما حملهم على ذلك العجز عما كلفهم من ذلك . . . ثم عم الدنيا من البلغاء الذين يتخللون بألسنتهم تخلل الناقه ، ويطيلون فى المعنى التافه ، إظهاراً لاقتدارهم على الكلام ، جماعات لا بصائر لهم فى دين الإسلام ، منذ أربعمائة عام وعشرين عاماً ، فما منهم أحد يتكلف معارضته إلا افتضح وسقط ... الخ »[1]

فهذا النص يعين عدداً معيناً من السنين ، هو أربعمائة وعشرون . وعندنا أنه يقصد بهذا العدد التاريخ المستعمل ، أى منذ الهجرة ، وإن كان يبدو من سياق القول أن ذلك منذ البعثة ، أى قبل ذلك بثلاثة عشر عاما . ولكن يمنع ذلك الاعتبار عندنا ما يؤدى إليه من التعارض مع النص الأول القائل بأن الكتاب وضع فى أيام المعتد بالله ، و إذن فلا بد لنا من حمل هذا العدد على أنه بيان للتاريخ الهجرى ، و بذلك يكون تاريخ وضع كتاب الفصل هو عام ٤٢٠[2]

و كتاب الفصل هذا هو كتاب ضخم ، عرض فيه ابن حزم المذاهب المختلفة ، إسلامية وغير إسلامية ، عرضا يبين عنها بياناً واضحاً قوياً ، وناقشها فيه مسألة مسألة ، مناقشة تكشف عن قوة شخصيته وكمال استقلاله

---

(١) ١ : ١٠٦

(٢) هذا التاريخ هو التاريخ الأول لكتاب الفصل ، إذ يبدو أنه كتب غير مرة وفى أكثر من فترة ، ولعل ذلك هو بعض السبب فى تسميته له فى غير موضع ديوانا ؛ ومن ذلك نراه يذكر فى موضع آخر متأخر ، تاريخا آخر متأخراً عشرين عاما عن هذا التاريخ ، وذلك حيث يقول فى سياق كلامه عن إعجاز القرآن : « وهذا هو الذى جاء به النص ، والذى عجز عنه أهل الأرض منذ أربعمائة وأربعين عاما » (٣ : ٢١)

كما يكشف عرضها لها من مختلف جهاتها وشتى أجزائها عن علم واسع، ومعرفة شاملة، و بصيرة نافذة، وذكاء متوقد. و إنه ليشير فى مقدمته إلى أسلافه الذى ألفوا فى هذا الموضوع غير مرتض منهجهم، إذ يقول: «أما بعد، فإن كثيراً من الناس كتبوا فى افتراق الناس فى دياناتهم ومقالاتهم كتباً كثيرة جداً، فبعض أطال وأسهب وأكثر وهجر، واستعمل الأغاليط والشغب، فكان ذلك شاغلا عن الفهم، قاطعا دون العلم، و بعض حذف وقصر وقلل واختصر، وأضرب عن كثير من قوى معارضات أصحاب المقالات، فكان فى ذلك غير منصف لنفسه، فى أن يرضى لها بالغبن فى الإبانة، وظالما لخصمه فى أن لم يوفه حق اعتراضه، و باخسا حق من قرأ كتابه، إذ لم يغنه عن غيره. وكلهم — الا تحلّة القسم — عقد كلامه تعقيداً يتعذر فهمه على كثير من أهل الفهم، وحلّق على المعانى من بعد، حتى صار ينسى آخر كلامه أوله. وأكثر هذا منهم ستائر دون فساد معانيهم»

فقد قرأ ابن حزم إذن هذه الكتب الكثيرة التى كتبها فى المقالات من قبله، وتأمل ما فيها وعرف مناهجها، ولكنها لم تكن كل مصادره لتأليف كتابه هذا و إنما كانت له مصادره الأولى، مما يدلنا إلى استقامة منهجه وسداد أسلوبه، إلى جانب ما يدلنا عليه من سعة علمه. فهو حين يعرض المذاهب اليهودية يعرضها مما جاء فى التوراة وكتب اليهود، وحين يعرض المذاهب المسيحية يعرضها مما جاء فى الإنجيل وكتب النصارى الأولين،

وكذلك شأنه فى المذاهب الإسلامية المختلفة ، كمذهب الشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة والأشاعرة . وليس يعنينامن ذلك — فى هذه الرسالة — إلا أن نتمثل شخصية ابن حزم فى هذه الفترة من حياته ، كما يؤديها إلينا هذا الكتاب،فنراها شخصية ناضجةمتسعة الأفق متعددة جوانب المعرفة ، جادة فيما تأتى من الأمر .

كما يعنينا أيضاً ونحن ننظر فى هذا الكتاب ، أن نتعرف منه ما كان لابن حزم قبل وضعه له من ألوان نشاطه العلمى ، وفنون حياته العقلية ، مما تمثل فيه ، إما بالإشارة إليه ، و إما بتضمنه فيه

فمما أشير إليه فيه كتبه التى جمعها فى حدود المنطق ، على حد تعبيره عنها [1] . ولعل من بين هذه الكتب ما تقع عليه إشارة صاعد الأندلسى فيما نقل عنه ياقوت — إذ يقول : « فعنى بعلم المنطق ، وألف فيه كتاباً سماه كتاب التقريب لحدود المنطق ،بسط فيه القول على تبيين طرق المعارف واستعمل فيه مثلافقهية ، وجوامع شرعية .وخالف أرسططاليس واضع هذا العلم ، فى بعض أصوله ، مخالفة من لم يفهم غرضه ، ولا ارتاض فى كتبه ، فكتابه من أجل هذا كثير الغلط ، بين السقط » [2] ، ومثل ذلك ما يقوله ابن حيان فيما ينقل عنه ابن بسام : « وله فى بعض تلك الفنون كتب كثيرة غيرأنه لم يخل فيها من الغلط والسقط ، لجرأته على التسور على الفنون ، ولا سيما المنطق ، فإنهم زعموا أنه زل هنالك ، وضل فى سلوك

---

(١) ١ : ٢٠

(٢) معجم الأدباء ١٢ : ٢٣٧ ـ ٢٣٨ (ط. دار المأمون)

تلك المسالك »[1] . أما الحميدى ، وهو تلميذ ابن حزم ، فعرض لكتابه هذا فى المنطق بلهجة غير هــذه اللهجة ، فقال — كما يروى عنه الضبى : « وكذلك كتاب التقريب لحد المنطق والمدخل إليــه ، بالألفاظ العامية ، والأمثلة الفقهية ، فإنه سلك فى بيانه ، وإزالة سوء الظن عنه ، وتكذيب الممخرقين به ، طريقة لم يسلكها أحد قبله ، فيما علمنا »[2] .

فها هو ذا كتاب التقريب لحدود المنطق، عندخصومه وعند أصحابه . وقد أشار فى موضع آخر من الفصل إلى كتاب له يسميه : « التقريب فى حدود الكلام » ، وذلك فى أول باب من أبواب كتابه هذا ، جعل ترجمته هكذا : « باب مختصر جامع فى ماهية البراهين الجامعة الموصلة إلى معرفة الحق ، فى كل ما اختلف فيه الناس ، وكيفية إقامتها » ، ثم يبدأ هذا الباب بقوله : « هذا باب قد أحكمناه فى كتابنا الموســوم بالتقريب فى حدود الكلام ، وتقصيناه هنالك غاية التقصى ، والحمد لله رب العالمين »[3] . ومن هذه العبارة التى ترجم للباب بها ، ثم مما أورده فيه ، يبدو جلياً ، أن هذا الكتاب إنما هو كتاب فى المنطق ، وأن كلمة المنطق مرادفة عنده فى هذا الموضع لكلمة الكلام ، ثم لا نكاد نشك أنه هو نفسه الكتاب الذى

---

(١) الذخيرة ، القسم الأول ـ المجلد الأول ، ص ١٤٠ ، وانظر أيضا معجم الأدباء ١٢ : ٢٤٧ ، فقد أورد هذا النص بقليل من المخالفة أو التحريف ، رواية عن أبى مروان ابن حيان أيضا .

(٢) بغية الملتمس ، ص ٤٠٣ .

(٣) ١ : ٤ ، وانظر أيضا إشارته إليه فى الفصل الذى عقده عن الخلاء (٥ : ٧٠).

يذكره صاعد والحميدى باسم (التقريب لحدود المنطق) .

ومهما اختلف الرأى فى هذا الكتاب ، بل مهما دلت الصفات التى أطلقها عليه خصوم ابن حزم والناقمون عليه ، فإنها تدل على أنه أراد أن يجعل من علم المنطق علماً مطبوعا بطابعه وشخصيته ، جاريا مع التفكير العلمى الإسلامى ، غير متعلق بأذيال المنطق الأرسطالى ، وتلك هى شخصية ابن حزم المستقلة التى نعرفها .

ومن هذه الكتب التى تمثل نشاطه التأليفى ، قبل كتاب الفصل ، مما جاءت فيه الإشارة إليه ، رسالة له فى إعجاز القرآن على ما هو رأيه فيه «من أن القرآن خارج عن نوع بلاغة المخلوقين ، وأنه على رتبة قد منع الله جميع الخلق عن أن يأتوا بمثله » وقد أشار إلى هذه الرسالة بقوله : (ولنا فى هذا رسالة مستقصاة ، كتبنا بها إلى أبى عامر ، أحمد بن عبد الملك بن شهيد) ، ثم عقب على ذلك بقوله : «وسنذكر منها هنا ، إن شاء الله تعالى ما فيه كفاية ، فى كلامنا مع المعتزلة والأشعرية فى خلق القرآن ، من ديواننا هذا »[1] وهكذا نرى أن هذه الرسالة ممثلة تمثيلا كافياً فيما عقده على الكلام فى القرآن ؛ فى الجزء الثالث من الفصل .

وقد أشرنا فى فصل سابق إلى كتابه الذى أسماه : « النصائح المنجية من الفضائح المخزية ، والقبائح المردية ، من أقوال أهل البدع ، من الفرق الأربع ، المعتزلة والمرجئة والخوارج والشيع» . وقد جاءت الإشارة إلى هذا

(١) ١ : ١٠٧ .

الكتاب فى الفصل ، فى سياق كلامه عن نحل أهل الإسلام وافتراقهم فيها ، [1] ، ثم قال عنه : « ثم أضفناه إلى آخر كلامنا فى النحل من كتابنا هذا» .

فإذا تركنا هذه الكتب الكلامية ، وجدناه يشير فى غير موضع إلى كتاب أدنى إلى أن يكون من كتب الفلسفة ، وضعه فى الرد على «كتاب العلم الإلٰهى » لمحمد بن زكريا الرازى ، سماه التحقيق ، أشار إليه أولا فى فاتحة كتابه ، عند إجمال الكلام فى رءوس الفرق المخالفة للاسلام وما يتولد عنها ، إذ يقول : « ومثل ما قد ذهب إليه جماعة من القائلين به وناظرتهم عليه ، من القول بأن العالم محدث ، وأن له مدبراً لم يزل ، إلا أن النفس والمكان المطلق — وهو الخلاء — والزمان المطلق ، لم يزل معه . . . وهو قول يؤثر عن محمد بن زكريا الرازى الطبيب . ولنا عليه فيه كتاب مفرد ، فى نقض كتابه فى ذلك ، وهو المعروف بالعلم الإلٰهى »[2] ثم يشير إليه مرة أخرى فى سياق كلامه عن القدماء الخمسة عند المجوس [3] ثم يشير إليه مرة ثالثة فى أثناء الفصل الذى عقده فى أواخر كتابه على « الكلام فى الجواهر والأعراض وما الجسم وما النفس» ، وقد نص فى هذا الموضع على أن اسم كتابه هذا هو : « التحقيق ، فى نقض كتاب محمد بن زكريا الرازى الطبيب»[4] .

---

(١) ٢ : ١١٦ .
(٢) ١ : ٣ .
(٣) ١ : ٣٤ .
(٤) ٥ : ٧٠ .

ومن الكتب التى أشار إليها فى الفصل أيضاً كتاب فى الفقه، ذكره فى سياق كلامه عن المجوس، وأنهم أهل كتاب، فقال: «وقد بينا البراهين الموجبة لصحة هذا القول فى كتابنا المسمى الإيصال، فى كتاب الجهاد منه، وفى كتاب الذبائح منه، وفى كتاب النكاح منه والحمد لله رب العالمين» [1]. وكتاب الإيصال هذا من كتبه الكبيرة. وقد تكلم عنه الضبى ووصف منهجه فى أثناء ترجمته لابن حزم، فقال: (وألف فى فقه الحديث كتاباً كبيراً سماه كتاب الإيصال إلى فهم الخصال، الجامعة لجمل شرائع الإسلام، فى الواجب والحلال والحرام، وسائر الأحكام، على ما أوجبه القرآن والسنة والإجماع. أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من أئمة المسلمين، فى مسائل الفقه، والحجة لكل طائفة عليها، والأحاديث الواردة فى ذلك من الصحيح والسقيم بالأسانيد، وبيان ذلك كله، وتحقيق القول فيه» [2].

وهكذا نرى من خلال هذا الكتاب مبلغ نشاط ابن حزم فى تأليف الكتب، فى شتى نواحى البحث الدينى، قبل هذا الوقت، كما نرى إلى أى مدى كان الرجل ناضج العقل، واسع الأفق، شديد الطموح الأدبى، مكتمل أسباب الشخصية العلمية الممتازة، حين أخذ يضع كتابه هذا.

ومما يصوره هـذا الكتاب من صور نشاطه العقلى — إلى جانب ما رأينا فى ناحيـة الكتابة والتدوين والتأليف — نشاطه الذى عرضنا له

---

(١) ١ : ١١٤

(٢) بغية الملتمس، ص ٤٠٣.

من قبل ، وتتبعناه منــذ بدايته ، فى مناظرة خصومه من العلماء وأصحاب المذاهب وأهل الرأى ، والـكتاب نفسه تعبير رائع قوى لقوته فى الجدل ، وبراعته فى المناظرة ، وحضور بديهته وسعة حيلته فى إلزام الخصم ، وإفحام المناظر ، وإقناع القارىء ، ممـا يرجع إلى استعداده العقلى لهذا النوع من النشاط أولا ، كما رأينا من قبل ، ثم إلى دربة طويلة ، وارتياض به دائب متصل ، فالمناظرة نوع من الرياضــة العقلية ، لابد من ممارستها ومعالجتها وأخذ العقل بفنونها ومذاهبها ، حتى يحسنها ويبرع فيها ، هذا البراعة التى نراها عند ابن حزم ، ويمثلها لنا كتاب الفصل هذا ، حتى ليستبد العجب بقارىء هذا الـكتاب حين يرى فى كل مسألة من المسائل التى يعالجها ، هذه الحركات العقلية واللفتات البارعة والوثبات الرائعة والمداورات المفتنة ، وإذ يراه يتناول فيها الخصم تناولا هو مزاج من العنف والبراعة جميعاً ، إذ لم يعنفه عنف الرجل الذى يلح عليــه الشعور بالضعف من قرارة نفسه ، فهو يحاول بما يصطنع منه أن يستره وراء ذلك المظهر ، بل هو عنف الرجل القوى الركين الواثق من نفسه ، المؤمن بقدرته ، المعتــد بشخصيته ، وقد بلغ من ذلك مبلغ الاستخفاف بخصمه .

فقوة ابن حزم الجدلية ، كما ترجع إلى قوة عقله ونفوذ بصيرته وسعة معارفه ، ترجع إلى دربته الطويلة على المناظرة · وقد رأينا فيما صورنا من حياته حتى الآن كيف كان مقبلا على هذا النوع من النشاط العقلى ، مأخوذاً به ، منذ أن كان شـابا غض الإهاب ، لم يتجاوز العشرين من عمره ، وقد فتنه به ما أتيح له من ظفر ، وما كان يداخل نفسه منه من شعور

بلذة الانتصار على الخصم ، والفلج فى الخصومة . والحق أن كتاب ابن حزم يمدنا فى كثير من فصوله بما يمثل حياته فى هذا الميدان تمثيلا كافياً ، منذ أن كان يناظر ابن النغريلى ، الكاتب اليهودى ، وهو لا يكتفى بالإشارة إلى هذه المناظرات وموضوعها ، بل كثيراً ما يعرض أطرافامنها ، كشأنه فيما يعرض من نشاطه فى ناحية التأليف كما رأينا ، من ذلك مناظرته لمن ذهب إلى أن النفس غير محدثة ، إذ يقول : « وقد ناظرنى قوم من أهل هـذا الرأى ، ورأيته كالغالب على ملحدى أهل زماننا ، فألزمتهم إلزاميات لم ينفكوا منها ، أظهرت بطلان قولهم ، بعون الله وقوته . ولم نر أحداً ممن تكلم قبلنا ذكر هذه الفرقة ، فجمعت ماناظرتهم به ، وأضفت إليه ما وجبت إضافته إليه ، مما فيه تزييف قولهم » . وقد عقب ذلك بصورة من هذه المناظرة [1] . ومن ذلك أيضاً مناظرته لمن يقر بالخالق ولا يقر بالنبوة [2] ، إلى غير ذلك مما هو كثير شائع فى الكتاب .

فهذا هو كتاب الفصل ، جلونا منه بعض مايمس موضوع هذه الرسالة مما هو تصوير لحياة ابن حزم ، و بيان لوجوه نشاطه ، فى هذه الفترة وما قبلها ، وما أكثر ما يزخر به من ذلك .

---

(١) ١ : ٢٥ ، وما بعدها .

(٢) ١ : ٦٥ — ٦٩ .

- ١٦ -

وإذا كنا لم نستطع أن نعرف أين كان ابن حزم بعد أن كتب كتابه طوق الحمامة فى «شاطبة» وأي بلد من بلاد الأندلس شهد تأليف كتابه «الفصل»، فإنا لا نلبث، على كل حال، أن نراه فى تلك المدينة الحصينة التى كان بها الخليفة المعتد، حين نودى به، قلعة البونت. ولكن بعد أن تركها ذلك الخليفة إلى قرطبة. إذ نجد الإشارة إلى هذه الزيارة فى مقدمة رسالته التى وضعها فى فضائل علماء الأندلس، حيث يذكر أنه إنما كتبها استجابة لرغبة صاحب البونت، حين كان فى حضرته، وذلك إذ يقول: «ثم لما ضمنا المجلس الحافل بأصناف الآداب، والمشهد الآهل بأنواع العلوم والقصر المعمور بأنواع الفضائل، والمنزل المحفوف بكل لطيفة... قرارة المجد ومحل السؤدد، ومحط رحال الخائفين، وملقى عصا التسيار، عند الرئيس الأجل، الشريف قديمه وحسبه، الرفيع حديثه ومكتسبه.... أبى عبد الله، محمد بن عبد الله بن قاسم، صاحب البونت، أطال الله بقاءه، فرأيته — أعزه الله — حريصاً على أن يجاوب هذا المخاطب... الخ»[١].

وأبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن قاسم هذا ولى أمر البونت بعد

(١) نفح الطيب ٢ : ٧٦٢ (ط. بولاق).

وفاة والده، عبد الله بن قاسم، الذى مضت الإشارة إليه، إذ كان جار الخليفة المعتد، وكانت وفاته سنة ٤٢١ . وإذن فقد كانت زيارة ابن حزم لقلعة البونت، فى فترة تبدأ من هذا التاريخ . على أنا نستطيع مع هذا أن نحدد هذه الفترة شيئاً من التحديد، إذا نحن استطعنا أن نعرف التاريخ الذى كتبت فيه الرسالة، باعتبار أن وجوده فى قلعة البونت سابق على هذا التاريخ .

ذلك أن فى الرسالة إشارة إلى أشخاص ينص على أنهم لا يزالون أحياء وبعضهم يعين مرحلة الحياة التى يجتازها . فيقول عن أبى غالب، تمام بن غالب، المعروف بابن التبانى : «وهو — أظن — فى الحياة بعد» ؛ ويقول عن أبى الحسن، على بن محمد بن أبى الحسين الكاتب، صاحب كتاب التشبيهات : «وهو حى بعد» ؛ كما يقول عن أبى مروان ابن حيان، صاحب التاريخ الكبير فى أخبار أهل الأندلس : «وهو فى الحياة بعد، لم يتجاوز الاكتهال» ؛ وعن صديقه وصاحبه أحمد بن عبدالملك بن شهيد : «وهو حى بعد، لم يبلغ سن الاكتهال» . فمن هذه الإشارات نستطيع أن نضع بعض الحدود الزمنية التى تعين على تحديد زمن كتابته لهذه الرسالة، مما يصل بنا إلى تعيين فترة زيارته لقلعة البونت

وقد لا تجدينا هذه الإشارة فى مثل أبى الحسن، على بن محمد بن أبى الحسين، إذ كان مبلغ ما يقال عنه أنه عاش إلى أيام الفتنة ولا يزيدون [1] ، كما أن جدواها قليلة جداً فى مثل ابن التبانى المتوفى فى سنة ٤٣٦ ، إذ تدع

(١) انظر ابن بشكوال والضبى فى ترجمتيهما له .

المدى واسعا فسيحا بين أول الفترة وآخرها ، ولكن الإشارتين الأخريين الخاصتين بابن حيان وابن شهيد تقعان حيث نريد ، لأنه حدد فيهما سن كل منهما نوعا من التحديد ، فأولهما لم يتجاوز الاكتهال ، وثانيهما لم يبلغ هذه المرحلة بعد ، وهى المرحلة التى تقع بين سن الأربعين وسن الخمسين

فإذا علمنا أن ابن حيان ولد سنة ٣٧٧ ، ففترة الاكتهال بالنسبة إليه تقع بين سنة ٤١٧ ، ٤٢٧ . أى أنه ينبغى أن يكون ابن حزم كتب رسالته هذه قبل سنة ٤٢٧ . وبعد سنة ٤٢١ . على أن النص الآخر الخاص بابن شهيد يجعلنا نقارب فى تحديد التاريخ مقاربة أكثر من هذا ، إذ كان تاريخ ميلاده سنة ٣٨٢ ، وإذن يكون بدء فترة اكتهاله فى سنة ٤٢٢ . فإذا استقام لنا هذا، ولا شىء فيما نرى يدفعه، كان تاريخ كتابته هذه الرسالة ، فى فضائل علماء أهل الأندلس يقع فيما بين عام ٤٢١ ، ٤٢٣

وإذا كان ذلك كذلك ، فقد كانت زيارة ابن حزم لقلعة البونت بعيد ولاية أبى عبد الله بن قاسم لها .

وكان ابن قاسم هذا ، فيما يبدو من وصف ابن حزم له ، ووصف مجلسه « الحافل بأصناف الآداب ، الآهل بأنواع العلوم » ، أميراً من هؤلاء الأمراء الذين يأخذون بتقاليد الإمارة فى ذلك الوقت ، من تشجيع العلم ، وتقريب العلماء ، والمغالاة بالأدب ، والمنافسة فى اصطناع الأدباء وأهل الثقافة الرفيعة . ولا ريب فى أن كان لذلك أثره فى اتجاه ابن حزم إليه ، ونزوله لديه

على أن هناك فى هذه المقدمة ، التى أوردنا فقرات منها ، صفة أخرى

يصف ابن حزم بها أبا عبد الله بن قاسم ، ولا نحسب إلا أنه كان يعنيها ، وهى أنه « محط رحال الخائفين وملقى عصا التسيار » . فهل كان يعنى بذلك معنى عاما فى الرجل ، أم كان يقصد إلى شىء يمسه هو ويحسه بينه و بينه ؟ وهل كان ينظر إلى هشام المعتد بالله حين لجأ إليه ، واستجار به ، أم كان يقصد نفسه ؟ والواقع أن حصن البونت كان من الأمكنة القليلة التى ظلت تتمتع بقدر غير قليل من الهدوء ، فى غمرة ذلك الاضطراب العنيف الذى كانت تموج به الأندلس جميعا ، وحسبنا أن نعلم أن أسرة ابن قاسم هذه ظلت على إمارة حصن البونت مائة عام ، منذ الفتنة ، إلى عام خمسمائة ، وهى مدة غير قليلة ، تدل على نوع من الاستقرار لا نكاد نجد له نظيراً فى الأندلس فى ذلك الوقت . فليس عجيباً إذن أن يمضى ابن حزم إليها ، يلتمس الروح والهدوء بين جنباتها ، ولا سيما حين يكون صاحبها فى هذه المنزلة التى رأينا من تقريب العلماء وحمايتهم والمنافسة بهم

ويشبه عندنا أن يكون ابن حزم أخذ يستشعر منذ ذلك الوقت « المطاردة » الذى وسمت حياته فى هذا الشطر ، والتى ما زالت به تدفعه من بلد إلى بلد ، على النحو الذى صوره ابن حيان بقوله : « ... وكان يحمل علمه هذا (يعنى قول أصحاب الظاهر) ، ويجادل من خالفه فيه ، على استرسال فى طباعه ، واستناد إلى العهد الذى أخذه الله على العلماء من عباده ، ليبيننه للناس ولا يكتمونه ؛ فلم يك يلطف صدعه بما عنده بتعريض ، ولا يزفه بتدريج ، بل يصك به معارضه صك الجندل ، وينشقه متلقيه إنشاق الخردل ، فينفر عنه القلوب ، ويوقع بها الندوب ، حتى استهدف

إلى فقهاء وقتـه ، فتمالأوا على بغضه ، وردوا قوله ، وأجمعوا على تضليله ، وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو منه ، والأخذ عنه ، يقصونه عن قربهم ، ويسيرونه عن بلادهم ، إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره بتربة بلده ... الخ » [1]

ليس ببعيد عندنا أن يكون ابن حزم أخذ منذ ذلك الحين يعانى هذه « المطاردة » المتصلة ، وأن يكون دخوله حصن البونت ، ونزوله عند صاحبه ابن قاسم « محط رحال الخائفين وملقى عصا التسيار » مظهراً من مظاهر هذه المطاردة ، وأثراً من آثارها ؛ فوجد لديه الروح والطمأنينـة والنزوع العلمى ، وقد حفزه إلى كتابة هذه الرسالة التى تؤدى إلينا صورة أخرى مجتمعة من سعة اطلاعه ، فهى سجل حافل بمظاهر النشاط العلمى والأدبى فى الأندلس ، مما رآه وقرأه وتمعن فيه ، حتى يستطيع أن يحكم عليه عن بصيرة ، كما فعل فيما أورد من ذلك ، ولم يورد إلا « التـآليف المستحقة للذكر » على حد تعبيره ، « وأما التآليف المقصرة عن مراتب غيرها ، فلم نلتفت إلى ذكرها ، وهى عندنا ، من تآليف أهل بلدنا ، أكثر من أن نحيط بعلمها » . أما مالا يدخل فى علمه ، ولا يملك الحكم عليه ، فإنه لا يتردد فى المصارحة بذلك ، ناقلا آراء غيره ، كما فعل حين وصل إلى علم العدد والهندسة ، إذ يقول : «وأما العدد والهندسة فلم يقسم لنا فى هذا العلم نفاذ ، ولا تحققنا به ، فلسنا نثق بأنفسنا فى تمييز المحسن من المقصر فى المؤلفين

---

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٤١ .

فيه ، من أهل بلدنا ، إلا أنى سمعت من أثق بدينه وعقله ، من أهل العلم ، ممن اتفق على رسوخه فيه يقول ...الخ) [1]

ولم تخل هذه الرسالة من أصداء الحالة النفسية التى كان ابن حزم يعانيها ، تتردد فيها بقوة وصدق لهجة ، فلا تكاد تعرض فيها المناسبة ، حتى نراه مندفعا يعبر عن الألم الجاثم على قلبه ، والمرارة المستبدة بنفسه ، إذ يقول : « وأما جهتنا فالحكم فى ذلك ما جرى به المثل السائر : أزهد الناس فى عالم أهله . وقرأت فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : لا يفقد النبى حرمته إلا فى بلده . . . ولاسيا أندلسنا ، فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتى به ، واستهجانهم حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما فى سائر البلاد ، إن أجاد قالوا : سارق مغير ، ومنتحل مدّع ؛ وإن توسط قالوا : غث بارد ، وضعيف ساقط ؛ وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفى أى زمان قرأ؟ ولأمه الهبل! . وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين: إما شفوفا بائنا يغلبه على نظرائه ، أو سلوكا فى غير السبيل التى عهدوها ، فهنالك حمى الوطيس على البائس ، وصار غرضا للأقوال ، وهدفا للمطالب ، ونصبا للتسبب إليه ، ونهبا للألسنة ، وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما نحل ما لم يقل وطوق مالم يتقلد ، وألحق به ما لم يفه به ، ولا اعتقده قلبه . وبالحراء وهو السابق المبرز — إن لم يتعلق من السلطان بحظ — ألا يسلم من المتالف ، وينجو من المخاوف . فإن تعرض لتأليف

(١) نفح الطيب ٢ : ٧٧٤ (ط بولاق) .

غمز ولمز ، وتعرض وهمز ، واشتط عليه ، وعظم يسير خطئه ، واستشنع هين سقطه ، وذهبت محاسنه ، وسترت فضائله ، وهتف ونودى بما أغفل . . ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفائت ، والمطفف المستولى على الأمد [1] .

إن هذه العبارات ، وإن يكن كأنما يقولها فى الحكم على قضية عامة ، تعبر كل واحدة منها تعبيراً مريراً عن نفس موجعة ، وتكشف عن حالته خاصة ، وتصور ما يحس به إزاء هؤلاء الذين مايزالون به يقذفونه ويتعقبونه يطاردونه ، حتى كادت تضيق به الأندلس على سعتها ورحبها .

ومثل هذا الذى نراه فى هذه الكلمات من مشاعر موجعة ساخطة ، نراه فى قصيدة خاطب بها قاضى الجماعة بقرطبة ، عبد الرحمن بن بشر ، وقد عبر فيها عما يغمر نفسه من مرارة ، وما يبهظها من برم بهذه الحياة التى يحياها ، وما يسيطر عليه من نزوع إلى الخروج من هذه البلاد التى تكفره وتجحد علمه ، وتحاول بكل ما تملك أن تطمس فضله ، كما يجحد الأنبياء فى أوطانهم ، ويفقدون كراماتهم فى بلادهم وبين أهليهم . وإنه — وهو الأندلسى الصميم المتعصب لأندلسيته — ليتخيل نفسه ، وقد هاجر من هذه البلاد ، ومضى إلى العراق ، فلم يلبث أن أخذ هؤلاء الذى يضيقون به اليوم ويطاردونه ، يتطلعون إليه ، ويتأسفون لبعده عنهم ، وحرمانهم أن ينهلوا من بحره ، ويتشوفون لأخباره ورسائله تروى غليلهم ؛ وكأنما كان يجد فى هذا التخيل متاعا لنفسه المكروبة وقلبه الموجع .

---

(١) نفح الطيب ، ٢ : ٧٧٠ — ٧٧١ (ط بولاق) .

وها هى ذى القصيدة التى تعبر عن هذه الأحاسيس ، كما تعبر عن شعور بالفخر يملأ نفسه ، وليس فى حقيقة الأمر إلا النتيجة الطبيعية لما يعانيه من إنكار وجحود واهتضام حق :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ولكن عيبى أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع لجد على ماضاع من ذكرى النهب
ولى نحو أكناف العراق صبابة
ولاغرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلى بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل : أغفلته وهو حاضر وأطلب ماعنه تجىء به الكتب ؟
هنالك يدرى أن للبعد غصة وأن كساد العلم آفته القرب
فواعجبا ! من غاب عنهم تشوفوا له ودنو المرء من دارهم ذنب
وإن مكانا ضاق عنى لضيق على أنه فسح مهامهه سهب
وإن رجالا ضيعونى لضيّع وإن زمانا لم أنل خصبه جدب
ولكن لى فى يوسف خير أسوة وليس على من بالنبى ائتسى ذنب
يقول — وقال الحق والصدق — إننى
حفيظ عليم ، ما على صادق عتب [1]

وهكذا نرى كيف التقى الشعر والنثر فى التعبير عن تلك الحالة النفسية

---

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٤٥ — ١٤٦ وانظر نفح الطيب ١ : ٣٦٦ (ط بولاق) . وقد أورد الضبى (ص ٣٤٧) بيتين منها فى مدح قاضى الجماعة .

التى جعل ابن حزم يعانيها فى ذلك الوقت . إنه لون جديد من ألوان ذلك الإحساس بالغربة الذى رأيناه قبل اليوم

وعندنا أن هذا الشعر الذى يساير ذلك النثر فى التعبير عن تلك الأزمة ، قيل فى ذلك الوقت أيضا أو قبله بقليل ، فقاضى الجماعة ، عبد الرحمن بن بشر ، الذى وجه إليه بهذه القصيدة ، مات ، كما ينص على ذلك ابن بشكوال ، فى سنة ٤٢٢ (١) . وكان فقيها أديبا قوى الخلق وثيق النفس ، ولى القضاء فترة طويلة ، منذ العهد الحمودى الأول بقرطبة إلى عهد المعتد ؛ وكان هو الذى عزله . وقد كان له فى نفس ابن حزم منزلة كبيرة ، يدل عليها توجيهه إليه بهذه القصيدة ، ويعبر عنها هذان البيتان اللذان أوردهما الضبى :

ولو أنى خاطبت فى الناس جاهلا
لقيل دعاو لا يقوم لها صلب
ولكننى خاطبت أعلم من مشى
ومن كل علم فهو فيه لنا حسب

---

(١) الصلة ، ص ٣٢١ ، وانظر عن القاضى عبد الرحمن بن بشر أيضا ما جاء عنه فى تاريخ قضاة الأندلس للنباهى ، ص ٨٩ .

و بعد ، فهذه صورة من مشاعر القلق والألم والضيق التي كانت تداخل نفس ابن حزم ، بعد أن تخلى عن السياسة ، وانصرف انصرافا تاما إلى حياة العلم والدرس . فلا عجب أن يتخذ هذا القلق الداخلي مظهراً خارجياً فيكثر اضطرابه بين البلاد ، سواء كان ذلك نتيجة للمطاردة المادية أم المطاردة المعنوية ، فقد أشعره ذلك بالوحشة ، فأخذ يتنقل بين هذا البلد وذاك ؛ وكان ذهابه إلى « البونت » مظهراً من مظاهر هذه الحالة ، كما قلنا . وإن كنا لا نعرف من تنقلاته هذه بشرق الأندلس إلا القليل ، كمضيه إلى تلك الجهة من جهات الثغور : « البونت » ، وكذهابه بعد إلى « ميورقة » ، كما سنرى ذلك بعد قليل . ولكن عهد ميورقة يعتبر بالقياس إليه عهد استقرار ولكنه كان قبل ذلك ما يزال هنا وهنا، يطارده العلماء والسلطان كما يطارده قلقه النفسي المسيطر عليه .

وكما كشفت لنا هذه الرسالة التي ما تزال بين أيدينا ، والتي عرفتنا بذهابه إلى « البونت » ، طرفا من تلك الأزمة النفسية ، فإنها تعرفنا كذلك بإحدى هذه الرحلات ، إذ تشير إلى أنه قبل أن يتوجه إلى « البونت » كان قد مضى إلى صاحبه أبي بكر ، محمد بن إسحاق ، صديقه القديم ، وشريكه في بعض المحن التي تعرض لها في صدر شبابه ، فقد كان زميله في سجن

المرية حين اتهمهما خيران بالدعوة للأموية ، وكان رفيقه فى السفر إلى حصن القصر ، حين أطلق خيران سراحهما ، وفى الالتجاء إلى أبى القاسم عبد الله بن هذيل التجيبى ، وفى الإقامة لديه إقامة امتــدت عدة أشهر ، يرتقبان الفرج ويؤملان الدول ، وفى مالقه حين وقفا على ساحل البحر يودعان صديقهما أباعامر ، وهو راحل إلى المشرق .

ولا نكاد نعرف من شأن أبى بكر هذا — فيما عدا هذه العلاقة — أكثر مما يذكره عنه الضبى ، إذ يقول : «محمد بن إسحاق المهلبى ، أبو بكر الإسحاقى ، من أهل الأدب والفضائل . وهو الذى خاطبه أبو محمد ، على ابن أحمد برسالته فى فضل الأندلس » [(١)] ، ولـكن حسبنا ما نعرف من هذه العلاقة ، وهذه الصداقة الوثيقة التى تحفل بطائفة من أعز الذكريات كانت ولا ريب مما أثار ابن حزم إلى زيارته .

ويعرض لنا ابن حزم صورة من زورته هذه فى صدر تلك الرسالة ، إذ يقول : «أما بعد ، يا أخى أبا بكر . سلام عليك سلام أخ مشوق ، طالت بينه وبينك الأميال والفراسخ ، وكثرت الأيام والليـالى ، ثم لقيك فى حال سـفر ونقلة ، ووادك فى خلال جولة ورحلة ، فلم يقض من محاورتك أربا ، ولا بلغ فى مجاورتك مطلباً . وإنى لما احتللت بك ، وجالت يدى فى مكنون كتبك ، ومضمون دواوينك ، لمحت عينى فى تضاعيفها درجا ، فتأملته ، فإذا فيه كتاب لبعض الـكتاب ، من مصاقبينا فى الدار ، أهل أفريقية ... الخ » [(٢)]

---

(١) بغية الملتمس . ص ٥٠ .

(٢) نفح الطيب ٢ : ٧٦٧ (ط . بولاق) .

فالذى يبدو من هذا أن ابن حزم قصد صاحبه أبا بكر فى موطنه ،على شوق إليه ، وحنين إلى رؤيته ، والتماس للروح فى جواره ، ولكنه صادفه مرتحلا ، فلم يحل ذلك بينه و بين أن يحل فى بيته ، و يقضى بعضاً من وقته فى مكتبته ، يجيل فيها عينه و يده وعقله . ثم لا نعرف بعد ذلك شيئاً عن هذه الزيارة ، ولكنها — على كل حال — مثل لما كان يلابس حياة ابن حزم و يسيطر عليها من قلق واضطراب .

وقد ذكر ابن حيان فى النص الذى أوردناه عنه فى هذا ، أن اصطناع ابن حزم المذهب الظاهرى ، ومعارضته فقهاء وقته كان إلى جانب جهله بسياسة العلم — هو الذى جعلهم ينقمون عليه و يثيرون السلطان ضده . وقد ذكر بعد ذلك سبباً آخر فى اضطهاده ومناوأته ، وهو أمويته ، قال : « وكان مما يزيد فى شنآنه تشيعه لأمراء بنى أمية ، ماضيهم و باقيهم ، بالمشرق والأندلس ، واعتقاده صحة إمامتهم ، وانحرافه عمن سواهم من قريش ، حتى نسب إلى النصب لغيرهم »[1] . وهذا جهل بسياسة العصر أخطر من الجهل بسياسة العلم . لقد انصرف ابن حزم عن السياسة وممارستها ، ولكن بقى مذهبه السياسى عقيدة نظرية ، كأنها جزء من مجموعة آرائه الكلامية التى يدافع عنها و يناظر فيها . وهكذا اجتمع عليه الجهل بسياسة العلم والجهل بسياسة العصر ، ومتى اجتمعا معاً فقد جمعا حوله كل أسباب النفرة ، ووسماه عند الناس — ولا سيما فى ذلك العصر الفاسد المضطرب

---

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٤٢ .

– بكل سمات الشذوذ ، وعرضاه لكل صور القلق والوحشة والاغتراب النفسى .

وهكذا ينظر ابن حزم حوله فلا يكاد يجد صديقاً يثق به ، أو صاحباً يأنس إليه ، وكلما امتد به الزمن تكاثفت حوله الوحشة ، وزاد إحساسه بالغربة ، وشعر أنه يعيش فى جيل غير جيله . وهاهو ذا الموت يخترم كثيراً من أصدقائه الذين كان يجد فى صداقتهم شيئاً من الروح والأنس . فها هو ذا قاضى الجماعة عبدالرحمن بن بشر يقضى نحبه ، وهاهو ذا رفيق صباه وصديق شبابه ابن شهيد يموت وهو يناجيه ، كما رأينا من قبل ، إلى غيره وغيره .

وتمعن صلاته القديمة فى التصرم ، فها هو ذا ابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب رفيقه وصديقه ، لا يلبث حتى يكدر عليه ، ويفسد ما بينه وبينه . لقد وزرا معاً للمستظهر ، ثم كانا معاً فى سجن المستكفى ، ثم مضى كل منهما فى سبيله التى خطها له مزاجه وطبيعته . مضى أبو محمد فى سبيل العلم والدين والتأمل والتحنث ، ومضى أبو المغيرة فى سبيل المجد الدنيوى والترف المعنوى والمادى ، فامتزج بملوك العصر ، امتزاج الماء بالخمر ، كما كما يقول ابن بسام (١) ؛ فاتسعت بينهما الشقة وانفرجت الهوة ، فتنا كرا وتنابذا وتبادلا رسائل السباب وقصائد السخرية . وقد أورد ابن بسام طرفاً منها ، بعد أن أورد تصوير ابن حيان لهذه الخصومة بقوله : « وشجر الأمر بينه (يعنى أبا المغيرة) و بين الفقيه أبى محمد بن حزم ، ابن عمه ؛ وحدث بينهما

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١١١ ، ويقول فى موضع آخر (ص ١٥٨) إنه كان وزير منذر بن يحيى صاحب سرقسطة إلى أن قتل .

هنات ظهر عليـه فيها أبو المغيرة ، وبكته حتى أسكته ؛ لأنه كان أنبه من أبي محمد فى حضور شاهده ، وذكاء خاطره ، وحسن هيئته ، وبراعة ظرفه ، وجودة أدبه . وهو كان فى زمانه فى الجد والهزل صاحب اللواء، فى مجالس الأمراء ، مستنجزاً للبيضاء ، ممتطياً للشقراء ، وتصور فى قلوب الرؤساء ، فأجزلوا أرزاقه ، فعظمت صلاته وهباته »[1] .

ولسنا نعرف كيف شجر بينهما الأمر ، وكيف بدأت الخصومة . لعل أبا محمد أنكر على ابن عمه إسرافه على نفسه فى العبث والمجون والتحلل من القيود ، فكتب إليه ناصحاً ، فرد عليه أبو المغيرة ساخراً عابثاً . ونحن نعرف – مما بقى لنا من رسائل أبي المغيرة هذا إليه – إلى أى حد كان سليط اللسان فى السخرية ، كثير الافتتان فى معانى الهزء والتهكم ، وقد أتيح لنا فى فصل سابق أن نرى مثلا من ذلك ، ولم يكن ابن حزم يملك مجاراته فى هذا المنحى ، إنما كان حسبه إذا جاءته من ابن عمه رسالة من هذه الرسائل المفتنة أعجب افتتان فى السخرية الموجعة والعبث الشديد ، أن يجيبه بمثل قوله : سمعت وأطعت لقوله تعالى : « وأعرض عن الجاهلين » ، وسلمت وانقدت لحديثه عليه السلام : « صل من قطعك واعف عمن ظلمك » ، ورضيت بقول الحكماء : « كفاك انتصاراً ممن تعرض لأذاك إعراضك عنه » . وأقول :

تبغ سواى امرأ يبتغى سبابك ، إن هواك السباب
فإنى أبيت طلاب السفاه وصنت محلى عما يعاب

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ١٦٢

وقل ما بدا لك من بعد ذا وأكثر فإن سكوتى جواب [1]

وهكذا فسد ما بينه و بين ابن عمه، وأنبتت علاقة أخرى من علاقاته العزيزة، وانطفأ فى قلبه شعاع آخر من هذه الأشعة الآتية من عهد الصبا والشباب، لتضىء له تلك الوحشة المطيفة به، والظلمة المطبقة عليه، وما كان أشد حاجته إليها، فما يغنيه عنها هذه الجماعة من التلاميذ يأخذون عنه، ويحيطون به؛ ولكنهم على كل حال عزاؤه، إلى جانب ما هو مستيقنه من أنه يبلغ رسالته، و يؤدى حق الله على العلماء فى العلم: « ليبيننه للناس ولا يكتمونه »، فلا عليه بعد ذلك أن تجهمت له الدنيا، وتنكرت له الأيام.

على أنه كان يجد شيئاً من الروح فى هذا الذى كان يلجئه إليه ضغن العلماء وخوف الأمراء من الاضطراب فى الأرض، والتنقل بين مدن هذه الناحية من نواحى الأندلس وقراها، إلى أن رأى نفسه أخيراً فى تلك الجزيرة من مجموعة الجزر الثلاثة الشرقية، التى تقع بإزاء بلنسية فى البحر الزقاق، وهى مانسميها اليوم بجزائر الباليار (Iles Baléares) : تلك هى جزيرة ميورقة.

---

(١) الذخيرة — القسم الأول — المجلد الأول، ص ١٣٦ — ١٤٠.

وميورقة هذه (Majorque) هى أم الجزيرتين الأخريين ، كما يقول أبو عبد الله الحميرى ، وهما بنتاها ، وإليها مع الأيام خراجها [١] . فقد كانت إذن قصبة هذه الجزر الشرقيـــة ، منذ دخلها المسلمون ، وجعلوها بلاداً إسلامية ، فى سنة ٢٩٠ . وقد أتيح لهـا من الفتنة التى حدثت فى قرطبة والأندلس فى نهـاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس ، ما أصبحت به مركزاً من المراكز العلمية المعروفة المقصودة فى تلك البلاد

فقد رأينا أنه حين اضطربت قرطبة ، وأخذت الفتنة تنشر فيها الفزع والخوف ، جعل كثير من علمائها يتركونهـا ، ويفرون بأنفسهم وبعلمهم وبضمائرهم منها ، واتجه الـكثير إلى الشرق ، يلتجئون إلى المرية أو بلنسية ، وكان منهم من أبعد ، فجعل البحر بينه وبين موطن الفتنة ومثارها ، فاتخذ هذه الجزيرة موطنا له ، يبث فيها علمه ، ويقيم بين تلاميـذه ، فى روح وهدوء وطمأنينة . وبذلك نشطت الحياة العلمية فيها نشاطا ملحوظا ، وعرف ذلك عنها ، فكانت من البيئات العلمية المرموقة التى يقصدها أهل العلم ؛ حتى انبرى بعض المشارقة يقصدونها ، مثل موسى بن عبد الله بن الحسين

(١) صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٨٨ .

الطالبى ، من أهل الكوفة ، فقد قصدها وأقام فترة من الزمن يقرئ الحديث فيها ، كما يقص علينا ذلك ابن بشكوال (١)

وكما كان ذلك من أثر الفتنة التى جعلت كثيراً من علماء قرطبة وأدبائها ينفرون عنها ، كذلك كان من أثرها ما رأينا من قيام الإمارات المستقلة فى أنحاء الأندلس ، واتخاذ أمرائها مظاهر الملوك ، حتى كانوا يسمون بملوك الطوائف ، واصطناعهم ما عرفوا من تقاليدهم

وكذلك كان شأن مجاهد العامرى ، صاحب الجزائر الشرقية ، وقد كان من قبل واليا عليها ، من قبل المنصور ابن أبى عامر ، فلما زالت دولة العامريين ، وكانت الفتنة المبيرة ، استقل بها ، و بدا فى أتم مظاهر سلطانه ، وإن لم يتح له ما أراده وحاوله من مدّ هذا السلطان إلى سردانية . وكان مجاهد هذا من الشخصيات الجديرة بمثل هذه المظاهر ، يصفه ابن عذارى بأنه « كان ذا نباهة ورياسة ، زاد على نظرائه من ملوك طوائف الأندلس بالأنباء البديعة ، منها العلم والمعرفة والأدب . وكان مع ذلك من أهل الشجاعة والتدبير والسياسة » ، ثم يقول : « وكان مجاهد هذا من أهل العفاف والعلم ، فقصده العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب ، وألفوا له تواليف مفيدة فى سائر العلوم ، فأجزل صلاتهم على ذلك بآلاف الدنانير . ومضى على ذلك طول عمره » (٢)

وهكذا أصبحت ميورقة والجزائر الشرقية مركزاً من المراكز العلمية

---

(١) الصلة ، ص ٥٥٤ .

(٢) البيان المغرب ٣ : ١٥٥ — ١٥٦ .

والأدبية فى الأندلس ؛ إلى جانب مدينة دانية (Denia) التى اتخذها مجاهد، بعد، مقراً له، ولكنه جعل أمر الجزائر الشرقية إلى أحد أصفيائه، وهو أبو العباس، أحمد بن رشيق الكاتب ؛ ومما يدلنا على مكانة هذا الرجل أن الضبى يعتبر تقديم مجاهد له من أعظم مآثره، إذ يقول : « ومن أعظم فضائله (أى مجاهد) تقديمه للوزير الكاتب أبى العباس، أحمد بن رشيق، وتنويله عليه، و بسطه يده فى العدل وحسن السياسة »[1]. وأحمد بن رشيق هذا هو الذى رحل ابن حزم إلى ميورقة فى عهده، وظفر فيها — بفضله — بشىء ملحوظ من الاستقرار والدعة والطمأنينة

وكان أحمد بن رشيق هذا رجلا مثقفا بثقافة عصره، كريم الخلق، سمح النفس، حازما، قدمه الأمير الموفق، أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامرى على كل من فى دولته، لأسباب أكدت له ذلك عنده من المودة والثقة والنصيحة. فكان ينظر فى أمور الجهة التى كان فيها نظر العدل والسياسة، ويشتغل بالفقه والحديث، ويجمع العلماء والصالحين ويؤثرهم ويصلح الأمور جهده. قال الحميدى : «ومارأينا من أهل الرياسة من يجرى مجراه، مع هيبة مفرطة، وتواضع، وحلم عرف به، مع القدرة »[2]

فى عهد هذا الوالى الذى أخذ فى ولايته ميورقة بتقاليد الملوك والأمراء، وتقاليد أميره مجاهد خاصة، استطاع ابن حزم أن يجد من هذه الجزيرة موئلا يئل إليه، ويسكن فيه شيئا من قلقه

(١) بغية الملتمس، ص ٤٥٩ .
(٢) المرجع نفسه، ص ١٦٧ .

وفى هذه الجزيرة نجح ابن حزم فى بسط مذهبه ، وفى الظفر ببعض التلاميذ المعجبين به ، المؤيدين له ، وعلى رأس هؤلاء التلاميذ الحميدى ، أبو عبد الله محمد بن فتوح الأزدى ، وكان من أهل هذه الجزيرة ، وإن يكن قرطبي الأصل . وقد استهواه ابن حزم بقوة حجته وحسن سمته وشدة إخلاصه ، كما وجد ابن حزم فيه تلميذا مقبلا على التحصيل ، متيقظا لما يلقى عليه ، مخلصا له ، حسن الفهم لمذهبه ، فقويت الصلة بينهما . وظل الحميدى متصلا بأستاذه ، إلى أن أزمع كلاهما ترك ميورقة : الحميدي إلى المشرق الذى يهفو إليه قلب كل طالب علم وعالم فى الأندلس ، فبدأ رحلته إلى إفريقية ، فمصر ، فالحجاز ، فالشام ، فالعراق ، وابن حزم إلى بلاد الأندلس الأخرى ، يضرب فيها ، وينشر علمه ومذهبه بين أهليها . وقد بقى الحميدى على وفائه لأستاذه ، يحدث عنه ، ويعنى بتدوين آثاره . وكان من ذلك أن جمع سفره ورتبه على حروف المعجم (١)

ولكن صفو الحياة الذى وجده ابن حزم فى ميورقة لم يدم طويلا ، فلم تلبث الأيام أن تنكرت له ، ولم تلبث عوامل الحقد والحسد والبغضاء أن دبت دبيبها ، وعاودت معه صنيعها ، فأزعجته وأثارت الغبار حوله ، ولم تزل تثيره حتى نبا به موضعه فيها . ذلك أنه لم يكن من الطبيعى أن يظل ابن حزم طويلا متمتعا بنعمة الروح والهدوء ، وهو من تعرف حدة مزاج وسلاطة لسان ، واعتدادا بالنفس يصل أحيانا إلى حد الشذوذ ، ثم هو الذى يدعو

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٤٥ . وانظر الحميدي فى الصلة ص ٥٠٢ ، معجم الأدباء ، ١٨ : ٢٨٢ ، نفح الطيب ١ : ٣٨١ (ط . بولاق) .

إلى مذهب فى الدين جـديد يخالف جميع ما ألفه الناس واستكانوا إليه واطمأنوا أجيالا به ، ولم يحك شىء فى صدورهم من جهته ، وهو حين يدعو إليه لا يأخـذ فى دعوته بشىء من التلطف والترفق أو المجاراة والمسايرة ، وإنما كان يصك بها معارضه — كما يقول ابن حيان — صك الجندل .

وإذا كان وجد فى حماية ابن رشيق ما مكن له من الاستمرار فى دعوته ، وجمع طائفة من التلاميذ حوله ، فلم يكن ذلك ليمنع الأحقاد والضغائن أن تتسلل إلى النفوس وتتدسس إلى القلوب ، بل لعل ذلك كان مما يزيدها ويثيرها . وكذلك كان الأمر ، ولكن هذه الأحقاد والضغائن كان يمسكها فى صدور أصحابهـا من فقهاء ميورقة ما كانوا يستشعرونه فى أعماقهم من ضآلة أمرهم وهوان شأنهم ، وضعفهم عن جداله ومناظرته ، ويأسهم من إفساد نفس ابن رشيق عليه ، فظلوا يكتمون همهم ويكظمون غيظهم دون أن يروا أنهم يملكون شيئا إزاءه ، وإزاء ما هو ماض فيه من استهواء هذه الطائفة من الشبان والأحداث ، كالحميدى والعبدرى ، إلى أن هبط عليهم فرج الله من السماء ، إذ سبق إليهم أبو الوليد الباجى ، عائداً من المشرق

قال القاضى عياض ، فيما نقله عنه المقرى : « ولما قدم الأندلس (يعنى أبا الوليد الباجى) وجد لكلام ابن حزم طلاوة ، إلا أنه كان خارجا عن المذهب ، ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه ، فقصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه ، واتبعه على رأيه جمـاعة من أهل الجهل ، وحل بجزيرة ميورقة فرأس فيها ، واتبعه أهلها ، فلمـا قدم أبو الوليد كلموه فى ذلك ،

فدخل إليه وناظره وشهر باطله . وله معه مجالس كثيرة[1] » .

كان أبو الوليد الباجى هذا شخصية علمية كبيرة ، قرطبى المولد كابن حزم[2] . ولـكنه أصغر منه سنا ، فقد ولد سنة ٤٠٣ ، واعتمد على نفسه فى تحصيل العلم . ثم لم يكد يبلغ مبلغ الرجال ، حتى بدأ رحلته إلى المشرق ، ولبث فى رحلته هذه ثلاثة عشر عاما ، ينتقل بين أنحاء الشرق المختلفة ، ويعقد صلاته بعلمائه، سواء منهم علماء الحديث أم علماء الكلام ، « فبرع فى الحديث وعلله ورجاله ، وفى الفقه وغوامضة وخـلافه ، وفى الكلام ومضايقه » كما يقول المقرى[3] . وقد أفاده هذا التجوال فى البلاد قوة فى الشخصية ، ولباقة فى تناول الأمور وحسن تأت لهـا ، وهذا إلى أنه نشأ أديبا يقول الشعر ، ويحسن تدبيج الكلام . وقد استطاع فى رحلته هذه أن يظفر بتقدير علماء المشرق له ، وإعجابهم به ، حتى كان يلقب عندهم بشيخ الأندلس

وعاد من رحلته هذه إلى الأندلس ، يسبقه إليهـا صيت يهز مشاعر الأندلسيين ، ويملأ نفسه ما لقيه من تقدير ، وما حصله من علم ، وما أفاده من تجربة . فلم يكد يضع قدمه فى موطنه الأول ، ويتنسم نسائمه ، ويداخل البيئات العلمية التى تركها منذ ثلاثة عشر عاما ، حتى كان من أول ما راعه

(١) نفح الطيب ١ : ٣٥٩ .

(٢) هكذا قال ابن بشكوال إنه من أهل قرطبة (الصلة ص ١١٩) ، وقال المقرى (١ : ٣٦٤) : « وأصله من بطليوس وانتقل جده إلى باجه قرب أشبيلية » . ولا تعارض بين القولين .

(٣) نفح الطيب ١ : ٣٦١ .

هذه الأصداء التى تتجاوب باسم ابن حزم ، ومهاجمته لجميع الفقهاء المتقدمين ، وفى مقدمتهم مالك ، إمام ذلك الأفق منذ عهد بعيد . وها هم أولاء فقهاء ميورقه يتشوقون إليه ، و يتطلعون نحوه ، و يمدون برجائهم إلى قوة ذهنه ، وسعة معارفه ، وحضور شاهده ، وقدرته على الجدل، وشدة حماسته للإمام مالك . أليس هو صاحب هذه الكتب الكثيرة الذائعة فى شرح المذهب و بيان أصوله ؟ أليس هو المتمرس بالجدل فى مجالس فقهاء بغداد ، كأبى الطيب الطبرى ، وأبى بكر الخطيب البغدادى ، وأبى إسحاق الشيرازى ؟ أليس هو تلميذ أبى جعفر السمنانى المتكلم بالموصل ، وقد أقام معه سنة كاملة ، حذق فيها أساليب المتكلمين ، وعرف مسالكهم (١)

بهذا استقبل فقهاء ميورقة أبا الوليد الباجى ، و بذلك أثاروه على ابن حزم .

وانعقدت المناظرات بين الرجلين ، لا فى الفقه فقط ، بل فى الكلام أيضاً ، فقد كان أبو الوليد الباجى مقدم الأشاعرة فى الأندلس ، والمتحدث بلسانهم ، و بين ابن حزم والأشاعرة مانعرف من خصومة (٢) . ولا ريب أن ابن حزم لقى خصما من نوع جديد ، جعله يقول فيه : « لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكى ، بعد عبد الوهاب ، إلا مثل أبى الوليد لكفاهم » (٣) .

وأكبر الظن أن ابن حزم أنس أول أمره بهذه الخصومة ، و بما أتاحته لمجالسه من نشاط وحيوية ، لعلهما كانا يشوقانه فى هذه الجزيرة . ولكن الخصومة العلمية لا تلبث حتى تذهب مذهب اللجاجة ، فإذا هى مرتع

---

(١) انظر فى أبى الوليد : الصلة ، ص٩٩ ، نفح الطيب ١ : ٣٥٩ ، معجم الأدباء ١١ : ٢٤٦ .

(٢) انظر شيئا مما كان بين ابن حزم والباجى فى الفصل ١ : ٨٨ ، ٤ : ٢٠٨

(٣) نفح الطيب ١ : ٣٦٠ .

خصب تعيث فيه شهوات النفوس ونزعات القلوب ، والضغائن المستسرة والأحقاد الكامنة . وكذلك كانت هذه المناظرات والخصومات العلمية مثاراً لكل ذلك ، وإن طابت بها نفس ابن حزم للوهلة الأولى ، فإنها لم تلبث أن أثارت عليه ما أزعجه عن ذلك المقام

ولسنا نعلم على وجه اليقين الوجوه التى أخذتها هذه الخصومة، والملابسات التى لابستها. ولكنا لا نبعد أن تكون هذه الخصومة قد أتاحت للدسائس أن تجد طريقها لدى السلطان، ولا ندرى إن كان ممثل السلطان فى ميورقة كان لا يزال أحمد بن رشيق أم كان قد تغير . على أنه مهما يكن من شىء فقد كان أبو الوليد الباجى من الشخصيات المرنة التى تحسن عقد الصلة بالسلطان ، ولعل تلك المرونة كانت مما أفاده من رحلته الطويلة . وإنهم ليحكون عنه أنه قال لبعض أصحابه، وقد ذكر له صحبة السلطان: «لولا السلطان لنقلتنى الذر من الظل إلى الشمس» [1] ، إلى غير ذلك ، فلعل هذه الملابسة للسلطان كان لها أثرها فى بلوغ تلك الدسائس غايتها ،حتى لم يجد ابن حزم بداً من أن يترك ميورقة .

وهكذا بدأ صاحبنا من جديد يضرب فى الأرض ، وينتقل بين هذا الإقليم وذاك ، يعانى ما يعانى من أحقاد الفقهاء وضغائنهم ودسائسهم ، وهو ماض فى الدعوة لمذهبه ، وجمع التلاميذ حوله أينما حل ، يقرأ عليهم ، ويقرر لهم رأيه ، مطبقا على أبواب الفقه ، وعلى مسائل الكلام

وأخيراً انتهى به المطاف إلى أشبيلية ، ثم إلى لبلة ، منبت أسرته ، وموطن أسلافه ، كما مضى القول أول هذا الحديث

---

(١) نفح الطيب ١ : ٣٦٢ (ط بولاق) .

ولا ندرى على وجه الضبط ما الذى دفع ابن حزم إلى أشبيلية ؟ أهو الحنين الخفى إلى ذلك الإقليم الذى كان بالقرب منه منشأ أسرته وأجداده الأولين ؟ أم لأنه كان يتوسم الخير فى هذه الإمارة الواقعة إلى أقصى الغرب كما توسم الخير فى ميورقة الواقعة فى أقصى الشرق ، وكان يرجو أن يجد فى صاحب أشبيلية ما وجده فى أمير ميورقة ؟ أم أنه وقد خبر الشرق — وكان مناط أمله لمكان العامريين به — فلم يحمده ، مضى إلى الغرب علّه يستطيع أن يقر فيه ويهدأ به ؟ أم أنه كان هنالك شىء آخر غير تلك العوامل النفسية من الملابسات الخارجية ، يرجع إلى ما كان بين الشرق والغرب من صلة فى ذلك الوقت ، تتمثل فى الحلف الذى كان بين العامريين والعباديين ، وفى الصهر الذى كان بين مجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية ، و بين المعتضد العبادى صاحب أشبيلية .

مهما يكن من أمر ، فقد كانت أشبيلية فى ذلك الوقت أقوى الإمارات الأندلسية جميعاً ، وكان أميرها أقوى ملوك الطوائف قاطبة ، وهو إذ ذاك المعتضد بن عباد ، أبو عمرو ، عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد . وقد ورث ملك أشبيلية من أبيه ، بعد أن وطده ، ومهد صعابه ، وأذاع هيبة هذه الأسرة فى نواحى الأندلس كلها ، وأخضع ما حول أشبيلية لها ، وعقد ما بينه و بين شرق الأندلس بأن زوج ابنه عباداً هذا من ابنه مجاهد

العامرى ، واستطاع بذلك أن يخلف هذا الملك لابنه ، وهو مطمئن قرير العين .

وكان عباد من الشخصيات القوية الموفورة الحيوية ، فخلع على هذا الملك رداء سابغاً من المهابة والأبهة ، واستطاع أن يبلغ من ذلك مبلغاً بعيداً فقد كان كما يقول المراكشى فى صفته : « أوحد عصره شهامة وصرامة وشجاعة قلب وحدة نفس ، كانوا يشبهونه بأبى جعفر المنصور من ملوك بنى العباس »[1] .

وكذلك كان شأنه فيما يتصل بتقريب العلماء والمباهاة بالأدباء والأدب ، فقد كان ذلك — كما قلنا — لوناً من ألوان الترف الذى يتنافس فيه ملوك العصر ، وكان الرجل من ذلك على قدر مكانه بين الملوك ، وينقل ابن عذارى عن ابن القطان قوله فى صفة المعتضد، بعد أن ذكر سطوته وسياسته وتدبيره وجوده : « وكان لأهل الأدب عنده سوق نافقة ، وله فى ذلك همة عالية . ألف له الأعلم أديب عصره ، ولغوى زمانه ، شرح الأشعار الستة ، وشرح الحماسة ؛ وألف له غيره دواوين وتصانيف لم تخرج إلى الناس »[2] . ولكنه لم يكن يكتفى بذلك ، فكان ما يزال يعمل وسائله فى استقدام هذا العالم أو ذاك الأديب أو ذلك العظيم ، ليكونوا زينة لدولته ، كما يقول ابن بسام : « وكانت لعباد همة فى اصطحاب الأحرار ، واستجلاب ذوى الأخطار ينصب لذلك الحبائل ، ويعمل فيه الحق والباطل »[3] .

---

(١) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ٩٧ (ط القاهرة ، ١٩٤٩م) .
(٢) البيان المغرب ٣ : ٢٨٤ .
(٣) الذخيرة ، القسم الرابع — المجلد الأول ص ١٣٣

فليس يبعد عندنا أن يكون المعتضد ، وهذا شأنه ، هو الذى زين لابن حزم أن يقصد أشبيلية ، فقصدها ، بعد أن نبابه كل مكان حله ، وبرم به كل أمير نزل بجواره . لقد علت به السن ، فهو الآن شيخ كبير فى الستين أو ما فوقها ، فما أقر لعينه أن تطمئن به الدار ، حتى يأتيه أجله وهو وادع قار. وكذلك مضى إليها، واستأنف فيها مرحلة جديدة من مراحل حياته التى وقفها على العلم والدرس ، وعلى تبصير الناس بما حجبه عن بصائرهم التقليد، وما صرفه عن إدراكهم التهاون فى النظر والتدبر والتأمل ؛ وعلى الدعوة إلى مذهبه ، ولم تزده الأيام ومحاربة الفقهاء له، وتعرضه للكيد والأذى والتشرد بسببه ، إلا إيماناً به ، وتفانياً فى الدعوة إليه ، والمجادلة عنه والمكافحة دونه .

وكان من أخص تلاميذه فى هذه الفترة أبو محمد ، عبد الله بن محمد بن العربى ، وقد حكى هو تلمذته لابن حزم فى هذه العبارة التى يوردها ياقوت عن أبى بكر ، محمد بن طرخان ، قال : « وقال لى الوزير الإمام أبو محمد ابن العربى: صحبت الشيخ الإمام أبا محمد على بن حزم ، سبعة أعوام ،وسمعت منه جميع مصنفاته ، حاشا المجلد الأخير من كتاب الفصل ؛ وهو يشتمل على ست مجلدات من الأصل الذى قرأنا منه ، فيكون الفائت نحو السدس وقرأنا الإيصال أربع مجلدات . . . ولم يفتنى من تأليفاته شىء سوى ما ذكرته من الناقص،وما لم أقرأه من كتاب الإيصال . وكان عند الإمام أبى محمد بن حزم كتاب الإيصال فى أربع وعشرين مجلداً ، بخط يده ، وكان فى غاية الإدماج . قال : وقال لى الوزير أبو محمد بن العربى : وربما كان للإمام أبى محمد بن حزم شىء من تواليفه ، ألفه فى غير بلده ، فى

المدة التى تجول فيها بشرق الأندلس ، فلم أسمعه . ولى بجميع مصنفاته ومسموعاته إجازة منه ، مرات عدة كثيرة» (١) .

ولا نكاد نعرف شيئاً عن أبى محمد بن العربى هذا ، سوى ما يذكر فى سياق الحديث عن ولده أبى بكر ، أنه سمع منه ، وأنه رحل إلى المشرق معه ، بعد انتهاء دولة العبادين ؛ وإلا ما يوصف به — فيما أورد ياقوت — من وصفه بصفة الوزير الإمام . ولعله من بنى العربى الذين يشير إليهم ابن عذارى ، ممن وطد الأمر للقاضى أبى القاسم بن عباد ، « من أكابر أشبيلية المرتسمين بالوزارة » ، إلى جانب بنى الزبيدى وبنى مريم (٢) .

وكذلك يذكر من تلاميذ ابن حزم فى هذه الفترة الطرطوشى ، أبو بكر ، محمد بن الوليد الفهرى ، المعروف بابن أبى رندقة ، صاحب سراج الملوك ، ونزيل الإسكندرية وصاحب الضريح المعروف فيها ، على أنه لم يذكر هذه التلمذة إلا المقرى ، فقد نص على أنه « قرأ الأدب على أبى محمد ابن حزم بمدينة أشبيلية» (٣) . أما غير المقرى كابن بشكوال فى الصلة . والضبى فى بغية الملتمس ، فلم يشر إلى ذلك أحد منهما ، بالرغم من عنايتهما ببيان شيوخه .

فالأمر إذن موضع شبهة ، فإذا علمنا أن المقرى نفسه ، المنفرد بهذه الرواية ، يذكر بعدها بقليل أن الطرطوشى ولد « سنة إحدى وخمسين وأربعمائة تقريباً » ، أى قبل وفاة ابن حزم بخمسة أعوام فقط ، علمنا مبلغ هذه الرواية من الصحة .

---

(١) معجم الأدباء ١٣ : ٢٤٢ — ٢٤٣ .

(٢) البيان المغرب ٣ : ١٩٥ . وانظر فى أبى بكر ابن العربى : نفح الطيب ١ : ٣٤٠ تاريخ قضاة الأندلس للنباهى ص ١٥٠ ، بغية الملتمس ص ٨٢ ، الصلة ص ٥٣١ .

(٣) نفح الطيب ١ : ٣٦٩ .

ولم يطل بابن حزم المقام فى أشبيلية ، حتى عاد إلى ماتعوده من معاناة كيد الفقهاء له ، وسخط السلطان عليه ، وتجهم الجو حوله . أما الأمر بينه و بين الفقهاء فطبيعى لايحتاج إلى تفسير ؛ وأما الأمر بينه و بين السلطان فإذا كان مرجعه من قبل إلى الوشايات وضعف الأمراء إزاءها ، وانسياقهم وراءها ، فإنما مرجعه الأول هنا إلى طبيعة المعتضد ، ومزاجه المعقد ، على النحو الذى تصوره سيرته ، وتجلوه أخباره ، فى مختلف مصادرها ، ومن شتى جهاتها .

كان المعتضد يمثل الرجل الذى أخذ منه سكر السلطان كل مأخذ ، فهو لايعبأ بشىء ، ولا يرعى أى حق ، ولا يقيم وزناً لأى اعتبار غير هواه الطاغى ، ونزواته المتضرمة ، وبدواته العارمة ، وقد فتنته هذه الحيوية الدافقة المتسعرة التى يفيض بها صدره وتلتهب بها أحشاؤه ، أشد الفتنة ، وأنمله ذلك الملك العريض الشامخ ، بالقياس إلى من حوله من الملوك والأمراء ، وذلك النصر الذى ما زال يحرزه عليهم ؛ فهم بين خاضع له ، مستكين إلى سلطانه ، قد أسلم له صاغراً ، فهو يحكم باسمه ويقضى بأمره ؛ و بين هارب منه ، آثر أن يدع بلاده له ، ويلتجئ إلى صاحب قرطبة ؛ و بين موادع له ، إذ كان من القوة بحيث يستطيع أن يمنعه ، ولكنه

لا يملك فوق ذلك ، كابن الأفطس صاحب بطليوس . و بذلك لم يكن للرجل مثل أعلى يسعى إليه ويحققه ، إنما هى نزواته وبدواته وشهواته وخطراته ، تصدر عن طبيعة عارمة، وتمدها ظروف موائمة ؛ هى التى توجهه وتلون حياته وتطبع تصرفاته بطابعه ، فإذا هى مزاج من الخير والشر ، وخليط مضطرب من الجمال والقبح ؛ وقد بلغت من هـذا وذاك الغاية ، فأفعاله الجميلة غاية فى الجمال والروعة ، وكبائره الشريرة غاية فى الشناعة والبشاعة ، كما يقول ابن عذارى : «وأخبار عباد فى جميع أفعاله ، وضروب أنحائه ، عالياته وسافلاته ، غريبة بعيدة »[(١)].

و بذلك كانت صورة المعتضد مقرونة فى الأذهان بالرغبة والرهبة ، والرجاء والخوف ، والحب والبغض ، إذ كانت نزواته قريبة لاتعفى شيئاً مهما جل ، ولا تقف عند حد مهما كان . وكان ذلك شيئا شائعاً متعارفاً ، وقد أوردنا من قبل عبارة ابن بسام عن همته فى « اصطحاب الأحرار ، واستجلاب ذوى الأخطار » ، ولكن ابن بسام لا يلبث أن يعقب على تلك الصفة بما يبين عدلها — وكان سياق الحديث عن ابن شرف القيروانى — فقال : « حتى إذا عشوا إلى سرجه ، واغتروا بزبرجه ، سامهم ردّ قبيس على أبيه ، وأخـذهم بالسعاية بين الفرقد وأخيه ؛ فن أعياه منهم ركوب الصعاب ، وعضه التقلب بين المضايق والرحاب ، عزه فى الخطاب ، وأطاع به سلطان الارتياب ، أيمسكه على هرن أم يدسه فى التراب » . ثم أخذ فى الحديث عما ساق هذه الفقرات من أجله ، من خبر ابن شرف معه ،

---

(١) البيان المغرب ٣ : ٢٠٧ .

وتفاديه لقاءه . وكان مما أورد له فى هذا قطعة من الشعر ، تصور هذا المعنى تصويراً بديعا ، قالها وجعل الخطاب فيها للمعتضد :

أأن تصيدت غيرى صيد طائرة ... أو سعتها الحب حتى ضمها القفص
حسبتنى فرصة أخرى ظفرت بها ؟ ... هيهات ! ما كل حين تمكن الفرص
وظاهر حسن أيضا لقصتها ... لكن لها باطن فى طيه قصص
الك الموائد للقصّاد مترعة ... تروى وتشبع ، لكن بعدها غصص
ولست أعجب من قوم بها انتشبوا ... لكنما عجبى من معشر خلصوا
ولم يطب قط لى من يلذّ ولا ... سلوى إذا كان فى عقباهما مغص

فهذا هو المعتضد الذى انتهى المطاف بابن حزم إلى مملكته ؛ وهذه هى حقيقة حاله من وجهيها ، وطبيعته الغالبة عليه ، المصرفة له ، أفكان من الممكن أن يجد ابن حزم ، القلق بطبيعته ، المعتد بنفسه وشخصيته ، ما يرجو من الهدوء والرضا والطمأنينة فى جوار ذلك السلطان ، الذى ما تزال زعازعه وعواصفه وأعاصيره تملأ الجو حوله بكل معانى الاضطراب والتقلب والغدر والعبث ؟ أكان من الممكن أن يمضى هنا ابن حزم فى سبيله ، ويستمر فيما أخذه على نفسه من بث آرائه وإذاعة أفكاره ، التى لا يدين بها لغير تفكيره هو ، ولا يصدر بها عن منطق غير منطقه ، فى صراحته التى لا تتحرج ، وعبارته المبسوطة الماضية التى لا تتوقف ولا تتلجلج ، دون أن يقع فى شىء ينكره السلطان ، أو فى عبارة أو رأى يستغله ذو الحقد والشنآن ، فيطيرون به كل مطار ؟

وإذا كنا لا نستطيع أن نعرف على وجه التحقيق مثار الخصومة التى نشبت بين ابن حزم والمعتضد ، ومبعث الفتنة التى أحاطت به ، وعكرت الجو حوله ، فقد يكون فيما رأينا من طبيعة ابن حزم من ناحية ، وطبيعة المعتضد من ناحية أخرى ، ما عسى أن يكون حسبنا من ذلك ، وما يمكن أن نكتفى به عن تعقب الأسباب ، وتلمس العلل ، وتتبع الحالات والمراحل. ولكنا مع ذلك نجد بين يدينا نصا منقولا عن ابن حزم ، يعرض فيه لما انتهى إليه أمر الحكم فى الأندلس ، بعد انتهاء دولة الأمويين ، ويعرّض بتلك الخرافة أو الخدعة التى وطد عليها أساس الدولة العبادية فى أيام والد المعتضد هذا ، أبى القاسم محمد بن عباد ، حين زعم للناس أن هشام بن الحكم الأموى لم يمت بعد ، وانه حى يرزق يعمل الحلفاء وصناعة الحصر ، مختفيا متنكرا ، وأنه وفق إليه ، وأحضره عنده ، ورد إليه حقه ، وأقامه فى أشبيلية خليفة كسابق عهده فى قرطبة ؛ وأنه وقد صار خليفة ، صيّر إلى ابنه إسماعيل حجابته . وتمت بذلك الخدعة الكبرى التى استغل لها رجلا شبيها بهشام ، يقال له خلف الحصرى ، فآمن بها من آمن ، وأذعن لها صاغراً من أذعن ولكنها كانت — على كل حال — العماد القوى الذى ابتنت عليه أسرة العباديين ملكها ، وشيدت عليه دولتها ؛ حتى أتيح لها ذلك المكان الممتاز بين ملوك الطوائف . فما عسى أن يكون الأمر حين يجىء رجل كابن حزم ، يعرّض فى أشبيلية نفسها ، بهذه الخرافة أو الأخلوقة على حد تعبيره ، على مسمع من المعتضد . وقد ظلت المنابر تتجاوب بالدعاء لإمامه ذلك « فى

غياهب الحجب » كما يقول ابن عذارى ، إلى سنة ٤٥١ ، حين رأى من الحزم أن يعلن موته

وهذا النص الذى بقى لنا من كلام ابن حزم يمثل لنا لوناً من ألوان مهاجمته لهـذه الأسطورة ، وأكبر الظن أنه كان ما يزال يسوق مثل هذا الحديث فى سياق كلامه عن الإمامة ، ووجوب توحدها ، كما نعرف ذلك من رأيه فيها »[١]

قال : « واجتمع عندنا فى صقع الأندلس أربعة خلفاء ، كل واحـد منهم يخطب له بالخلافة ، بالموضع الذى هو فيه . وذلك فضيحة لم ير مثلها ، دلت على الإدبار المؤيد . أربعة خلفاء فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، كلهم يدعى بأمير المؤمنين ، أخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها . فإنه ظهر رجل يقال له « المؤيد الحصرى » ، بعد اثنين وعشرين عاماً من موت هشام ، فادعى أنه هشام ، وشهد له أنه هو قومٌ خساس من خصيان ونساء ، فبويع ، وخطب له على أكثر منابر الأندلس ، وسفكت الدماء به ، وتصادمت الجيوش فى أمره . وأقام المدّعى أنه هشام نيفاً وعشرين سـنة ؛ والقاضى محمد بن إسماعيل فى رتبة الوزير بين يديه ، والأمر إليه . وكان محمـد بن القاسم الحسنى خليفة بالجزيرة ، ومحمد بن إدريس بمـالقة ، وإدريس بن يحيى بسبتة »

بمثل هذه العبارات الصريحة القاطعة التى تجمع إلى الصراحة السخرية والتهكم ، كان ابن حزم يهاجم نظام الحكم فى الأندلس عامة ، والأساس

(١) انظر فى تفصيل رأيه هذا : الفصل ٤ : ٨٧ — ٨٩ .

الذى قام عليه حكم العباديين فى أشبيلية وما حولها خاصة ، فيعرض تلك الأسطورة التى عنى بنو عباد أشد العناية بتزويرها وحمل الناس عليها ، فى هذا المعرض . أفكان من الممكن أن يصبر المعتضد ، وهو من عرفنا ، على هذا الهجوم السافر ، وهذه السخرية الممضة ، وذلك التهكم اللاذع ؟ وأكان من الممكن مع هذا ألا يجد فقهاء أشبيلية فى ذلك فرصة يهتبلونها للإيقاع بابن حزم لدى المعتضد ، حتى يبلغوا مأربهم ويشفوا حفيظتهم ، من ذلك الذى اقتحم عليهم وسفه مذهبهم وأصغر شأنهم ؟

وهكذا تجتمع الأحقاد والضغائن مرة أخرى على هـذا الشيخ الذى ما يزال رغم شيخوخته ، ورغم مناوأة الأيام له ، متقد الحمية ، فتثير السلطان عليه ، يطارده ويتعقبه ؛ فما يملك بعد إلا أن يدع أيضاً مقامه هذا ، ويخرج من هذه القرية الظالم أهلها

ولم يبق لابن حزم إلا أن يمعن فى الاتجاه إلى الغرب ، نحو ذلك الأفق الذى نشأت فيه أسرته الأولى . ولعل ذاكرته كانت ما تزال تحتفظ بما كان يقص عليه فى طفولته ، من صور حياة هذه الأسرة هنالك ، فهى الآن ماثلة له، وقد عاد آخره على أوله . ومضى ابن حزم فى هذا الاتجاه، حتى انتهى «إلى منقطع أثره ، بتربة بلده، من بادية لبلة» على مايقول ابن حيان

وكان أقليم لبلة (Niébla) ، قد صار إلى حكم المعتضد ، بعد طائفة من الحروب والمكايد والخدع ، مع صاحبها يحيي بن أحمد اليحصبي . ثم مع ابن أخيه فتح بن خلف ، حتى خلص له تماما ، سنه ٤٤٥ . وقد لجأ الرجلان إلى قرطبة واحداً بعد الآخر . وأنا لست أدرى ما الذى كان يصرف ابن حزم عن قرطبة ، وقد كانت فى ذلك الوقت ملجأ كثير من المغضوب عليهم ، ومأمن كثير ممن شردهم الخوف من عباد ، فهو يؤثر — كما نرى — أن يمضى إلى تلك البادية التى تقع تحت سلطان المعتضد ، على أن يعود إلى قرطبة ، معقّ تمائمه ، وملهى صباه ، ومسرح شبابه .

ترى أكان ابن حزم يؤثر أن تبقى له ذكرياته عنها صوراً عقلية خالصة ، فهو يراها فى نفسه ، ويستمتع بها فى خياله ، إذ كان يخشى أن تصطدم تلك الصور الحبيبة بالواقع البغيض هنالك ، بعد أن تغير كل شىء وتحول ؟

ربما كان ذلك هو الذى جعله يؤثر تلك البقعة المنقطعة ، يفرغ فيها لنفسه ، ويستشعر فيها الهدوء والدعة ، ويخلص فيها لتلاميذه ومريديه الذين رأوا فيه صورة جميلة تروعهم وتبهرهم ، من صور الإخلاص للعلم ، والفناء فى الحق ، فى ذلك العصر الذى مسخت فيه الصور ، وتحطمت فيه المثل ، وفقد

فيه الشبان ما تهفو إليه قلوبهم الغضة ، وما يحرك فيها نوازع السمو على الخطوب ، ومدافعة أسباب الفساد ، ويرضى لديهم تلك المثل الرفيعة الكامنة فى أعماقهم ، المستسرة فى نفوسهم البريئة الطاهرة .

وهكذا قضى ابن حزم فى ذلك المنقطع أيامه الأخيرة ، « يبث علمه فيمن ينتابه بباديته تلك ، من عامة المقتبسين منـه ، من أصاغر الطلبة ، الذين لا يخشون فيه الملامة ، يحدثهم ويفقههم ويدارسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف ، حتى كمل من مصنفاته فى فنون العلم وقر بعير ، لم يعد أكثرها عتبة بابه ، لتزهيد الفقهاء طلاب العلم فيها » كما يقول ابن حيان [1] .

وهكذا استطاع ابن حزم أن ينتصر على الأحقاد والضغائن ، فيفوت السلطان ، ويغلب الفقهاء ، ويمضى مع ذلك فى أداء رسالته بين تلاميذه ، وإذاعة كتبه ورسائله بين الناس ، ما وجد إلى ذلك سبيلا ، وإن قال ابن حيان إن أكثرها لم يعد عتبة بابه . ومع ذلك فهذا القليل كان مايزال كافياً لإثارة الفقهاء عليه ، والاستمرار فى تحريش عباد ضده ، وإن مضى الرجل بعيداً عنهم ، إلى ذلك المعتزل القصىّ .

وأى شىء كان يملكه المعتضد فى الاستجابة لهؤلاء الفقهاء لقاء هذا الشيخ الذى ناهز السبعين ، وقد ترك له أشبيلية ، ومضى بعيداً ، وانزوى فى ذلك المنقطع من الأرض . ولكن إلا يملك شيئاً ينال به شخصه ، فإنه

---

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٤١ — ١٤٢ .

يملك أن يؤذيه فى كتبه وآثاره ، فلتحرق إذن كتبه ! فما أبلغه رمزاً ، وما أبلغها مظاهرة بعيدة الأثر ، عميقة الدلالة ، شديد النكاية .

وهكذا حرق المعتمد كتب ابن حزم علانية فى أشبيلية ؛ وجدد بذلك ذكرى حادثة مشابهة حدثت فى قرطبة ، منذ مائة عام ، حين أحرق قاضى قرطبة كتب ابن مسرة . وقد ذكر أبو الحسين النباهى هذه الحادثة فى الفصل الذى عقده عن القاضى أبى محمد يبقى بن زرب . قال : «واعتنى القاضى بن زرب بطلب أصحاب ابن مسرة ، والكشف عنهم ، واستتابة من علم أنه يعتقد مذهبهم . وأظهر للناس كتابا حسناً وضعه فى الرد على ابن مسرة ، قرئ عليه وأخذ عنه ، وكان سنة ٣٥٠ استتاب جملة جىء بهم إليه من أتباع ابن مسرة ، ثم خرج إلى جانب المسجد الجامع الشرقى ، وقعد هناك ، فأحرق بين يده ما وجد عندهم من كتبه وأوضاعه ، وهم ينظرون إليه فى سائر الحاضرين» (١) .

حدث غريب انفردت به — فيما نحسب — الأندلس بين بلاد الإسلام جميعاً .

وعرف ابن حزم الخبر ، هذا الوجه الجديد من وجوه الكيد له ، والصد عنه ، وقد ألف ضروب الكيد المختلفة ، فما عسى يزيده هذا اللون الجديد من سخيف الكيد ؟ وما عساهم يبلغون إليه بهذا العمل ؟ أتراهم

---

(١) تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٨ . وانظر أيضا ص ٢٠١ فى الكلام عن : « من وجد بخطه شىء من المذاهب الفلسفية المخالفة للشريعة ، أو ما بمنزلتها ، فى هذا المعنى » .

يستطيعون بذلك أن يمنعوه من أداء رسالته ؟ هيهات هيهات .

ولعله لم يزد عند ما بلغه هذا الخبر على هذه الأبيات يعبر بها عن شعوره لقاءه :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى
دعونى من إحراق رق وكاغد وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
وإلا فعودوا فى المكاتب بدأة فكم دون ما تبغون لله من ستر (١)

وإنه ليتحدى فى هذه الأبيات خصومه ، كما نرى ، أن يناظروه ويقولوا فى كتبه بعلم ، لا هذا العبث الذى لجأوا إليه ، ثم يسمهم بميسم الجهالة الجهلاء ، ويمضى فى سبيله التى لم يستطع شىء أن يصده عنها ، والتى يعبر عنها هذان البيتان من شعره :

مناى من الدنيا علوم أبثها وأنشرها فى كل باد وحاضر
دعاء إلى القرآن والسنن التى تناسى رجال ذكرها فى المحاضر (٢)

وهكذا كان ابن حزم فى هذه الفترة التى قضاها فى غرب الأندلس : صورة أخرى من صور جهاده المتصل . وإنه وقد بلغ هذه السن العالية ،

---

(١) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٤٤ ، معجم الأدباء ١٢ : ٢٥٢ نفح الطيب ١ : ٣٦٧ .

(٢) الصلة ، ص ٤١٠ ، بغية الملتمس ، ص ٤٠٥ .

متجاوزاً السبعين من العمر ، يتمثل الموت ، ويرى نفسه ، وقد فرغ من هذه الحياة ، فيتعزى بهذه الأبيات ، يقولها ويترنم بها ، يجد فيها شيئاً من شفاء صدره :

كأنك بالزوار لى قد تناذروا ... وقيل لهم أودي على بن أحمد
فيارب محزون هناك وضاحك ... وكم أدمع تذرى وخد مخدد
عفا الله عنى يوم أرحل ظاعنا ... عن الأهل محمولا إلى بطن ملحد
وأترك ما قد كنت مغتبطاً به ... وألقى الذى آنست دهراً بمرصد
فواراحتى إن كان زادى مقدما ... ويانصبى إن كنت لم أتزود[1]

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٤٤ .

ولم تلبث هذه الشخصية المكافحة المجاهدة أن سكنت وهمدت ، ولم تلبث هذه الشعلة التى كانت كلما عصفت حولها العواصف ، وزأرت حولها الأعاصير ، زادت توهجاً واشتعالا ، أن انطفأت وخمدت ، ولم تلبث هذه الروح العاتية الغلابة أن استسلمت ومضت إلى العالم الآخر . و « توفى ، رحمه الله ، عشية من يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان ، سنة ٤٥٦ . فكان عمره رحمه الله ٧١ سنة وعشرة أشهر وتسعة وعشرين يوما » (١) .

وقد ترك ثروة من آثار عقله الكبير وروحه النشيطة ، تعتبر إلى جانب قيمتها الذاتيـة ، مضرب المثل فى وفرتها . قال صاعد الأندلسى : « ولقد أخبرنى ابنه الفضـل ، المكنى أبا رافع ، أن مبلغ تواليفه فى الفقه والحديث والأصول والملل والنحل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارض تبلغ نحو أربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة » (٢) . فلا عجب إذا قال أحد ملوك الأندلس المتأخرين وقد مر على قبره ، ووقف عليه بعد وفاته بمائة عام : « كل العلماء عيال على ابن حزم » (٣) .

(١) الصلة ؛ ص ٤١٠ .
(٢) معجم الأدباء ١٢ : ٢٣٨ — ٢٣٩ .
(٣) نفح الطيب ٢ : ٨٠٣ (ط بولاق).

فهرس الأعلام

(ا)

(غ)

(ف)

فهرس الموضوعات

تمهيد

تصويبات

س	س	الكلمة	صوابها
١٠	١١	ابى الفضل رافع	رافع* أبى الفضل
١١	١٥	العلمية	العلمى
٢٠	٣	محتوش	محتوشا
٢٥	٢	إليها	أهلها
٢٦	٨	مجوس	مجوسى
٢٧	٢	انما	عما
٢٧	٥	الى ليلة	الى ترك ليلة
٣٠	١	دائبة تعمل	تعمل دائبة
٣٩	١٦	من الحياة فى	من الحياة أثره فى
٥٣	٤	الطبنى	الطبنى *
٥٩	١٢	يكن	يكد
٦٠	٤	فنتيس	فنتيش
٦٨	٩	الجانب	الجانب الغربى
٨٠	١٦	الفعلية	العقلية
١٠٨	٩	ابى يزيد	ابن أبى يزيد
١١٠	١٥	ابن المنفتل	المنفتل
١٢٢	٢	من	بين
١٢٨	١٦	لعقولهم	بعقولهم
١٣٦	٧	بثورة به	بثورة القرطبيين به
١٤٣	١٤	فقد	فقد عاش
١٧٥	٧	الزاميات	الزامات
١٧٩	١٤	الذى	التى
١٨٢	٨	بطاردونه	ويطاردونه
١٩٤	١٢	سفره	شعره
٢٠٤	١٨	هرث	هوث

(*) وكذلك يصحح هذا الاسم فى سائر المواضع فى الكتاب